أسئلة الحداثة والتراث

د. علي عقلة عرسان

ما يكون في الحداثة ومنها اليوم قد يصبح ، مع الزمن ، في التراث ومنه ، وما يشكل قوام التراث يكون جذراً لساق وأغصان تورق عليها الحداثة ، فلماذا يقوم الرفض أحياناً بين الحداثة والتراث ؟! وهل يمكن أن يؤدي ذلك الرفض الى عطالة في أداء النسغ الدائب السريان بين جذر وساق وأوراق ، بين تراث ومعاصرة وحداثة ؟!

أطرح السؤال وأنا مقتنع بضرورة التفريق بين حداثة وحداثة ، بين فوضوية تدميرية ، ضائعة أو ترمي الى التضييع ، وبين بحث جاد وشوق متوثب الى الكشف وجلاء الرؤى وارتياد العوالم البكر ، بين محتطب بليل تتخطفه نوازع شتى وتقوده يداه وقدماه الغارقتان في الظلام عبر مهاوي الظلام ، فيسحق الزهر ويدمر الثمر أحياناً ، وبين سار على ضوء بصيرته ، ينير قلبه لعينيه الطريق ، وتتقرى أنامله بساط الكشف على نور البصيرة ، فيتدفق بين يديه نهر الابداع الذي يتواصل ماؤه مع بحر التراث .

أطرح السؤال وأنا أفرق تفريقاً دقيقاً بين حداثة عمياء تحركها حماسة هوجاء ، ولا تملك من أدواتها ومسالكها شيئاً ، وقد تدفعها الى ذلك دوافع تنطوي على الاغواء وترمي الى الايقاع بالثقافة والابداع بأيدي من ينتمون لهما

بينما المحرك معاد أو دخيل، وبين حداثة تملك أدواتها وتدرك أهدافها وتعرف مسالكها وكيف تصل الى ما تريد مع الحفاظ على الانتماء والاتصال، وتنبع من حب الانسان للتجديد، ورؤية في الأعماق تسكن قلوب المبدعين وتوجههم في حقول الانتاج سعياً وراء الاغناء والاغتناء •

كما أطرح السؤال على أرضية الايمان بضرورة التجديد، الذي هو صراط الحداثة الحقة، وبأهميته سواء سمي حداثة أم لم يسم، وعلى أرضية الاقتناع التام بأن الانسان، في كل عصر ومكان، لا بد له من أن يكون ابن بيئته الثقافية، وخصوصيته القومية، وهو يسعى ليؤكد ذاته ويقدم للآخرين مكتشفاته، من خلال الخروج على المألوف خروجاً واعياً لأهدافه وغاياته، يرمي الى البناء والى ترك بصمة في مجالات ذلك المألوف تزينه أو تحركه نحو ما يغنيه وما يزيده فعالية وجمالاً وتأثيراً وحيوية، ونحو ما يثري قدراته على اغناء الناس والحياة والابداع الانساني •

وطرحي لسؤال التراث والحداثة نابع من شعوري بوجود هوة بينهما وقيام أزمة ثقة وأزمة تواصل واعتراف متبادل بين ممثلي كل فريق – على تفاوت فيما بينهم – وتزايد عثرات في طريق التفاهم والتعاون والتكامل، يؤدي الى تضخمها وتنكر بعض ممثلي كل فريق للفريق الآخر، ورفضهما لاستقرار معيار يحكم الأمور •

وعلى الرغم من أن جسر اللقاء متحقق في الاتفاق حول شرعية التجديد ومشروعيته، إلا أن لكل فريق نظرته لمفهوم التجديد ومداه وحدوده، ولكيفية الوصول إليه وتحقيق أهدافه •

فالحداثي يصل أحياناً الى رفض كل معيار ومفهوم مستقر، ويرتمي في أحضان التمرد المطلق حتى ليصل في حالات الى فوضى التدمير مأخوذاً بالاحتجاج على القيود منطلقاً على أجنحة ترفض تقييد الحرية، والتراثي قد يصل الى حدود رفض الخروج على أبسط تفاصيل القواعد والمفاهيم المستقرة • ويستمر

الأداء في الاتجاهين دون الالتفات الى حقيقة وجود جسر التواصل المأمون القائم في التجديد المعترف به ، والذي يتضح به تاريخ الأدب •

ففي تاريخ الأدب العربي مراحل ، كل من أسس مرحلة أو دفع باتجاه تأسيسها كان مجدداً من جهة وخارجاً على ما أسسه السابقون الى حد الاتهام له في بعض الحالات من جهة أخرى ، وربما كان خروجه ذاك « حداثياً » بالمعنى السلبي أو الايجابي للكلمة ، حسب تداول المصطلح ومدلولاته اليوم ، بالنسبة لشرائح من المهتمين والمتلقين في ذلك الزمان •

فالشعر العربي في العصر الأموي ، مثلاً ، فيه خروج على ما تألف عليه شعراء الجاهلية ونقاد الشعر ومتلقوه في ذلك الزمان ، وفي العباسي خروج على الأموي وعلى رصانة الشعر وأغراضه في بعض الحالات والازمنة ، وفي الشعر الأندلسي « الموشحات مثلاً » خروج على بعض معايير الشعر العربي ، وقس على ذلك ما شئت أن تقيس ، حتى تصل الى الشعر الحر ، أو شعر التفعيلة ، والى ما يسمى « قصيدة النثر » وضروب أخرى من الانتاج الذي يلصق بالأدب العربي اليوم •

وعليه فان سؤال الحداثة والتراث، سؤال يكاد يكون قديماً حديثاً في آن معاً ، إذا ما حملنا كلمة الحداثة على ما فيها من تجديد أو خروج على المألوف ، ولكن حداثة اليوم ، من بعض الوجوه والمسارب تأخذ على عاتقها التدمير واشاعة الفوضى ، ويخرج قصار القامة ممن يسيرون في تظاهراتها على كل شيء ، حتى على سلامة اللغة وقواعدها ، وبالتالي لا يملك بعضهم أدوات الصنعة ولا يحسن استخدامها إذا ما وضعت بين يديه ، فضلاً عن عجزه الظاهر عن استخدام المواد التي تكوّن الابداع أو يتكون منها الابداع ، فكيف يصل الى التشكيل الفني المتفوق ، والتكوين والتلوين والموسقة العذبة ، والى السحر الذي يشيعه في النفس توافق سحر الماء وسحر الاناء ، سحر المضمون والشكل ، وتناغم ايقاع عميق الغور بين النص والمتلقي فتكون متعة التلقي وشرارة التغيير العميق في نفس المتلقي، وبالتالي أداء الوظائف العامة للأدب والابداع؟!!

يقول حداثي اليوم : إنني أكتب لأجيال قادمة يصعب على من يعيشون في الماضي ويحيطون أنفسهم بأسواره أن يتعرف على احتياجاتها وتطلعاتها ،وإنني أعيش حالة خاصة في عصر متطور يفوق تقدمه كل توقع ولذلك فانني لا ألزم نفسي بأي قيد وأجد أن انطلاقتي ينبغي ألا تحكم بشيء ، وحتى بعدم فهم المعاصرين لما أقول ٠

وحين يواجه ذلك القائل بامكانية ألا يكون لما ينتج أية قيمة في المستقبل وربما في الحاضر ، يصعّر خده ويمشي في الأرض مرحاً غير آبه بما سيكون ٠

ومسار التراث يطرح أمامه حقائق منها أن في التراث الأدبي ، الذي يشكل جذر الأدب ومنهله وقوامه العام ومخزونه الحيوي الهائل ، انتاجاً تم تخزينه في مخابئه أكله الغبار وتداولته الأقدام ، ونسيه الخلق، ولم يعد له تأثير أو حضور ، وربما ولد أصلاً دون حيوية أو تأثير أو حضور ، وصار شيئاً مما يتراكم على عتبات الابداع ويسد الطريق اليه وعليه في بعض الفترات ، ولا شك في أن ذلك عديم التأثير في مجرى النسغ الحي المتواصل بين قديم وجديد ، وربما هو عديم القيمة ، فهل يصح أن يكون ذلك عنواناً للأدب وللتراث ، من وجهة نظر الحداثيين الذين ينعون على التراث احتواءه بعض مالا يهضم ولا يفهم ولا يصح تسويغه أو تسويقه ؟!

ولكنّ في التراث كذلك ابداعاً حياً مستقبلياً مؤثراً يحيي موات النفوس ويجدد متعتها ، ويكتسب جدة بالتداول، ويطاول كل جديد ، فهل ينسب ذلك الجمود والتحجر ويصح أن يكون معوقاً أو عائقاً في طريق من يزعمون أن الابداع في ظل الحداثة يجب أن يعطي ظهره لكل قديم ولكل معيار أو قيمة ؟! وهل ينسب ذلك النوع من الابداع الذي يعج به التراث وتزدان به المعاصرة ، ويكتسح تأثيره النفوس ، هل ينسب الى الحداثة بمفهومها الايجابي أصولاً رغم انتمائه من حيث الولادة الى عصور سابقة ، وهو أكثر انسجاماً مع مفهوم الابداع الجديد المتفوق من أي ابداع جديد ومتفوق ،وأكثر قرباً من الناس الذين يعانون ويبحثون عن راحة وتجدد من ابداع ينتمي الى حداثة الآن ويشكل قوامها؟!

ان تأثير الأدب وحضوره وامتدادحيويته يكاد يشبه تموجات حلزونية ودوائر اهليلجية ذات أفلاك ومدارات تتمدد مع الزمن ودورة التأثير والتواصل البشري معها ، واذا كان استمرار التأثير، بكل قيمه ومقوماته ، واستمرار الاقبال على أدب وقبوله هو من أهم مميزات التجديد والجديد، فان في التراث الانساني عامة وفي التراث الأدبي العربي خاصة إنتاجاً يتفوق على كل حداثة وحداثية من حيث الجوهر والفعالية ،وهذا يدفع باتجاه طرح سؤال يتصل بهوية « الحداثي » من حيث السمات والمقومات والمواصفات من جهة ، ومن حيث المعايشة والحضور والتأثير ،ومن حيث الفعالية والتفاعل مع المتلقي من جهة أخرى • ويمكن بلورة ذلك السؤال وهوامشه في الصيغ التالية :

هل الحداثة مجرد معاصرة وجود ،ومناصرة لأحلام وأوهام وتطلعات يطمع أصحابها بالانتشار والخلود لأنهم يطهمون خيول النزوات دون أن يكونوا فرسان الرؤى والمواقف والكلمات فعلاً ، وتحل عليهم المصداقية لأنهم يديرون في الفضاء عيوناً مهووسة بمزاعم رؤية البعيد والعيش في المستقبل ، ويراكمون أوهاماً فوق أوهام،في حطام من كلمات وأخيلة، تنوء بها نصوص كسيحة تزحف نحو الوضوح فيلفظها الوضوح ، وتتعلق بالشفيف والمرمز من الابداع فتقع في الاغلاق وتغرق في برك التشوش أو يبتلعها مهمه" ضبابي جاف في قفر لا نصيب فيه لحياة الروح والمعنى والكلم الطيب والفكر المنير !؟

وهل الحداثة من الاعتداد بالذات والاستغناء عن الصفات الى الحد الذي تزعم معه أنها بغنى عن الغير وعن كل معيار وكل نظير ، وكل متلق وتقويم ونقد ، وأنها تكتفي بأن تكون مسكونة بالطموح المشروع والتعلق بكشف مستقبلي أو بحضور ما في المستقبل ،دون النظر الى أهمية العلاقة مع الحاضر، أو اهتمام بتقويم المعاصر لها ، وتفاعله معها ، واستفادته منها ؟! انها ان وصلت الى ذلك تكون حالة الوهم والضياع في تجسد من غرور يسعى على قدمين ، وأقدام الغرور من قصب ، وإقدامه رخو" كأشجار الغَرَب !!

وهل الحداثة جدة ولادة ليس الا ، وتشبث بالبحث عن تورمات ومغايرة ، حتى لو كانت تلك التورمات سرطانية خبيثة قتالة ، والمغايرة تقود الى التبعية والهجنة والضلال ؟! أم أن الحداثة ولادة طبيعية للجديد المدهش المتألق في جدته وتجديده وحضوره ، ولادة لنصوص فنية وأفكار جريئة ورؤى مستشرفة أخاذة بصوابيتها وادهاشها وجماليتها ، نمت في رحم حنون حماها وغذاها وقدمها للحياة ، فتلقفتها بيئة تحنو عليها وتحن اليها وتتعاطف معها وتتلاهف لها ، فينمو كل ذلك نمواً سليما ويحقق نهضة شاملة وسليمة بتواصله الخلاق مع الاحياء ومكونات الحياة الثقافية ، ويشكل جزءاً عضوياً من كل متكامل في مشهد حضاري يزداد زهواً بالاقبال عليه والانتفاع منه ، وتكبر أهميته بالحاجة اليه والاستفادة منه .

ان التراث يحقق تواصلاً أعمق وأدوم مع الناس والأدب والحضارة ، وعندما يصبح انتاج « الحداثة والحداثي » تراثاً ، قد يكتسب بعض تأثير التراث بقوة القدم ــ للقديم قوة لا تنكر ــ ولكن الى أن يرسخ الحداثي حضوره وجذوره ، والى أن يكتسب اعتراف المتداول ومكانته وتأثيره ، فلا بد له من أن يدقق في سؤال هام : هل يمكنه أن يستغني كلياً عن التراث ويستمر في رفضه والاعتراض عليه والتشامخ فوقه وعدم الاكتراث برأي سدنته والناظرين اليه نظرة احترام ؟! ألا يمكن أن يكون ذلك الموقف من الحداثي شمرخة لا معنى لها ولا غناء فيها ؟! ربما كان ذلك التعارض والتناقض من طبيعة الأشياء وسنن الحياة ، فالابن يخرج على أبيه ، وقد يلد الصالح طالحاً والطالح صالحاً ، وتتواصل صيرورة الحياة ضمن سيرورتها التي تتضمن جوهر الصراع ، ولكن الحياة تعلمنا أيضاً أنه لا يمكن أن يتفوق الجنون على العقل ويصبح أساس نظام الحياة والابداع ، ولا يمكن أن يصبح الاضطراب العصابي حالة سلامة ومقياساً للسوية البشرية ، وأنه لا يمكن مجاوزة معيارية الزمن والقفز فوق امتحانه وغرباله .

ان الأسئلة التي يطرحها التراث على الحداثة ، وتلك التي تطرحها

الحداثة على التــراث كثيرة ومتشعبــة ومثيرة ، وينبغي التوقف عندهــا بدقــة وموضوعية للتمييز بين تطلعات ايجابية مشروعة وبناءة وأخرى قاصرة وهدامة، بين علاقــة سليمة تــؤدي الى استمرار تيار الوعي والذاكرة والهوية في الابداع، واستمرار التواصل والتأثير بشكل سليم، كما تؤدي الى تنوع الولادات وغناها في ظل الصحة والسلامة والتمايز والرعاية، وصولاً الى التفــوق المرتقب ، وبــين اجهاضات متتالية كحالات حمل قد يكون متميزاً فيما لو تم بصورة طبيعية ولقي حضانة سليمة •

ومن حق الحداثي على التراثي ألا يكون الأخير له قيداً أو غلاً، وألا يحجره ضمن قوقعة ويحجب عنه الشمس والريح والانطلاقة الحرة التي هي مناخ الابداع وماء حياته وسر حيويته ، وأن يفيض عليه من رحابــة الاستيعاب ويتسع لــه ما اتسع مجال الابداع للتجديد ، مــع الحفاظ على الهوية وتمايز الأنواع في خطوطها العريضة التي تثبتها جواهــر المقومات والقيم والمعايير •

ومن حق التراثي على الحداثي أن يكون الأخير مستوعباً لأهم معطيات الأول ومقوماته وقيمه ، وأن يتعرف اليه جيداً ويقبل عليه ليتمكن من استيعاب ما لديه، ويخرج عليه اذا ما خرج خروج المقتدرين المتمكنين العارفين من هم وما يريدون ، وما يرفضون وما ينشدون ، ومن حق التراثي على الحداثي أيضاً أن يحمــل معالم هوية الأصالة لديه ليكون وريثاً شرعياً له حتى لا تأكله الهجنة وينتمــي الى الغير ، وحتى لا يكون سلاحاً فتاكاً بيد الغير يهــوي على الشــجرة / ساقا وجذراً وأغصاناً وأوراقاً / فلا يترك لهاقيمــة ولا قوامــاً •

ولا بد أن تحكم العلاقــة بعض الأسس والمعايــير التي تجعــل للاستمرار وجوداً وتجعل له معنى • وربما كان من واجب الحداثي أن يكون جاداً في سيره دون أن يشتط به السير والمسار فيصبح كالمنبت لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع •

ان الأسئلة التي تطرح عند نقطــة السرة بين الحداثــة والتراث تبقى من الأهمية بحيث تستحق أن تعالج بتعمق دائماً ، وفي أزمنــة ومراحل متتاليــة ،

لأنها أكثر من اعادة نظر بمسيرة التواصل ، ولأنها أكثر من تجديد للعلاقة ، واستبصار بتفاصيلها ونتائجها، واستشراف للدروب والآفاق التي تؤدي اليها ، ولأنها قبل ذلك كلـه وبعد ذلك كلـه ،نظرة تقويم على أسس منطقية ومنهجية تقتضيها حركـة الحيـاة والابـداع ،ومتطلبات التواصل بين جيل وجيل في أمة وبين مبدع ومتلق ، وبين ثقافة وثقافةفي اطـار الغنى الذاتي والانساني الذي ينتج عن تلاقحهما واستمرار تفاعلهما ،التفاعل القومي والانساني ، وبين ثقافة ذات هويـة وخصوصيـة تصب جدولاً صافياً في حضارة انسانية شاملة فتغنـي تلك الحضارة وفروعها التي تكونها ٠

التراث والحداثة ـ بمعناها الايجابي السليم ـ صلة حية بين جذر يمنـح الثبات والحياة ، وثمرة لا تلبث أن تتجدد على فرع يغلظ ليـزيد الساق قـوة، وليعتمد أكثر على الجذر بانضمامه الى كيانـه العـام ٠

فلنحافظ على مناخ سليم لتواصـل سليم يؤدي الى أطيب الثمار في أكثـر الأدواح اتصالاً بالجمال والحيـاة والناس ٠ واننـا علـى ذلـك قـادرون ٠ بعـون الله ٠

دمشق في ١٩٩٤/١٢/٢٨

* * *

اسم الفاعل

والموازنة بينه وبين الصفة المشبهة وما يعترض الكتاب فيه من لبس وإشكال

صلاح الدين الزعبلاوي

١ ـ اسم الفاعل ودلالته :

يقول الأئمة في تعريف اسم الفاعل انه اللفظ المصوغ من الفعل المعلوم للدلالة على معنى وقع من الموصوف ، أو قام به على جهة الحدوث لا الثبوت ، على حين يقولون في تعريف الصفة المشبهة انها اللفظ المصوغ من الفعل اللازم للدلالة على معنى قائم بالموصوف على وجه الثبوت لا الحدوث •

ويتبين بذلك أن الصفة المنبهة تتميز بانها تدل على الثبوت ، وتشتق من اللازم ، وأن اسم الفاعل يدل على الحدوث ويصاغ من اللازم والمتعدي •

وياتي مبنى اسم الفاعل من الثلاثي المجرد على (فاعل) بكسر ما قبل آخره ، وهو اما أن يُصاغ من (فَعَـل) المفتوح العين في الماضي ، متعدياً ولازماً ، كضارب من ضرب وقاعد من قعد ، أو من (فَعِل) المكسور العين فيه متعدياً كشارب من شرب • هذا هو الغالب فيه • وهو يُصاغ من غير الثلاثي على زنة مضارعه بابدال أوله ميماً مضمومة وكسر ما قبل آخره، كمُسعِفٍ من أسعَفَ ومُجيب من أجاب •

آ ـ ما جاء من اسم الفاعل على غير الأصل :

قد ياتي اسم الفاعل خلافاً للأصل المقيس الذي ذكرناه ، كأن يُصاغ من (فَعِلَ) بكسر عين الماضي ، ولكن من فعل لازم غير متعد ، فيدل على الثبوت كسالم من سَلِم وتاعس من تَعِس وتافه من تفِه وخاطىء من خطِىء ، بكسر عين الماضي فيها جميعاً • أو ياتي من (فعِل) بكسر عين الماضي اللازم على صورة المتعدي بحذف الجار ، فيدل على الثبوت أيضاً ، كساخِط من سخِطه بالكسر،

والأصل سخط منه ، أو يأتي مما يستوي فيه المذكر والمؤنث كرجل بالغ وامرأة بالغ ، ورجل خادم وامرأة خادم ، فيدل كذلك على الثبوت . وقد ذهب المحققون الى أن ما استوى فيه التذكير والتأنيث من الصفات ليس صفة مشبهة ولا اسم فاعل ، بل هو صفة (على النَّسَب) كرجل عاشق وامرأة عاشق ، أي ذي عشق وذات عشق .

ب ـ دلالة اسم الفاعل على الحال أو الاستقبال :

خصَّ النحاة دلالة اسم الفاعل بالحدوث حين قرنوه بالصفة المشبهة الدالة على الثبوت . وقد قصدوا بذلك افادته للحال أو الاستقبال نحو افادة مضارع فعله . وبُني على ذلك اعمال اسم الفاعل المجرد من (أل) في معموله ، وذلك بتنوينه ونصب المفعول اذا كان متعدياً . على أن يستوفي شروط الاعمال كوقوعه خبراً أو صفة أو صلة أو حالاً ، أو وقوعه بعد نفي أو استفهام ، ذلك لتستحكم المشابهة بينه وبين الفعل .

ويستعاض عن اعمال اسم الفاعل المعدّ للعمل ، باضافته اضافة لفظية لا تفيد التعريف . وهذا يعني أن اسم الفاعل ما دام يفيد الحال أو الاستقبال لا يتعرف بالاضافة . والشاهد على ذلك قوله تعالى : « كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ـ آلعمران/١٨٥ » . فقد جاء (ذائقة) لحكاية الحال ، وقرىء بالاضافة فكانت اضافته لفظية لا تفيد التعريف ، كما أعمل فيما بعده فقرىء بالتنوين ونصب (الموت) ، قال العكبري محب الدين أبو البقاء في كتابه (إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات في جميع القرآن) : « واضافة ذائقة غير محضة » أي لفظية لا تفيد التعريف . وعلل العكبري ذلك فقال: «لأنها نكرة يُحكى بها الحال» ، وأردف : « وقرىء شاذاً ذائقةٌ الموت بالتنوين والاعمال » . أقول ما دام قد قرىء به فهو جائز على كل حال . قال القرطبي أبو عبدالله في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) : « وقرأ الأعمش ويحيى وابن أبي اسحاق ذائقةٌ الموتَ بالتنوين ونصب الموت ، قالوا لأنها لم تذق الموت » . وقال الفراء في كتابه (معاني القرآن) : « ولو نوّنت ذائقة ونصبت كان صواباً » . وهكذا اذا جاء اسم الفاعل على الأصل فدل على الحال أو الاستقبال أمكن إعماله اذا استوفى شروط الاعمال ، وأمكن اضافته فكانت الاضافة لفظية لا تفيد التعريف .

جـ ـ دلالة اسم الفاعل على تجدد الحدث مستمراً :

قد لا يقف اسم الفاعل عند دلالته على الحال أو الاستقبال فيتجاوز ذلك الى افادة تجدد الحدث باستمرار ، وهو ما اصطلح عليه عند النحاة باستمرار التجدد . فيقوم اسم الفاعل حينئذ بعمله بعد التنوين وينصب المفعول ، على الأصل ، فاذا أضيف كانت اضافته كذلك لفظية لا تفيد التعريف . ومثال هذا قولك (زيد مكرم الضيفان) على الاضافة ، و (زيد مكرم ضيفانه) بتنوين اسم الفاعل ونصب ما بعده . قال الشيخ ناصيف اليازجي في كتابه (نار القرى/١٧٨) : « وجرى مجرى ما كان على الحال والاستقبال ما أريد به الاستمرار التجددي نحو زيد مكرم ضيفه » بتنوين مكرم ونصب ما بعده .

وقد جعل بعضهم من هذا القبيل قوله تعالى : «فالق الاصباح وجعل الليل سكناً ـ الأنعام/٩٦». فقد قرىء « وجاعل الليل سكناً » وجاء فيه قولان :

الأول أن اسم الفاعل دال على تجدد الحدث باستمرار ، ويمكن حينئذ اضافته ، فتكون اضافته لفظية لا تفيد التعريف ، واعماله فيكون (سكناً) منصوباً به • وقد أشار البيضاوي ناصرالدين في تفسيره (أنوار التنزيل) الى دلالة اسم الفاعل هذه فقال : « على أن المراد منه جعل مستمر » • كما أشار العكبري محب الدين أبو البقاء في كتابه (املاء ما منّ به الرحمن من وجوه الاعراب) الى اعمال اسم الفاعل فقال: « وجاعل الليل مثل فالق الاصباح في الوجهين ، وسكناً مفعول جاعل اذا لم تعرّفه »•

والثاني أن اسم الفاعل دال على الماضي بدليل قراءته الأولى (وجعل) ، فيجب حينئذ اضافته فتكون اضافته محضة تفيد التعريف ، ويمتنع في هذه الحال عمله فيقدّر نصب (سكناً) بفعل محذوف، كما سنذكره بعد • قال العكبري : « وان عرّفته كان منصوباً بفعل محذوف أي جعله سكناً » •

د ـ دلالة اسم الفاعل على الماضي :

قد يدل اسم الفاعل على المضي وحده دون الحال أو الاستقبال فيُلغى عمله وتجب فيه الاضافة فتكون اضافته معنوية حقيقية محضة تفيد التعريف كاضافة الاسم غير المشتق • ومثال ذلك قوله تعالى : « الحمد لله فاطر السموات جاعل الملائكة رسلاً ـ فاطر/١ » ، فقد جاء (فاطر وجاعل) مضافين اضافة محضة تفيد التعريف • قال العكبري في كتابه (املاء ما منّ به الرحمن من وجوه الاعراب) : « فاطر السموات : الاضافة محضة لأنه للماضي لا غير • وأما جاعل فكذلك في أجود المذهبين »

هـ ـ دلالة اسم الفاعل على الاستمرار :

وقد لا يدل اسم الفاعل على زمن معين فيفيد الاستمرار فيعامل معاملة ما يدل منه على الماضي • قال تعالى : « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب ـ غافر/١ ـ ٢ » •

★ ★ ★

ويتبين مما تقدم أن دلالة اسم الفاعل على الحدوث تعني مشابهته للمضارع وافادته للحال أو الاستقبال أو تجاوزه ذلك بالقصد الى دوام التجدد ، وهو يعمل في هذه الحال فينصب المفعول اذا كان متعدياً أو يضاف فتكون اضافته لفظية •وقد يتحول عن مشابهة المضارع فيفيد الماضي بقرينة أو يفيد الاستمرار فيُلغَى عمله في الحالين ويضاف فتكون اضافة حقيقية معنوية • قال عبدالرحمن الجامي في شرح الكافية لابن الحاجب : « فان كان اسم الفاعل المتعدي للزمان الماضي بالاستقلال أو في ضمن الاستمرار ، وأريد ذكر مفعوله وجبت الاضافة ، أي اضافة اسم الفاعل الى مفعوله معنى ، أي اضافة معنوية » •

و ـ انزال اسم الفاعل منزلة الاسم غير المشتق :

وقد ينزل اسم الفاعل منزلة الاسم غير المشتق كالعالم والمؤمن والكافر فانها أسماء فاعلين أريد بها الثبوت • و (أل) الداخلة عليها للتعريف وليست موصولة ، لأن (أل) الموصولة انما تدل على ما يراد به الحدوث لا الثبوت • واذا جُرّدت أسماء الفاعلين هذه من (أل) التعريف وأضيفت

كانت اضافتها معنوية لا لفظية • تقول جاء عالم‌بلدنا ، فعـالم في الأصل صفة أضيفت الى غير معمولها فأنزلت منزلة الاسم • وهكذا قولك جاءمصارع الحلبة• وهكذا الكاتب‌والقارىء والشاعر والعامل والقاضي اذا أريد بها من يزاول الكتابة‌والقراءة وقرض الشعر والعمل والقضاء •

٢ ـ كلام الباحثين المحدثين على اسم الفاعل ودلالته :

١ ـ كلام الدكتور ابراهيم السامرائي :

تحدث كثير من الباحثين المحدثين عـن دلالة‌اسم الفاعل ومنهم الدكتور ابراهيم السامرائي في كتابه (الفعل زمانه وأبنيته)، فأنكر أن يكون الأئمة قد نسبوا دلالة الاستمرار الى اسم الفاعل، فقال: « والقول بدلالة فاعل على الاستمرار ما انفرد به‌المخزومي • فقد اقتصر السابقون على دلالة فاعل على المستقبل ، وهو اسم الفاعل المنون العامل ،نحـو أنا صائم يوم الخميس ، أي سأصوم • وعلى المضي وهو اسم الفاعل المضاف نحو قاتل أخيه أي‌قتـل/٤٢ » ! قال هذا وكأنه لم يعاين ما جاء في أسفار السَلَف لا سيما ألفيَّة ابن مالك وشرح الأشموني لها ، وحاشية الصبان على هذا الشرح، بل كافية ابن الحاجب وشرحها للرضي والجامي ،فضلاً عـن كتاب (همع الهوامع في جمع الجوامع) للسيوطي •• وقد عبَّر السيوطي عن دلالة اسم‌الفاعـل على الاستمرار بعـدم اختصاص هـذه الدلالة بزمان دون زمان • فقـال : « فان قصـد‌تعريفها ، أي الصفة المضافـة الى معمولها ، بأن قصد الوصف بها مـن غير اختصاص بزمان دون‌زمان تعرفت • ولذا وصف بهـا المعرفة في قـوله تعالى : مالك يوم الدين ، فالق الحب والنوى ، غافر الذنب ، الا الصفة المشبهة•• » • ولا ننسَ ما ذكرناه من قول أبي البقاء الكفوي في كلياته :« معنى الاستمرار هو الثبوت من غير أن يعتبر معه الحدث في أحد الأزمنة ـ ٥/٣٣٢ » •

وليس هذا وحسب فقد جعـل أبو البقاء الكفوي دلالة اسم‌الفاعل على الاستمرار أو الثبوت في أصل وضعه ، اذ قال : « اسم الفاعل يستفادمنـه مجرد الثبوت صريحاً بأصل وضعه ، وقـد يستفاد منه غيره بقرينة ـ ٥/١٧٣ » •

ولوجهة النظر هـذه في اعتداد الثبوت أو الاستمرار هـو الأصل في دلالة اسم الفاعل وجـه متقبل • ذلك أن اسم الفاعل (اسم) والاسم على‌الثبوت والاستمرار ، ولكنه يشبه الفعل وشبهه هذا قد تحول به الى ما يدل عليه الفعل المضارع‌من حركة وتجدد • وهـذا ما كشف عنه الامام عبدالقاهر‌الجرجاني في كتابه (دلائل‌الاعجاز ١١٥)،فأفصح عن الفرق بين قولك (زيد منطلق) و (زيد ينطلق) • فقولك (زيـد منطلق) يثبت الانطلاق‌لزيـد دون أن يقتضي تجدداً، أما قولك (ينطلق) فانه يثبت لزيد انطلاقاً يتجدد فيقع منه شيء بعدشيء • واذا كان النحاة قد ذكروا أن قولك (خالد دائب في عمله) كقولك (يدأب فيـه) ، فان قولهم‌هذا على المشابهة لا على المماثلة والمطابقة • ذلك أن في أصل دلالة المضارع مـن التجدد ما ليس في‌أصل دلالة اسم الفاعل ، وقد أشار الأشموني الى دلالة المضارع هذه ، في شرح ما جاء من قول ابن‌مالك في ألفيته (أحمد ربي الله خيرَ مالك)، اذ قال: (واختار صيغة المضارع المثبت لما فيه من الاشعار بالاستمرار التجـددي ، أي كما أن آلاءه تعـالى لا تزال تتجدد في حقنا دائماً كذلك نحمده بمحامد‌لا تزال تتجدد » • وهذا يعني أن الأصل في التجدد

أن يكون للفعل ، فاذا وصف به اسم الفاعل فقداستدعت ذلك قرينة تحولت باسميته الى مشابهة الفعـل ·

واذا كنا قد جارينا النحاة ها هنا فجعلنا الأصل في اسم الفاعل الدلالة على الحدث ، فاذا دلَّ على الاستمرار فقد تحول عن أصله ، فذلك لأنناقرناه بالصفة المشبهة الدالة على الثبوت فوازنّا بينه وبينها فتميز عنها بافادة الحدث · ولو قرنااسم الفاعل بالفعـل فوازنا بينهما لكان الفعـل صاحب الحدث وكان اسم الفاعـل هو الدال علىالاستمرار ·

٢ ــ كلام الدكتور مهدي المخزومي :

تحدث المخزومي في كتابه (في النحو العربي) عما جـاء في (فاعل) اسم فاعل في مذهب الكوفيين فقـال : « وأما مثال فاعل فهو أحد أقسام الفعل وهو الفعل الدائم الذي لا دلالة له على زمن معين اذا لم يوصل بصلة من مضاف اليه أو مفعول) ·وفي كلامه هذا موضع للنظر ، ذلك أن الكوفيين لم يسمّوا اسم الفاعل الفعل الدائم لعدم دلالته علىزمان معين ، بل لدلالته على الماضي تارة والحال والاستقبال تارة أخرى · والمخزومي قد اشترطلدلالة اسم الفاعل على زمن معـين أن يضاف أو ينصب مفعولاً · واضافة اسم الفاعل الى معموله قد تدل على الحال أو الاستقبال ، كما في مثـال (ذائقة الموت) أو على الماضي كما في مثال (فاطر السموات) ، لكنها قد لا تدل على زمن معين فتفيد الاستمرار كما في مثال (غافر الذنب قابل التوب)·

٣ ــ كلام الأستاذ محمد العـدناني :

بحث الأستاذ محمد العدناني في كتابه (معجمالأغلاط اللغوية المعاصرة) عمل اسم الفاعل فقال: « يعمل اسم الفاعل المشتق من الفعل المتعدي عملفعله في رفـع الفاعل ونصب المفعول به كقولنـا ــ هُدى دارسة جميعَ دروسها ، والقانون شاملكل القوانين السابقة ، وأرى جيشنا ساحقاً جيش الأعداء » · وهكذا أتى بمفعولات أسماء الفاعلينمنصوبة ، وهي (جميع وكـل وجيش) ثم أردف : « ما عدا اسم فاعل واحداً هو ــ صاحب ــ فتقول:صحب حسام ياسـراً فهو صاحبه ، ولا يجوز أن تقول حسام صاحب ياسراً ، بتنوين صاحب ، بلتقول حسام صاحب ياسر، بالاضافة لأنهماستعملوا اسم الفاعل ــ صاحب ــ استعمال الأسماء فجرتعليه أحكامها » ·

أقـول لا شك أن اسم الفاعل لا يعمل عملفعله ما لم يدل كمضارعه على الحال أو الاستقبال أو يفيد الاستمرار التجددي ، فاذا أنـزل منزلةالأسماء ألغي عمله · وقـد بسطنا القول في ذلك وأتينا بأمثلة مـن أسماء الفاعلـين أنزلت منزلةالأسماء · لكن الغريب حقاً أن يذهب العدناني الى أن العرب لم تنزل من أسماء الفاعلين منزلة الاسمسوى (صاحب) ، فكيف يمكن أن يُخصَّ (صاحب) بهـذا ، على اتساع لغـة الضاد وتقلّب معـانيمفرداتها وتشعب أساليب التعبير فيها وتباينها · ومما أشرنا اليه من أسماء الفاعلين التي خصتبهذه المنزلة ، منزلة الاسم : عالم وقاض وكاتب وعامل وشاعر اذا أريد بها من زاول العلموالقضاءوالكتابة والعمل وقرض الشعر ، ومثلها كثـير ·

وقد قرن سيبويه في (الكتاب ــ ٢/١٠٠) بالصاحب (الوالد) والوالد هو الأب · وقد بحث قياس جمعهما بعد أن كانا صفتين فأصبحا اسمين،فقـال : « فأما والد وصاحب فانهما لا يجمعـان

ونحوهما كما يجمع قادم الناقة » أي لا يجمعان جمع الأسماء ولو أنزلا منزلة الاسم ، فلا تقول في جمع (والد) أوالد، وفي جمع (صاحب) صواحب،كما تقول في جمع (قادم) قوادم . وقادم الانسان رأسُه ، وقادم الناقة مقدمتها . قال المرزوقي فيشرح الحماسة (ص ٧١) : « صاحب وفعله صاحب صفة في الأصل استعملت استعمال الأسماء ، فلم يجر مجرى أسماء الفاعلين ، ويجري على طريقته قولهم والد » . وقال نحو من ذلك ابن سيده فيمخصصه (٥٥/١٧) .

وفي اللغة (قائم السيف وقائمته) أي مقبضه، والقائمة كذلك واحدة قوائم الدواب ، كما جاء في مختار الصحاح . ويدخل في هذا الباب قولهم (قافلة الحاج) ، وقد أسميت بها الرفقة . قال ابن قتيبة في (أدب الكاتب) : « سميت الرفقة بالقافلةقبل قفولها تفاؤلاً » . وقال الصاغاني في كتابه (الذيل والصلة) : « من قال القافلة للراجعة منالسفر فقد غلط ، بل ذلك للمبتدئة في السفر تفاؤلاً لها بالرجوع » . وهكذا (الآزفة) في قوله تعالى : « وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر ــ غافر/١٨ » والآزفة يوم القيامة وهيمشتقة من (أزف الرحيل) اذا قرب .

٣ ــ تبع الصفة للموصوف في التعريف والتنكير :

يشترط في الصفة أن تتبع موصوفها فيالتعريف والتنكير ، فاذا كان الموصوف معرفة وجب أن تكون الصفة معرفة ، واذا كان نكرة كانت الصفة كذلك أيضاً . تقول (الحمد لله) وهي جملة اسمية اخبارية لفظاً ، انشائية معنى ، وقد رفعفيها (الحمدُ) على الابتداء ، وكان الجار والمجرور في محل الرفع خبراً للمبتدأ . فاذا أردت أن تصف اسم الجلالة (الله) قلت مثلاً (الحمد لله المعروف من غير رؤية) كما جاء في نهج البلاغة (١٥٧/١) ، اذ جاء (المعروف) صفة وكان معرَّفاً لأن الموصوف معرفة. وهكذا قول القائل (الحمد لله الأول فلا شيءقبلَه) كما جاء في نهج البلاغة (١٨٧/١) ، فالأول صفة معرَّفة والموصوف علَم وهو اسم الجلالة . وفي التنزيل « الحمد لله رب العالمين » ، وقد جاء فيه (ربّ) صفةً لله وهو معرفة لاضافته الى معرفة ،وهكذا قوله تعالى : « فتبارك الله أحسنُ الخالقين ــ المؤمنون/٨٤ » .

أما مثال التنكير فقوله تعالى : « ولهم عذابٌ أليمٌ بما كانوا يكذبون ــ البقرة/١٠ » فأليمٌ صفة لعذاب وكلاهما نكرة . وقوله تعالى : « ولهمفيها أزواج مطهَّرة وهم فيها خالدون ــ البقرة/٢٥ » فمطهَّرة صفة الأزواج وكلاهما نكرة .وقوله تعالى : « ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإيّاي فاتَّقون ــ البقرة/٤١ » فقليلاً صفة لقوله(ثمناً) وكلاهما نكرة .

وقلّما يُشكل على الكتاب تعريف الوصف بـ (أل) أداة التعريف ، ولكن يشكل عليهم تعريف الوصف بالاضافة . فالسؤال ها هنا متى يكتسبالوصف التعريف بالاضافة فيصح أن يوصف به الموصوف المعرَّف .

١ ــ متى يتعرف الوصف بالاضافة :

القاعدة ألاّ يعرَّف المضاف عامة بالاضافة ما لم تكن اضافته معنوية محضة تفيد التعريف ، وضابطها في الوصف ، سواء أكان اسم فاعل أومفعول أو صفة مشبهة ، ألاّ يكون مضافاً الى

معموله فاعلاً أو مفعولاً ، والا كانت اضافته لفظية لا تفيد التعريف • فليس لك أن تقول مثلاً (على النفس ذائقة الموت أن تهتم بأخراها) ، بل الصواب أن تقول (على النفس الذائقة الموت أن تهتم بأخراها) أي على النفس التي ستذوق الموت أن تهتم بأخراها ، والأخرى هي الآخرة ، أي دار البقاء • وليس لك أن تقول (على المرء مهضوم الحق ألاّ يسكت على ظلمه) بل الصواب أن تقول (على المرء المهضوم الحق ألاّ يسكت على ظلمه) ما دام معناه الذي يهضم حقه ، وليس لك أن تقول (المرأة حسنة الوجه تفتن الرجال) بل الصواب أن تقول (المرأة الحسنة الوجه تفتن الرجال) •

وقد استثنوا من ذلك اسم الفاعل أو المفعول اذا دلّ على الماضي ، أو لم يدل على زمن معين ، كما فصلنا فيه القول • قال السيوطي في كتابه (همع الهوامع – ٢/٤٨) : « فان قُصد تعريفها أي الصفة المضافة الى معمولها ، بأن قصد الوصف بها من غير اختصاص بزمان دون زمان تعرّفت ، لذلك وُصف بها المعرفة » • وهو يعني بذلك دلالة الصفة على الاستمرار ، فقد جاء في شرح (الأزهرية في علم العربية) لخالد بن عبدالله الأزهري ، في اعراب الفاتحة : « رب نعت أول لله ، وهو مضاف والعالمين مضاف اليه • والرحمن نعت ثانٍ لله ، والرحيم نعت ثالث ، ومالك نعت رابع » • وأردف : « وصح ذلك لدلالته على الدوام والاستمرار وهو مضاف اضافة محضة ، ويوم مضاف اليه ومضاف ••• » • وكذلك كلام السيوطي على الصفة اذا دلت على الماضي ، فقد سبق منه قوله : « فان كانت ، أي الصفة بمعنى الماضي ، فاضافتها محضة •• » أي اضافة معرّفة يصح بها وصف المعرفة •

ولكن هل يصح في اضافة الصفة المشبهة ما صح في اضافة اسم الفاعل والمفعول • أقول قد استثنى السيوطي الصفة المشبهة فأفردها بحكم خاص وقال : « الا الصفة المشبهة فلا تتعرف لأن الاضافة بها نقل عن أصل وهو الرفع بخلافها في غيرها فهي عن فرع وهو النصب : ولأنه اذا قصد تعريفها أدخل عليها اللام » •

وما جاء ها هنا عن اضافة الصفة المشبهة وكونها لفظية ، لا تفيد التعريف في كل حال ، وأنها انما تتعرف بـ (أل) ، أقول ما جاء ها هنا هو رأي جمهور النحاة • فقد صحح الأشموني في شرحه ما ذهب اليه ابن مالك في ألفيته فقال : « فهي أي الصفة المشبهة ليست بمعنى الحال أو الاستقبال بل للثبات والدوام ، وهي وان كانت كذلك لا تتعرف بالاضافة أصلاً » • وقد سبق الرضي الى ذلك في شرح كافية ابن الحاجب فقطع بأن اضافة الصفة المشبهة لفظية أبداً وبنى ذلك على كونها عاملة في محل المضاف اليه اما رفعاً أو نصباً ، فقال : « فهي جائزة العمل دائماً فاضافتها لفظية دائماً » •

٢ – اختلاف حكم الوصف في التعريف اذا أضيف الى معموله عامة بين أن يكون اسم فاعل أو مفعول أو يكون صفة مشبهة :

يتبين بما قدمنا أن اسم الفاعل واسم المفعول يتعرفان اذا أضيفا الى معمولهما بشرط دلالتهما على المضي أو الاستمرار ، وأن الصفة المشبهة لا تتعرف بالاضافة الى معمولها ، مهما كان حالها ، مع دلالتها على الثبات في الأصل • وقد بني على ذلك أن الصفة المشبهة لا تصح وصفاً لموصوف

معرّف اذا أضيفت الى معمولها ما لم تتعرّف باقترانها بالألام ، خلافاً لاسم الفاعل والمفعول ، اذ يصح أن يكونا وصفين لموصوف معرّف اذا أضيفا الى معمولهما ودلاّ على الماضي أو الاستمرار ٠

٣ ـ مجمع اللغة العربية بالقاهرة وتعريف الصفة المشبهة المضافة :

قضى مجمع اللغة العربية بالقاهرة في مؤتمره(عام ١٩٨٣) بتعريف الصفة المشبهة المضافة ، واعتداد اضافتها معنوية ، فأجاز وصفها للمعرفة قياساً الى اسم الفاعل والمفعول المضافين اذا دلاّ على الاستمرار فقد اعتد النحاة اضافتهما معنويةوأقروا وصفهما للمعرفة٠٠٠ فما الرأي في ذلك ؟

أقول أقرّ مجمع اللغة القاهري تعريف الصفةالمشبهة ، بعد أن شهد بمخالفة رأيه هذا رأي النحاة لا سيما الخليل ويونس وسيبويه ، فقال :« وترى اللجنة أن الصفة المشبهة أقرب الى أن تكون اضافتها معنوية » ٠

وعندي أن المجمع القاهري لم يُصب فيما ذهب اليه وأن قياسه ليس صحيحاً ٠ ذلك أن الصفات ، اذا أضيفت الى معمولها ، اما أن تضاف الى فاعلها أو الى مفعولها ، فاذا كان الأول كانت اضافتها لفظية لا تفيد التعريف ، صفة مشبهةكانت أو اسم فاعل أو مفعول ٠ واذا عرفنا أن الصفة المشبهة لا تضاف الا الى فاعلها أدركنا أن اضافتها لفظية لا سبيل الى تعريفها ٠ خلافاً لاسم الفاعل والمفعول فانهما يضافان الى مفعولهمافتكون اضافتهما معنوية تفيد التعريف اذا دلاّ على الاستمرار ، أو يضافان الى مرفوعهما فاعلاً لاسم الفاعل ونائب فاعل لاسم المفعول فتكون اضافتهما لفظية كاضافة الصفة المشبهة سواء بسواء ٠

فالسر اذاً في تعريف اسم الفاعل المضاف هواضافته الى مفعوله أولاً ثم دلالته في هذه الاضافة على الاستمرار ، فكيف يمكن أن تقاس به الصفةالمشبهة ، وهي لا تضاف الا الى فاعلها ؟ قال الرضي : « أما عمل اسم الفاعل والمفعول فهوجائز في المرفوع مطلقاً باضافتهما ، فاضافتهما الى فاعلهما لفظية دائماً » ٠

٤ ـ اضافة الوصف الى مرفوعه لا تكون الا لفظية ، صفة مشبهة كان الوصف أو اسم فاعل أو مفعول :

هذا ما قضى به النحاة ٠ ولكن ما علة ذلك؟ أقول علة ذلك أنك اذا قلت (زيد حسن الوجه) باضافة الصفة المشبهة الى فاعلها مثلاً ، فكأنكقلت (زيد حسن وجهه) برفع (وجهه) ، ولا بد من تلازم الوصف وفاعله في القولين وتكاملهما وعدمانفكاك أحدهما عن الآخر ، كما هو شأن الفعل وفاعله ، فأي تعريف يمكن أن يفيده الوصفباضافته الى ما هو كالجزء منه والاضافة انما تكون بين متغايرين ، كما يقول النحاة ٠ وقدأشار النحاة الىتعلق الفعل بفاعله فقالوا: « تعلق الفعل بفاعله أشد من تعلق المبتدأ بخبره ، لأنالفاعل بمنزلة الجزء من الفعل » جاء ذلك في (الأشباه والنظائر ـ ٥٦٦/١) للامام السيوطي ٠كما قالوا : « الفاعل لا يتقدم على فعله لأنه كالجزء منه » وأردفوا « الصفة لا تتقدم علىالموصوف لأنها من حيث أنها مكملة له ومتممة أشبهت الجزء منه ـ المصدر ـ ٥٩٣/١ » ٠

ويجري خلاف ذلك اذا أضفت الوصف الى مفعوله، لأن المفعول ليس جزءاً من الوصف، وهذا شأن الفعل ومفعوله فهما لا يتلازمان ولا يتكاملان. فقد يكون الفعل لازماً لا مفعول له، وقد يكون متعدياً ويستغنى عن مفعوله . فالوصف قد يفيد تعريفاً اذا ما أضيف الى مفعوله . والذي يضاف الى مفعوله من الوصف هو اسم الفاعل أو المفعول من الفعل المتعدي دون الصفة المشبهة ، وهما يفيدان من هذه الاضافة تعريفاً اذا دلاً على الاستمرار . أما الصفة المشبهة فاذا نصبت نصبت لفظاً لا معنى وقد أسموا منصوبها الشبيه بالمفعول، فقد قالوا (الحسن الوجه) تشبيهاً له بـ (الضارب الرجل) بالنصب فيهما .

وانظر الى ما جاء في (املاء ما منّ به الرحمن من وجوه الاعراب) للعكبري في اعراب قوله تعالى : « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ـ غافر ٢/١ » ، قال العكبري: « غافر الذنب وقابل التوب ، كلتاهما صفة لما قبله ، والاضافة محضة » أي صفة لاسم الجلالة . وقد أشار بقوله هذا الى أن اسم الفاعل(غافر وقابل) المضافين الى مفعولهما قد تعرّفا بالاضافة ، فاضافتهما محضة أي معنوية تفيد التعريف ، لدلالتهما على الاستمرار . وأردف : « وأما شديد العقاب فنكرة ، لأن التقدير : شديد عقابه » أي أن اضافة الصفة المشبهة (شديد) اضافة لفظية لا تفيد التعريف لأنها مضافة أبداً الى فاعلها. ثم قال : « ويجوز أن يكون شديد بمعنى مشدّد فتكون الاضافة محضة فيتعرف فيكون وصفاً أيضاً » . أي اذا كان (شديد) صفة مشبهة فلا سبيل الى أن يكون صفة لاسم الجلالة ، بل يكون بدلاً لجواز أن يكون البدل نكرة والمبدل منه معرفة. أما اذا كان (شديد) على فعيل بمعنى مُفعِّل بكسر العين المشددة أي بمعنى (مُشدِّد) اسم الفاعل ، أمكن أن تكون اضافته الى مفعوله (العقاب) اضافة محضة فيتعرّف ويكون صفة لاسم الجلالة ، ما دام يدل على الاستمرار .

واذا كانت الصفة المشبهة في قولك (زيد حسن الوجه) باضافة الصفة منكرة لاضافتها الى فاعلها ، وكانت الصفة المشبهة في قولك (زيد الحسن الوجه) باضافة الصفة أيضاً معرفة ، فان تعريفها قد كان باللام دون الاضافة . فالصفة المشبهة لا تتعرّف بالاضافة مطلقاً .

٥ ـ الصفة المشبهة في كلام الفصحاء :

قضى النحاة بأن تعريف الصفة المشبهة المضافة انما يكون باللام دون الاضافة لأن الاضافة لا تفيدها تعريفاً . وذهب مجمع اللغة العربية القاهري في مؤتمره الى جواز تعريف الصفة المشبهة بالاضافة وحدها خلافاً للنحاة ، فأين يقع كلام الفصحاء من الرأيين ، وهل جاء في مأثورهم من النثر أو الشعر ما يؤيد رأي المجمع القاهري دون النحاة ، فكانت الصفة المشبهة فيه معرّفة بالاضافة !

أقول يجمع الباحثون على صحة قولك (مررت برجل حسن الوجه) باضافة الصفة الى معمولها وهو الفاعل ، وقد جاء هذا في أمثلة النحاة . ويستدل بذلك أن (حسن الوجه) منكّر لأنه جاء صفة لنكرة . فاذا صح هذا فكيف يصح قولك (مررت بزيد حسن الوجه) ؟ فلو أفاد (حسن الوجه) تعريفاً لما جاز قولك الأول (مررت برجل حسن الوجه) . فالوصف المعرف لا يوصف به المنكر . قال الجامي في شرح كافية ابن الحاجب : « ويمتنع تركيب : مررت بزيد حسن الوجه ، فلو أفادت

تعريفاً ــ أي الصفة ــ لم يجز مررت برجل حسنِ الوجه/١٢٣ » • ومثل ذلك ما جاء في (لطائف اللطف/٣١) لأبي منصور الثعالبي : « رأى الاسكندر ، رحمه الله ، رجلاً حسن الاسم قبيح السيرة فقال له : اما أن تغيّر اسمك أو سيرتك »، وقد جاء (حسن الاسم) و (قبيح السيرة) صفتين لنكرة فدل هذا على أنهما منكرتان ، وأن اضافة الصفة المشبهة الى فاعلها اضافة لفظية لا تفيد تعريفاً • ونحو ذلك أيضاً ما جاء في الكتاب نفسه: « اشترى بعضهم جارية بديعة الحسن/٩٨ » ، كما جاء : « رأى بعض الفقراء امرأة حسنة الوجه/٩٨ » •

وفي نهج البلاغة وصية علي لابنه الحسن عليهما السلام : من الوالد الفان ••• الى المولود المؤمل ما لا يُدرَك ، السالك سبيل من قد هلك غرض الأسقام، ورهينة الأيام ورمية المصائب••• وأسير الموت وحليف الهموم ••• ٣/ ٤٢ » فهل ثمة وجه لاعتداد (غرض أو رهينة أو رمية أو أسير أو حليف) صفة مشبهة مضافة الى فاعلها ؟

اقول : أما (الغرض) فهو اسم لا صفة ومعناه الهدف ويجمع على أغراض، وأما (الرهينة) هنا فهي صفة غالبة غلبة الأسماء • وتسمى الصفة غالبة اذا استغنت عن موصوفها وأنزلت منزلة الأسماء• وهي في الأصل صفة مشتقة من فعل متعدّ بمعنى اسم المفعول • قال الجوهري في الصحاح: « الرهينة واحدة الرهائن » • وكذلك (الرميّة) واحدة (الرمايا) ، وهي بمعنى الصَّيد يُرمى • قال الرازي في مختار الصحاح: « الرميّة الصيد يرمى، يقال بئس الرميّة الأرنب ، أي بئس الشيء مما يُرمى الأرنب »• والرهينة والرمية تلزمهما التاء، والتاء فيهما ليست تاء التأنيث في الصفات ، وانما هي تاء النقل من الوصفية الى الاسمية ، كما جاء في كتاب الفروق لاسماعيل حقي (ص ٤٦) •

ومما يشيع استعماله من الصفات الغالبة (العجيبة) تقول هذه احدى العجائب ، و (الغريبة) تقول هذه من الغرائب ، و (الكبيرة) تقول الشِّرك احدى الكبائر، و (الصنيعة) تقول الانسان صنيعة الاحسان ، و (العزيمة) تقول زيد ماضي العزيمة• و (الخضراء) وتجمع جمع الأسماء على خضراوات، لا جمع الصفات على خُضر كحمراء وحُمر • وفي الحديث : « ليس في الخضراوات صدقة » ، وهي البقول • قال الفيومي في مصباحه : « لكنه غلب عليها جانب الاسمية ، أي الخضراء ، فجمعت جمع الاسم كصحراء وصحراوات » •

أما (حليف) فهو فعيل بمعنى مفاعل كجليس بمعنى مجالس ، وقد اشتق من فعل متعد وهو (حالف) ، فليس هو اذاً صفة مشبهة • ففي الصحاح : (الحليف : المحالف) • وما جاء من فعيل بمعنى المفاعل كالنديم بمعنى المنادم والأكيل بمعنى المؤاكل ، والحليف بمعنى المحالف صفات ثابتة ثبوت الصفة المشبهة ، لكنها لا تعمل باتفاق• وهي اذا أضيفت الى ما هو بمعنى مفعولها تعرفت• وأما (أسير) فهو في الأصل فعيل بمعنى مفعول ،وقد اشتق من فعل متعد ، فليس هو كذلك صفة مشبهة، وانما هو صفة ثابتة لا تعمل، فاذا أضيف الى معرفة تعرّف• وهو كرهين الذي يذكر ويؤنث• قال تعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة ــ المدَّثر/٣٨ » فجاءت (رهينة) صفة ثابتة لمؤنث • وقال تعالى : « كل امرىء بما كسب رهين ــ الطور/٢١ » فجاء (رهين) مذكراً صفة ثابتة لمذكر • فأنت تقول المرء رهين الموت كما تقول هو أسير الموت ، والخلائق رهينة الموت كما تقول هي أسيرة الموت •

٦ ـ ليس في كلام الفصحاء ما عرّفت فيه الصفة المشبهة بالاضافة :

اذا تتبعنا ما أضيف من الصفة المشبهة ، وهي لا تضاف الا الى فاعلها ، وما أضيف من اسم الفاعل والمفعول الى مرفوعه، في كلام الفصحاء،لم نعثر على ما جاء من ذلك معرّفاً بالاضافة ٠ ومثال الصفة المشبهة المضافة قوله تعالى :« علّمه شديد القوى ـ النجم/٥ » ، فهذه صفة مشبهة أضيفت الى فاعلها فكانت اضافتها لفظية لا تفيد تعريفاً ، فلا بد أن يكون موصوفها اذاً منكراً ٠ وهذ ما أشار اليه الامام البيضاوي في تفسيره حين قال : « مَلَك شديد القوى ، وهو جبريل عليه السلام » ٠

وجاء في الحديث عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، قال : « كنت أمشي مع النبي (ﷺ) ، وعليه بُرد نجراني غليظ الحاشية » ٠ وفي الحديث أيضاً : « ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسنِ الصوت بالقرآن يجهد به » ٠

وجاء في كليلة ودمنة لابن المقفع (باب بَرزويه) : « وان كان الملك حازماً عظيم القدرة رفيع الهمة بليغ الفحص ٠٠٠ فانا قد نرى الزمان مُدبراً في كل مكان » ٠

وجاء في المقامة الحادية عشرة لأبي محمد القاسم الحريري : « ثم حَسَر رُدنه عن ساعد شديد الأسر ، وقد شد عليه جبائر المكر لا الكسر» ٠ كما جاء في المقامة الثالثة والعشرين : « وشيخ طويل اللسان قصير الطيلسان قد لبَّبه ـ أي جذبه ـ فتى جديد الشباب خلق الجلباب » ٠

فاذا جاء الموصوف مُعرّفاً عُرّفت الصفة المشبهة باللام ٠ ومن ذلك ما جاء في الحديث : « وأما الرجل الكريه المرآة الذي عند النار يحشّها يسعى حولها فانه مالك خازن جهنم » ٠ ونحو ذلك ما جاء في كليلة ودمنة لابن المقفع : (باب بعثة برزويه الى بلاد الهند) : « فاني بحمد لله مستغنٍ عن المال بما رزقني الملك السعيد الجد العظيم الملك » ٠

وهكذا اسم الفاعل والمفعول اذا ما أضيفا الى مرفوعهما ، فمثال اسم الفاعل قوله تعالى : « فهي قاصرات الطرف لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جانّ ـ الرحمن/٥٦ » ٠ فقاصرات اسم فاعل أضيف الى فاعله فكانت اضافته لفظية لا تفيد التعريف ، وهويدل على الثبوت دلالة الصفة المشبهة ، فحكمه في هذه الاضافة كحكمها ٠ قال العكبري في (اعراب القرآن) : « لم يطمثهنّ : وصف لقاصرات لأن الاضافة غير محضة » أي لفظية لا تفيد تعريفاً ٠

وفي رسالة الجاحظ (في النساء) قوله : « شيخ متخلّع الأسنان مُغضَّن الوجه » ٠ فقد جاء (متخلّع) اسم فاعل مضافاً الى فاعله ٠ وهومشتق من (تخلّع) الفعل اللازم ، وهذا شرطه ٠ كما جاء (مُغَضَّن) اسم مفعول مضافاً الى نائب فاعله؛ وهو مشتق من (غضّنه) اذا ثنّاه وجعّده، وهو فعل متعدّ ، وهذا شرطه ٠

ومما جاء في اضافة اسم الفاعل الى فاعله قول الحريري في مقامته الرابعة : « وصادفنا ارضاً مُخضلّة الرُبا معتلّة الصَّبا فتخيرناها مُناخاً » ٠ والمقصود بالصَّبا الريح الشرقية ، وبالمعتلّة الليّنة ، وبالمُناخ المبرك ٠

وهكذا تقول في اسم الفاعل المضاف الى فاعله المشتق من فعل لازم : رأيت رجلاً معتدل القامة قائم الجذع ، وأعرف جاراً لي مستقيم الخطة طاهر القلب نافذ الرأي • كما تقول في اسم المفعول المضاف الى مرفوعه ، المصوغ من فعل متعد : صحبت أخاً مرضيّ السيرة محمود الخصال ، ومرفوعه هذا في الأصل نائب فاعل ، وهو هنا نائب فاعل مجازاً ، لأن المرضيّ والمحمود لا يدلاّن على الحدوث ، كما هو شأن اسم المفعول في الأصل ، وانما يدلان على الثبوت • ويسمى اسم المفعول هنا ، الدال على الثبوت ، اسم مفعول مجازاً ، اذ ليس هو على الأصل الذي يصاغ للحدوث ••

وهكذا فان اسم الفاعل والمفعول يجريان مجرى الصفة المشبهة اذا أريد بهما الثبوت دون الحدوث فيكتفي كل بمرفوعه • ويكون هذا اذا كان اسم الفاعل من فعل لازم واسم المفعول من فعل متعد الى واحد فتكون اضافتهما الى مرفوعهما لفظية لا تفيد التعريف • فأنت اذا أردت التنكير اكتفيت بالاضافة فقلت : عرفت جاراً لي صادق الوعد محمود السيرة كريم الشيم ، فاذا أردت التعريف قلت : جاء الرجل الصادق الوعد المحمود السيرة الكريم الشيم ، بادخال لام التعريف •

واذا كان ابن السراج أبو بكر قد عدد ما بين اسم الفاعل والصفة المشبهة من فروق ، في كتاب (الأصول) فجعل منها أن اسم الفاعل لا يضاف الى فاعله كما تضاف الصفة المشبهة ، فقد قصد بذلك (اسم الفاعل) المصوغ من فعل متعد ، اذ قال: « لا يجوز أن تقول عجبت من ضارب زيد ، وزيد فاعل ، ويجوز في الصفة المشبهة اضافتها الى الفاعل لأنها اضافة غير حقيقية » • أما اسم الفاعل المصوغ من لازم فهو كالصفة المشبهة سواء بسواء • وقد نحا نحو ابن السراج ابن مالك في شرح الكافية فقال : « انفرد اسم المفعول عن اسم الفاعل بجواز اضافته الى ما هو مرفوع معنى نحو: الورع محمود المقاصد — الأشباه والنظائر للسيوطي — ٢/٤٦٢ » •

★ ★ ★

ولكن ما الرأي في قول الشاعر :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي ‏ ‏ ‏ في حب مصر كثيرة العشاق

وقد ذكر البيت في مجلة الرسالة القاهرية (١٠/٤٧٧/٨٣٠) ، فقال الأستاذ علي محمد حسن: كثيرة تعرب حالاً من مصر ، والعامل : حب ، وأردف : « وتعرب صفة على أن اضافة الصفة المشبهة محضة ، أي اضافة معرفة ، وعلى ذلك فكثيرة معرفة » • أقول أما اعراب (كثيرة) حالاً من (مصر) والحال نكرة فذلك يعني أن الصفة المشبهة منكرة لا تتعرف بالاضافة ، وعلى ذلك جمهور النحاة • وأما اعراب (كثيرة) صفة لمصر ومصر معرفة فانه يعني أن الصفة المشبهة تتعرف بالاضافة ، وهو قول لا سند له فيما أثر من كلام الفصحاء نثراً أو شعراً ، وما صح من مذاهب النحاة • واذا كان الجدل النحوي قد آل ببعض الأئمة من الكوفية الى القول بجواز تعريف الصفة المشبهة بالاضافة ، فقد ظل القول مفتقراً الى ما يصححه من سماع أو قياس • وقد عقب السيوطي في كتابه (همع الهوامع — ٢/٤٨) على ذلك فأصر على تنكير الصفة المشبهة المضافة محتجاً بجواز اقترانها بأل التعريف ، فلو صح أنها معرفة لامتنع اقترانها بأل هذه ، كما يمتنع ذلك في كل مضاف معرف ، منعاً لاجتماع تعريفين •

٤ ـ الرأي في بعض ما شاع استعماله من أسماء الفاعل :

١ ـ الوافر لا الوفير :

يقول الكتاب (مال وفير) فهل هذا صحيح ؟ أقول الصواب أن تقول (مال وفر) بفتح السكون أو (مال موفور) على زنة اسم المفعول أو (مال وافر) على زنة اسم الفاعل ·

أما (الوفر) بفتح فسكون فهو من وفر بضم الفاء يوفر وفارة فهو وفر بسكون الفاء ، كضخم يضخم ضخامة فهو ضخم بسكون الخاء ، وفخم يفخم فخامة فهو فخم بسكون الخاء ، وهو سماع لا قياس فيه ·

وأما (الموفور) فهو من وفرت المال وفراً، بالتخفيف ، فالمال موفور ·

وأما (الوافر) فهو وفر بفتح الفاء كوعد ، تقول وفريفر بالكسر وفوراً ووفرة فهو وافر ·

أما (الوفير) على فعيل فلم يرد في اللغة ، وانما وردت الصفة على (وَفْر) بفتح فسكون من (وفر) بالضم ، كما جاءت الصفة على (صعب) بسكون العين من (صعب) بالضم ، وعلى (سهل) بسكون الهاء من (سهُل) بضم الهاء · وهكذا جاء (فخم) بسكون الخاء من (فخم) بضمها · والغريب أن يعمد الشيخ مصطفى الغلاييني رحمه الله الى اجازة (الوفير والفخيم) فيقول في كتابه (نظرات في اللغة والأدب) : « فعدم ذكر وفير وفخيم في كتب اللغة وعدم روايتهما في شعر أو نثر قديمين لا يدل على أن ذلك غير جائز ولا مقبول ، فهما مقبولان في الذوق » · أقول لا محل لتحكيم الذوق في سماع أو قياس ، ولا وجه لاقرار (وفير وفخيم) ، والا فهل تقول صعيب وسهيل وفخيم وعذيب بدلاً من قولك صعب وسهل وفخم وعذب ، بسكون العين والهاء والخاء والذال فيها ؟

٢ ـ الوارث لا الوريث :

اعتاد الكتّاب أن يقولوا (خالد هو الوريث الوحيد) ، يحسبون أن (الوريث) هو الصفة المشبهة من (ورث) بالكسر كعلم ، والصواب هو (الوارث) وجمعه (ورثة) بفتحتين ككاتب وكتبة ، و (وُرّاث) بتشديد الراء ككاتب وكتّاب · ففي مختار الصحاح : « ورث أباه وورث الشيء من أبيه يرثه بكسر الراء فيهما ورثاً ورثة ووراثة بكسر الواو في الثلاثة وإرثاً بكسر الهمزة » · وفي المصباح : « والفاعل وارث والجمع وراث وورثة مثل كافر وكفار وكفرة » ·

والقياس في صيغة (فاعل) أن تأتي باطراد من (فَعَل) بفتح العين لازماً كجلس يجلس فهو جالس ، ومتعدياً كنصر ينصر فهو ناصر · كما تأتي من (فَعِل) بكسر العين اذا كان متعدياً ، تقول ورث المال يرثه بالكسر فيهما فهو وارث والفعل متعد ، كما تقول علمه فهو عالم وقبله فهو قابل وكرهه فهو كاره وحذره فهو حاذر وسمعه فهو سامع ، والمضارع فيها مفتوح العين ·

وفي التنزيل : « وعلى الوارث مثل ذلك ـ البقرة/٢٣٣ » · وفي الحديث : « اللهم متعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارث مني ، أي أبقهما صحيحين سالمين الى أن أموت » كما جاء في النهاية لابن الأثير ·

والوارث قد يأتي صفة عامة فيدل على الحدوث ويعتمد على موصوف مذكور أو مقدر ، لكنه يأتي ، في الغالب ، منفرداً بخصوص ،فيستعمل منقطعاً عن موصوفه مستغنياً عنه ، فيدل حينئذ على الثبوت • فأنت اذا قلت (خالد وارث أبيه) فقد عنيت أنه مستحق لهذه الوراثة • وأنت تقول رأيت وارث فلان أو ورثته ، كما تقول رأيت زوجته وزوجاته ، فلا يلزمك ذكر موصوفه لفظاً أو تقديراً • ولما جاء من الصفات على هذا الوجه حكم ، في الجمع ، غير حكم الصفات العامة الدالة على الحدوث •

والقاعدة اذا جاء الوصف عاماً على زنة (فاعل) ودل على الحدوث ، كما هو الأصل واعتمد على موصوف مذكور أو مقدر ، كان لا مناص من جمعه جمع تصحيح، وهو القياس فيه• فاذا انفرد بخصوص فاشتهر استعماله منقطعاً عن موصوفه مستغنياً عنه ، صح فيه التكسير ، الى جانب التصحيح • فقد جاء (الوارث) دالاً على الثبوت وجمع جمع تصحيح ، كما في قوله تعالى : « ونحن الوارثون ــ الحجر/٢٣ » • قال الأصبهاني صاحب المفردات : « وصف الله تعالى نفسه بأنه الوارث، من حيث ان الأشياء كلها صائرة الى الله تعالى •قال الله تعالى: « ولله ميراث السموات ــ آل عمران/١٨٠ ــ وقال : ونحن الوارثون •• » • ولا ننسَ أن (الوارث) اسم من أسماء الله الحسنى •

وكما يجمع (الوارث) جمع تصحيح كذلك يجمع جمع تكسير • ففي الحديث « العلماء ورثة الأنبياء » • فأنت تقول هؤلاء ورثة الأنبياء كما تقول هؤلاء حملة الأقلام وقادة الفكر ، وكلها صفات على الثبوت •

وقد جاء في الأشباه والنظائر للامام السيوطي(٢/١٢٧) : « قال في البسيط : كل صفة كثر ذكر موصوفها معها ضعف تكسيرها لقوة شبهها بالفعل•وكل صفة كثر استعمالها من غير موصوفها قوي تكسيرها ، لالتحاقها بالأسماء كعبيد وشيخ وكهل وضعيف » ، وجاء في الكليات لأبي البقاء الحسيني الكفوي مثل ذلك (ص ٢٢٠) •

ولنأت بمثال يكشف عما قصدنا اليه • فاذا نحن تدبرنا ما جاء من (كتب) على فاعل أي (كاتب) وجدنا أن الأصل فيه أن يفيد الحدوث فيجمع جمع الصفات فيقال (كاتبون) ، ويكون معناه القائم بالكتابة ، والكتابة في الأصل هي الخط ، فكاتب السطر هو الذي يخطه • فاذا أردنا ب (كاتب) من ينشىء النثر ويزاوله صحّ تكسيره وجمعه على(كتاب) ، ويكون (الكاتب) هنا الذي يزاول صناعة الكتابة أي انشاء النثر • فتقول جلست الى كاتب من أشهر الكتاب كقولك حاورت عالماً من أظهر العلماء • قال ابن منظور في معجم اللسان : « كتب الشيء يكتبه كتباً وكتاباً وكتابة ، وكتبه : خطّه » بتشديد الطاء ، هذا هو الأصل • ثم قال :« والكتابة لمن تكون له صناعة مثل الصياغة والخياطة• ورجل كاتب والجمع كتّاب وكتبة ، وحرفته الكتابة • ابن الاعرابي : الكاتب عندهم العالم »• وجاء في كشف الطرّة (ص ١٠٧) : « وفي الدر المصون الصفة لا تقوم مقام الموصوف الا اذا كانت خاصة نحو : مررت بكاتب ، أو دل دليل على تعيين موصوف »• فأنت اذا استعملت (الصفة) استعمال الاسم فتحولت بها عن الحدوث قامت مقام الموصوف فكان لها في الجمع شأن الأسماء • قال المرزوقي في شرح ديوان الحماسة (١/٤٢٦) : « لأن الصفة لا تقوم مقام الموصوف حتى تدل عليه دلالة قوية• فأما اذا كانت عامة في أجناس، فلا يجوز ذلك فيه• فاذا قلت مررت بطويل وأنت تريد رجلاً ، لم

يحسن ، لأن الطويل يكون في غير الرجال ، كما يكون في الرجال • ولو قلت مررت بكاتب يحسن اذ كانت الكتابة مختصة » • والمهم في (الكاتب) الذي مررت به أن يختص فيكون صاحب صناعة (الكتابة) سواء أكانت هذه الكتابة انشاء للنشرأم الخط •

وهكذا الحكم في الوارث حين استعملوه استعمال الأسماء فقام مقام الموصوف ، فأنت تقول جاء ورثة فلان كما تقول حاورت كتبةالمجلة ، فتستغني بالصفة عن الموصوف •

٣ ـ مشهد شائق لا شيِّق :

اذا شاقك مشهد أي هاجك فاستهواك حسنه فالمشهد شائق وأنت المشوق ، بصيغة اسم المفعول ، أو الشيق ، بتشديد الياء المكسورة ،أو المشتاق • ففي القاموس المحيط « والشيِّق : المشتاق » • وفي المصباح : « واشتقت اليه فأنامشتاق وشيق » بتشديد الياء المكسورة •

ولكن كيف آل معنى (الشيق) بتشديد الياءالمكسورة الى معنى (المشوق) أي المشتاق • أقول (الشيق) بتشديد الياء المكسورة ، أصله قبل الاعلال (شيوق) بفتح الشين وكسر الواو ، بينهما ياء ساكنة ، على (فيعل) بفتح الفاء وكسر العين،بينهما ياء ساكنة • كما كان أصل (الجيد) بالياء المشددة هو (جيود) بفتح الجيم وكسر الواو ،بينهما واو ساكنة • وأظهر آراء الأئمة أن صيغة (فيعل) هذه بفتح الفاء وكسر العين ، مقلوبة من(فَعيل) بفتح فكسر •• وقد اشتهر مجيء (فعيل) هذا بمعنى مفعول اذا صيغ من فعل متعد ، وشاقه فعل متعد ، فليس غريباً على هذا أن يكون (الشيق) بتشديد الياء المكسورة بمعنى المشوق ، وهو اسم المفعول من (شاقه) • وانظر الى قول المتنبي :

ما لاح برق أو ترنّم طائر الاّ انثنيت ولي فؤاد شيّق

قال البرقوقي شارح الديوان : « انثنيت : رجعت• ولي فؤاد جملة حالية ، والشيق: المشتاق» وأردف : « ومعلوم أن لمعان البرق يهيج العاشق ويحرك شوقه الى أحبّته ، لأنه يتذكر به ارتحالهم للنجعة وفراقهم ••• وكذلك ترنّم الطائر » فتأمل •

٤ ـ هذا عمل شائن لا مُشين :

أقول اذا شانك عمل منكر ، أي عابك ، فالعمل شائن لك • والكتّاب يقولون (عملمشين) بضم الميم ، وصوابه (عمل شائن) • نقول هذهأعمال شائنة مخزية ، كما تقول هذا العمل يشين صاحبه ويضع من قدره ويقدح في سمعته ، والياءفي أول هذه الأفعال مفتوحة لأنها ثلاثية ، واسم الفاعل منها شائن لصاحبه واضع من قدره قادحفي سمعته • وقد جاء في أساس البلاغة للزمخشري: « هو فعل شائن ، وهذه شائنة من الشوائن •ووجهك شَين ووجهي زين » بفتح الشين والزاي فيهما • كما جاء في المصباح المنير : « شانه شيناًمن باب باع ، والشين خلاف الزين » بفتح الأول فيهما• وأردف: « وفي حديث : ما شانه الله بشيب•والمفعول مشين •• » بفتح الميم كمبيع ومدين من باعه ودانه •

ونحو من ذلك قول الكتّاب (هذا عمل مُحطبالشرف) ، وصوابه : (حاطّ لشرفه، أو حاطّ في شأنه أو حاط من مكانته)، لأنه من(حط) الثلاثي•

٥ ـ لافت للنظـر لا مُلفت :

اذا استوقفك مشهد فلفت نظرك اليـه وجعلك تتأمله ، فالمشهد لافت للنظر ، لا (مُلفت) بضم الميم كما يقوله الكتّاب • وهم يعلمون حق العلم أنه من (لفت) الثلاثي المجرد ، لا من (ألفت) المزيد • فاسم الفاعل منه (لافت) لا (مُلفت) •

وأنت كما تقول (لفتّـه اليه) اذا صرفته اليه ، فأنت تقول (لفتّـهُ عنه) اذا صرفته عنـه أيضاً • ففي مختار الصحاح « لفت وجهه عنـه صرفه ، ولفته عن رأيه صرفه » • وفي التنزيل : « قالوا أجئتنا لتلفتنا عمّا وجدنا عليه آباءنا ــ يونس/٧٨ » ، أي لتصرفنـا •

وتقول الى ذلك (لفتّه عليه) اذا عطفته • ففي أساس البلاغـة : « لفتَ ردائي على عنقي عطفتـه » •

٦ ـ هو عادم النفع وعديمه ومعدومه :

ذهب الباحثون المحدثون أن (العديم) هو الفقير وحسب ، ومنهم الأستاذ جارالله في كتـابه (الكتابة الصحيحة) ، وخلصوا الى أن الصواب أن تقـول : انه عادم الذوق لا عديمـه • فما الرأي في المسألة ؟

أقول اذا عوّلنا على ظاهر ما جاء في المعاجم خلصنا الى ما خلص اليه الأستاذ جارالله • قـال الجوهري في الصحاح : « عدمت الشيء بالكسر أعدمه بالفتح عدماً بالتحريك ، على غير قياس ، أي فقدته • والعدم بفتح العين والدال : الفقر • وكذلك العُدم اذا ضممت أوله وسكّنت ثانيه • وأعدمه الله • وأعدم الرجل : افتقر فهو معدم ، بضم الميم وكسر الدال وعديم » • ونحو ذلك في سائر المعاجم • وقـد تبين لي بمراجعة (عدم) في المعاجم وكتب اللغة وتدبّر ما جاء فيها ما يلي :

آ ـ تقول من الثلاثي المجرّد : عدمته بالكسر أعدمه بالفتح عُدما بضم العين وسكون الدال ، بمعنى فقدته • فالفعل متعدٍّ الى واحد ، واسم الفاعل المقيس منـه (عادم) بمعنى فاقـد ، واسم المفعول المقيس (معـدوم) بمعنى مفقود ، وتقول في الخبر : لا أعدم كذا بمعنى أنك واجده ، وفي الانشاء : لا عدمت ودّك وبرّك ، أي لا أفقدنيَ الله اياهمـا • وفي المعنى الأول يقـول الشافعي :

أنا إن عشت لست أعدم قوتا — وإذا مت لست أعـــدم قبـراً

ب ـ وتقول من المزيد (أعدم الرجل) بمعنى افتقر فهو (مُعدم) بضم أوله وكسر ما قبل آخره، بمعنى فقير ، فيكون الفعل لازماً • ومثل (مُعدم) اسم الفاعل مـن (أعـدم) اللازم مُعوز ومفلس ومُملق ومُدقع ، بضم أولها وكسر ما قبل آخرها • جـاء ذلك في معظم المعاجم ، كما جاء في التلخيص لأبي هـلال العسكري ، وفي النوادر لأبي مِسحل الأعرابي • قال المتنبي يمـدح عمر بن سليمـان الشرابي :

ألـذّ من الصهباء بالماء ذكرهُ — وأحسنُ من يُسر تلقّاه معدِمُ

يقول ان ذكر ممدوحه أفعل في النفس مـن وقـع اليسر أي الغِنى في نفس الفقير المعـدِم •

جـ ـ وتقول من المزيد أيضاً (أعدمته) كعدمته بمعنى فقدته ، فتعديه الى مفعول واحد ، كما جاء في الأفعال لابن القوطية • والاشكال في اسم المفعول منه ، فالقياس أن يكون (المعدم) بضم أوله وفتح ما قبل آخره ، ولم تذكره المعاجم المعتمدة ،وذكره معجم المتن للشيخ أحمد رضا وجعله بمعنى الفقير • وأنكر الأستاذ محمد العدناني في معجمه (الأغلاط اللغوية المعاصرة) ما جاء به صاحب المتن محتجاً بالمعاجم المعتمدة التي سكتت عن ذكر ذلك ونصَّت على (المعدم) بضم الأول وكسر ما قبل الآخر بمعنى الفقير من (أعدم) اللازم بمعنى افتقر،كما ذكرناه •

والذي أراه أنك تقول : (المعدم) بفتح الدال بمعنى الفقير ، كما تقول : (المعدم) بكسر الدال • ذلك أن سكوت المعاجم عن القياس لا يعني اغفال العمل به • ولا شك أن صاحب المتن حين أثبت في معجمه (المتن): المعدم بضم أوله وفتح ما قبل آخره بمعنى الفقير ، أثبته وهو يعلم حق العلم أن المعاجم المعتمدة قد اغفلته ، فذكر هو القياس لئلا يغيب عن ذهن القارىء جواز العمل به ، ما دامت المعاجم قد خلت من النص على إنكاره • وقد تصفحت كثيراً من أقوال الفصحاء أبحث عن (المعدم) بفتح الدال، فظفرت بشاهد في شعر الامام الشافعي ، اذ قال :

وأظهِرُ أسباب الغنى بين رفقتي ليخفاهم حالي وأني لمُعـدَمِ

فقد أتى في البيت (معدم) بفتح الدال ، في سائر النسخ المطبوعة ، ويؤكد صحة ذلك أن قافية البيت السابق (يتألّم) والتالي (أعلَم) !

وهكذا صح قولك (المعدِم) بكسر الدال و (المعدَم) بفتحها ، الأول من (أعدم فلان) اللازم ، والثاني من (أعدم فلان) بالبناء للمجهول ، من (أعدمه المال) اذا أفقده اياه فجعله (معدماً) بفتح الدال •

د ـ وتقول من المزيد أيضاً: أعدمه الشيء أفقده اياه • وتقول من ذلك : (لا أعدمني الله فضلك) كما في المصباح ، فيتعدى الى مفعولين ومن ذلك قول أبي تمام :

لمّا عُـدمت نوالَه أعـدمتـه شكري فَرُحنا مُعدَمَين جميعاً

فجاء (عدمت) مبنياً للمجهول ، و (معدمين) مبنياً للمفعول • ومن ثم تقول : أعدم فلان ماله ، بالبناء للمجهول ، فأصبح معـدماً بفتح الدال ،تحذف فيه المفعول • وهكذا تقول أعدم فلان بالبناء للفاعل ، مفتوح الأول ، وأعـدم فلان بالبناء للمجهول مضموم الأول بمعنى : ذهب ماله • ونحو ذلك (الفج) ، فقد جاء في الأفعال لابن القوطيّة :« ألفج الرجل ، بالبناء للمجهول ، وألفج أيضاً بالبناء للفاعل : ذهب ماله ـ ص ١٦٨ » • وهكذا(أدنف) • قال ابن القوطية : « وأدنف بضم الهمز مبنياً للمجهول ، وأدنف بفتحها مبنياً للفاعل أيضاً:أضناه المرض أو الهوى » • وفي مختصر تهذيب الألفاظ لابن السكيت: « ومدنِف ومدنَف/٦٩ »بكسر النون وفتحها مع ضم الميم فيهما •

هـ ـ وجاء من المزيد أيضاً قول المصباح : « أعدمته فعُدم وأفقدته ففُقد » ببناء عُدم وفقد للمجهول • ومعنى ذلك أنك تقول : أعدمت الرجل فعدم الرجل بالبناء للمفعول ، فيكون الفاعل من (أعدم) المزيد ، والمفعول من (عدم) المجرد • قال صاحب المصباح : « ببناء الرباعي للفاعل

والثلاثي للمفعول » • تقول أعدمته فعُدم بالبناء للمجهول فهو معدوم بمعنى فقير ، فيكون (أعدمه) كأفقره فافتقر • وقد جاء كأعدمه فهو معدوم : أزكمه فهو مزكوم وأحبه فهو محبوب وأحمَّه فهو محموم ، وتقول من ذلك زُكم فلان وحُبَّ وحُمَّ بالبناء للمجهول ، كما تقول عدم بالبناء للمجهول، وهكذا تقول أفقده ففقد بالبناء للمجهول أيضاً فهو مفقود •

وجاء على (فعيل) بمعنى (مفعول): (عديم)، فهو كالمعدوم بمعنى الفقير ، كما في المعاجم، وقد قصره الباحثون الآخذون بظاهر النص على هذا المعنى • والسؤال أليس للمعدوم والعديم معنى آخر غير الفقير ؟

أقول اذا تدبرنا المادة ألفينا أنها تستعمل في المعنيين : العام وهو الفقد والخاص وهو الفقر ؛ تدرجاً من أولهما الى ثانيهما • فقد جاء (المعدوم) بمعنى المفقود من (عدمته) المجرد ، تقول عدمت الشيء فهو معدوم كما تقول فقدته فهو مفقود • ويأتي (عديم) كذلك بهذا المعنى ، خلافاً لما انتهى اليه المحدثون حين قصروا معنى (العديم) على الفقير • وشاهد استعمال (المعدوم) بمعنى المفقود قول أبي حيان التوحيدي في كتابه (البصائر والذخائر) : « وانك ترى زمانك معدوم الفضل قليل الناصر » • وشاهد استعمال (العديم) بهذا المعنى قول الراغب الأصفهاني في مفرداته (في غرب): « وقيل لكل متباعد غريب ، ولكل شيء فيما بين جنسه عديم النظير، غريب » ، فجاء (عديم) بمعنى مفقود •

وهكذا (عادم) من عدمه اذا فقده • فعادم الشيء فاقده ، وعليه قول أبي حيان التوحيدي في البصائر والذخائر : « قال فيلسوف : عادم بصر البدن يكون قليل الحياء ، وكذلك عادم عين العقل يكون كثير القِحَة » • والقحة بكسر القاف وفتح الحاء : الوقاحة • فأنت تقول اذاً : عادم النفع كما تقول فاقد الوعي ، وعديم النفع • كما تقول معدوم الفضل ، كل ذلك صحيح •

و ـ وجاء من المزيد قولهم (أعدمني الشيء: لم أجده) كأعوزني ، كما في القاموس المحيط • وفي أساس البلاغة: « وأعوزني هذا الأمر وأعجزني اذا اشتد عليك وعَسُر ، وهذا شيء مُعوز ، بضم أوله وكسر ما قبل آخره ، عزيز لا يوجد » •

ز ـ ولكن ما القول في (انعدم) ، ولم تأت به المعاجم المعتمدة كالأفعال لابن القوطية والصحاح والمختار واللسان والمصباح ، والمعاجم الحديثة كأقرب الموارد والمنجد والمتن والوسيط ، بل أنكرته ولحّنت قائله كتب اللغة والمعاجم على السواء ، كالمفصّل للزمخشري والقاموس والتاج •• واعتلّ الزمخشري بأن (انفعل) انما يأتي من فعل ذي علاج وتأثير ، وذكر ذلك الأستاذ محمد العدناني في معجمه (الأغلاط اللغوية المعاصرة) ، فأنكر (انعدم) •

وبحث هذا من المحدثين الشيخ ظاهر خيرالله، رحمه الله ، في كتابه (المنهاج السوي في التخريج اللغوي) ، فأنكر قولهم (انعدم) وقال : « وانعدم لحن •• وغاية ما هنالك أنهم قالوا ان انفعل لمطاوعة فَعَل ذي العلاج أي التأثير المحسوس كقسمته فانقسم ص ١٨ » • واشترطوا في (انفعل) كذلك أن يأتي مطاوعاً لفعل دون أفعل ، فمنعوا قول القائل (انضاف) لأنه من (أضاف) لا من (ضاف) • ذكر ذلك أبو محمد القاسم الحريري في كتابه (درة الغواص في أوهام الخواص) •

وعندي أن نُجيز من (انفعل) ما جاء استعماله فجرى في كلام الفصحاء ، لا لأن الخطأ لا يجري عليهم ، بل لأنهم كانوا من أئمة اللغة فمارسوا الكتابة فيها ، خلافاً لكثير من كتّابنا المحدثين ، ومن ثم أحاطوا بما انتهى اليه علماء النحو والصرف من قواعد وأصول • فاذا استجازوا ما كان ظاهر كلام العلماء على خلافه فقد التمسوا لذلك وجهاً أو حكوه عن العرب• فقد جاء (انعدم) مثلاً في كلام ابن جني ، اذ قال في (الخصائص) :« فلما انعدم من آن المصدر الذي هو أصل الفعل عُلم أنه مقلوب في أنى يأنى إنىً – ١/٦٨٠ » •جاء ذلك في نسخة الكتاب المطبوعة بمصر عام (١٣٣١ هـ ، و ١٩١٣ م) ، أما في نسخته المطبوعة بتدقيق الأستاذ محمد علي النجار فقد جاء « فلما عُدم من آن المصدر ••• – ٢/٧٠ » فأبدل من (انعدم) عُدم أخذاً بأقوال الأئمة النحاة •

وقد بحث هذا مجمع اللغة العربية بالقاهرة في مؤتمره خلال دورته السابعة والثلاثين عام (١٩٧١ م) فأقر جواز استعمال (انعدم) ولو لم يكن ثمة نص صريح على جوازه ، ذلك لجريانه في الاستعمال منذ قرون ، والحاجة اليه في التعبير في غير مجال من المجالات العصرية ، واقترن ذلك باعتراض بعض الأعضاء •

وأما (انضاف) فقد أساغ استعماله الامام المحقق ابن برّي وذكر كثيراً من أشباهه مما جاء مطاوعاً لأفعل دون فعل • حكى ذلك الامام أحمد شهاب الدين الخفاجي في (شرح درة الغواص) • كما أساغ ذلك ابن عصفور الأندلسي ، اذ حكي عنه أنه صحح قياسية (انفعل) من أفعل الرباعي ، وقد بسط القول في ذلك شهاب الدين محمود الألوسي في كتابه (كشف الطرّة عن الغرّة) •

وجاء (انضاف) في كلام الامام عبدالرحمن بن عيسى الهمذاني• اذ قال في مقدمة كتابه (الألفاظ الكتابية) : « فاذا كانت الألفاظ مشاكلة للمعاني في حُسنها ، والمعاني موافقة للألفاظ في جمالها ، وانضاف الى ذلك قوة من الصواب وصفاء من الطبع ومادة من الأدب ••• كان الكمال وبالله التوفيق »• فأورد في كلامه (انضاف) • والهمذاني من أئمة القرن الرابع الهجري • وهكذا جاء في كلام أبي الحسن الجرجاني صاحب الوساطة (بين المتنبي وخصومه) اذ قال : « فاذا اجتمعت تلك العادة والطبيعة وانضاف اليهما التعمل والصنعة خرج كما تراه – أي الشعر – فخماً جزلاً قوياً متيناً – ص ٢١ » والجرجاني هذا من أئمة القرن الرابع الهجري أيضاً •

٧ – الأعزب والعزباء ، والعَزَب والعَزَبة ، والعازب والعازبة :

أنكر بعض النقاد قولهم (رجل أعزب) اذا لم يكن له زوجة و (امرأة عزباء) اذا لم يكن لها زوج ، وجعلوا الصواب (رجل عزب وامرأة عزبة) بفتح العين والزاي •

واذا عدنا الى المعاجم ألفينا من الأئمة من ينكر (أعزب) صراحة كما فعل أبو حاتم السجستاني• قال الأزهري في معجمه (التهذيب) : « قال أبو حاتم ولا يقال رجل أعزب » • وهكذا فعل ابن الأثير الشيباني صاحب النهاية ، اذ قال : « رجل عَزَب••• ولا يقال فيه أعزب » • وقد اقتصر بعضهم على (عزب) وأغفل (أعزب) ، كما فعل صاحب الصحاح وصاحب المختار والأصفهاني صاحب المفردات فهل عنوا بذلك انكار (أعزب) ، هذا ما اختاره صاحب التاج • على أن أكثر الأئمة قد أجازوا (أعزب) لكنهم آثروا عليه (عَزَباً) • قال الأزهري في معجمه (التهذيب) : « قال أبو

حاتم : ولا يقال رجل أعزب ، وأجاز غيره رجـل أعزب » • وقـال صاحب القاموس : « ولا تقـل أعزب أو هو قليـل » • وقال صاحب اللسان :« ولا يقال أعزب وأجازه بعضهم »• وبسط القول في ذلك ابن الحنبلي الحلبي فقال : « رجل أعزب ،وعن أبي حاتم لا يقال رجل أعزب • وقال الأزهري وأجازه غـيره » ، وأردف : « ومنه قـوله : ما في الجنة أعزب • قال النووي : في جميع نسخ بلادنا بالألف ، وهي لغة والمشهور في اللغة : عَزَب » ،ثم قال : « وقال صاحب المغرب ، وهو المطرّزي المغربي ، رجـل عَزَب بالتحريك : لا زوج له ،ويقال : أعزب • وقد جاء في حديث النوم في المسجد عن نافع ، قال : أخبرني عبدالله أنه كان ينـام في مسجد النبي (ﷺ) وهو شـاب أعزب » • وقـال صاحب التـاج : « ولكـن أبا حاتم أجـاز أعزب فاستدل بحديث : ما في الجنة أعزب » •

وعلى ذلك تقـول : (رجل أعزب وامرأة عزباء) • قال صاحب المصبـاح : « وقياس قـول الأزهري أن يقال امرأة عزباء مثل أحمر وحمراء » •

★ ★ ★

وتقول رجل عزب وامرأة عزب وعزبة ، بفتح العين والزاي • ففي تهذيب الألفاظ لابن اسحاق السكيت : « ورجل عزب وامرأة عزب •قال الفرّاء : ويقال عزبة ، اذا لم يكن لها زوج• قال وأنشد الجرمي : يا من يدل عزباً على عزب »•فثبت بذلك أنك تقـول رجـل عزب وامرأة عزب وعزبة • ويؤيد ذلك ما حكاه السيوطي في كتابه(الأشباه والنظائر ـ ٤/٢٢٧) • فقـد حكى عن الامام ثعلب أنه روى (امرأة عزب) كما حكى عن ابن خالويه أنه قال : « ويقال امرأة عزب وعزبة غير أن ثعلباً اختار الفصحى » •

والعزب كما قال ابن خالويه اسم وصفة بمنزلة (العازب)، وهو يجمع لذلك على (عُزّاب)، تقول : قوم عزاب بضم العـين وتشديد الزاي ،كمـا يجمع (عازب) • وقال صاحب المصبـاح : « وعزب الرجل مـن باب قتل فهو عزب بفتحتين وامرأة عزب •• وجمع الرجـل عزاب ، باعتبار بنائه الأصلي ، وهو عازب ، مثل كافر وكفار » •

★ ★ ★

أما (العازب) فهو اسم الفاعل المقيس مـن(عزب) • قال ابن القوطية في كتـابه (الأفعال) : « وعزب الرجل عزبة وعزوبة بضم العين فيهما ، لم يكـن له أهـل » • فاسم الفاعل المقيس منـه (عازب) • وليس في كتب اللغة ما ينفي ذلك بل فيها ما يؤكده ، وقد عللوا جمع (عزب) بفتحتين على (عزاب) بضم أوله وتشديد ثانيـه ، بأنّ الأصل فيه (عازب) • قال ابن خاويه : « والعزب اسم وصفة بمنزلة العـازب » • وقـال صـاحب اللسان : « •• فهو عازب والجمـع عُزّاب » •

ولا ننسَ أن (الفعّال) بضم أوله وتشديد ثانيه ، وهو الجمع المطّرد لفاعـل ، ككاتب وكتّاب وعامل وعمال وجاهل وجهال وعالم وعلام وحارس وحراس وكاهـن وكهان وحاكم وحكـام •• ففي كتاب الهمع للسيوطي: « فُعّال بضم الفاء وتشديد العـين يطّرد جمعـاً لوصف على فاعـل كصائم وصوام » • وشرطه أن يكون صحيح اللام •

وإذا قلت (رجل عازب) فالقياس أن تقول (امرأة عازبة) · والأصل في جمع (العازبة) أن يكون (العوازب)، ولكن جاء قولهم (ونساء عزاب)،فساووا في الجمع بين عازب وعازبة · وقل جمع (فاعلة) على (فعال) بضم الفاء وتشديد العين كصادة وصداد بضم أوله وتشديد ثانيه ، كما في (الهمع) ، وهو من صدّه عن الأمر اذا صرفه ومنعه ، وكذلك صاد وصداد ·

على أن ثمة (عازبة) بمعنى آخر · ذلك أن(عزب) فعل لازم أصل معناه بَعُد ، كما جاء في (المقاييس) لابن فارس · وقد جاء في شرح الحماسةللمرزوقي « ويقال مال عازب وعزب اذا بَعُد عن أهله ، وروض عازب : بعيد الطلب » · كما جاءفي أساس البلاغة : « ولا يكون الكلأ العازب الا بفلاة حيث لا زرع » وفيه : (رمل عزب :منفرد) · فأصل معنى (المادة) هو البعد والانفراد، وأسسوا على ذلك قولهم (رجل عازب) اذا بُعد من الأهل فانفرد وبقي بلا زواج · على أن في اللغة (عزبه) ··· وهو فعل متعد معناه في الأصل (أزال عزوبته) · ويكثر سلب معنى الفعل بزيادة الهمزة في أوله كقولك (أشكيته) اذا أزلت شكواه · ولكن جاء السلب في (عزب) بتعديته ، ففي اللسان : (وعزبته تعزبه ، أي المرأة ··· قامت بأموره) · واذا قامت بأموره فقد أذهبت عزوبته ، وكذلك (عزبته) بتشديد الزاي · قال صاحب اللسان :« ليس لفلان امرأة تعزبه — بالتشديد — أي تذهب عزوبته بالنكاح » · فثبت بهذا أن (العازبة)كذلك امرأة الرجل لأنها تذهب عزوبته ، وكذلك (المعزبة) بضم الميم وتشديد الزاي ، فتأمل ·

٨ — ارض وطيئة لا واطئة :

يعمد بعض الكتّاب الى وصف الأرض المنخفضة ب(الواطئة)، وهو خطأ شائع· فالواطىء اسم فاعل من (وطئه) اذا داسه · ففي المصباح :« وطئته برجلي أطؤه وطأ : علوته » · ومن ثم سمي (المار) في الطريق واطئا لأنه يطأ الطريق ·ويجمع (الواطىء) بمعنى (المار) على (الواطئة) ، كما يجمع المار على المارّة ، ففي التاج : « وطئه بالكسر يطؤه وطأ ، داسه برجله ·· والواطئة المارّة والسابلة ، وسموا بذلك لوطئهم الطريق » والموطوء الشيء الذي تطؤه أي تدوسه ·

أما صواب قولك (الأرض الواطئة) فهو (الأرض الوطيئة) · فالوطيء من وطؤ كالكريم من كرم والقريب من قرب · وأما معنى (الوطيء) فيالأصل فهو : السهل اللين · ففي التاج : « وطؤ الموضع يوطؤ ، بضم الطاء ، وطأ ووطاءة : أي صار وطيئاً سهلاً ·· والوطيء من كل شيء ما سهل ولان · وفراش وطيء لا يؤذي جنبالنائم » · ولكن هل يعني (وطؤ) معنى انخفض ، كما هو الشائع ؟ قال أبو الفضل جمالالدينالأنصاري اللغوي صاحب لطائف الذخيرة : « هذه أرض مستوية لا رباء فيها ولا وطاء ، أي لا صعودفيها ولا انخفاض » · فالوطاء هو الانخفاض ، ويلزم من هذا أن يكون (وطؤ) بمعنى انخفض ،والوطيء بمعنى المنخفض ، لأن الوطاء كالوطاءة مصدر (وطؤ) ، كما جاء في الأفعال لابن القوطية·فقولك أرض وطاء وصف بالمصدر · وجاء في كلام الأنصاري : « والوطاء ما انخفض من الأرض »وجاء نحو ذلك في التاج ·

ولذا قل الأرض الوطيئة بمعنى السهلة أو المنخفضة ، لا الواطئة ·

٩ ـ دفيء لا دافيء :

أقول : أما الفعل فهو (دفوء) بالضم دفاءة كظرف ظرافة و (دفيء) بالكسر دفأ بفتح الدال والفاء في المصدر كطرب طرباً ، ودفاءة كسلم سلامة ، كما في الصحاح ومختاره ٠

وأما الصفة من (دفوء) بالضم فهو (دفيء) على فعيل ٠ ومن (دفيء) بالكسر فهو على (دفيء) على فعل بفتح فكسر ، ودفآن بالمد وامرأة دفأى٠

وأما الموصوف فقد خص الصحاح الفعل المضموم العين وهو (دفوء) بالشيء فقال دفوء اليوم والبيت والثوب والليلة فهو دفيء وهي دفيئة علىفعيل وفعيلة ٠ كما خص الفعل المكسور العين وهو (دفيء) بالرجل فقال دفيء الرجل فهو دفيء كتعبفهو تعب بفتح فكسر ، ودفآن كظمآن ، وامرأة دفأى كظمأى ٠

وأخذ الفيومي في المصباح بحكاية الزمخشريفجعل (دفيء) بالكسر كتعب للرجل والمكان ، وجعل (دفوء) لما سوى ذلك من يوم وليلة ٠ فقدقال الزمخشري في كلامه على (الرجل) : « دفيء من البرد بالكسر دفأ ودفاءة وتدفأ وادّفأ واستدفأ »وأردف : « ورجل دفآن وامرأة دفأى » فشايع الصحاح ٠ وقال في كلامه على (اليوم والليلة) : « ودفوء يومنا بالضم ودفؤت ليلتنا » فتكون الصفة منه دفيء ودفيئة على فعيل وفعيلة ، كما فيالصحاح أيضاً ٠ أما (المكان) فقد خصه ب (دفيء) بالكسر فقال : (مكان دفيء) على فعل كتعب فهوتعب ، فخالف الصحاح ٠

وأما اللسان فقد انتحى نهجاً آخر ، اذ أجاز(دفيء الرجل يدفأ) و (دفؤ الرجل يدفؤ) ومثلهما (تدفأ وادّفأ واستدفأ) فكان للرجل من الصفات(دفيء) بفتح فكسر و (دفآن) كظمآن و (دفيء) على فعيل ، فقال : « ورجل دفيء ، بفتح فكسر ،ودفآن » وأردف « والدفيء كالدفآن » ٠ وجعل (دفوء) بالضم للمكان والزمان ، فكانت الصفةمنه (دفيء ودفيئة) على فعيل وفعيلة ٠ ويستنبط من كل ذلك :

آ ـ تقول في وصف الرجل (دفيء) بفتح فكسر كتعب و (دفآن) كظمآن كما في الصحاح واللسان ٠ وتضيف الى ذلك (الدفيء) على فعيلكما في اللسان٠ كما تقول في وصف اليوم والبيت والثوب والليلة (دفيء ودفيئة) على فعيل وفعيلة ،كما في الصحاح ٠ ولك أن تضيف الى وصف المكان (الدفيء) بفتح فكسر ، كما في أساسالزمخشري والمصباح ، وقد خصوهما به ٠

ب ـ ليس لك أن تقول (الدافيء) كما يقولالكتّاب ، لأن ما جاء على فاعل قياساً لا يكون من (فَعِلَ) بفتح فكسر ما لم يكن متعدياً ، ولا يكون من (فَعُلَ) بالضم أيضاً ٠ ولم يرد بالدافيء سماع٠

جـ ـ جاء من مصادر المادة الدفأ والدفاء والدفا والدفاءة بفتحتين، وكذلك (الدفء)، بفتح فسكون ، ففي اللسان عن الأصمعي : «ثوب ذودفء ، بفتح فسكون ، ودفاءة » أما الاسم فهو (الدفء) بكسر فسكون ، ففي المصباح : « والدفءوزان حمل خلاف البرد » ٠ وهكذا تقول أحسست بالدفء بفتح فسكون ، اذا أردت المصدر ، أيالدفاءة ، كما تقول أحسست بالدفء بكسر فسكون، اذا أردت الاسم، أي أحسست بما يدفئك ٠

د ـ تقول في تعدية الفعل (أدفأته) بزيادةالهمزة و (دفأتـه) بتشديد عـين الفعل ، كما في الأساس ، وقد جـاء فيه : « ومـن المجاز ٠٠٠ وأدفأت فلاناً ودفـّأته : أجزلت عطاءه وأعطيتـه دفـأً كثـيراً ٠٠٠ » ٠

١٠ـ عاطـل ومتعطـل مـن العمـل :

أخذ الأستاذ عباس أبو السعود في مجلة الأزهر (في عدد تشرين الثاني من عام ١٩٧٤) ، أخذ على الكتّاب قولهم (عاطـل) للرجل اذا خلا مـن العمل فقال : « العاطـل صفة للمرأة التي خـلا جيدها مـن الحلي » وجعـل الصواب أن يقـال (متعطل) بصيغة اسم الفاعل من تعطل ، و (معطل) بصيغة اسم المفعول مـن عطل المبني للمجهول ٠فما الرأي في المسألة ؟

أقول اذا عـدنا الى المعاجم ألفينا (عطلت المرأة) بكسر الطاء مـن باب طرب ، و (تعطلت) اذا خلا جيدها من القلائد فهي (عاطل)٠ و (العطل) بفتح العين والطاء هو الخلو من القلادة ٠ على أنه جاء في الصحاح ومختاره أن (العطل) بفتحتين ليس مقصوراً على الخلو مـن القـلادة أو الحلي ، بل يتناول الخلو من سواهما أيضاً ٠ ففي الصحاح ومختاره : « عطل الرجل من المال والأدب » ٠

أما (تعطل) فقد قصر معناه على الخلو من العمل اذ جاء في المعجمين: « وتعطل الرجل اذا بقي بلا عمل » ٠ وهكذا فقد استغني عن الصلة أي (الجار والمجرور) في تعطل وذكرت الصلة في عطل٠ وعندي ألاّ فرق بينهما ذلك أنه يمكن الاستغناء في (عطل) عن الجار والمجرور أيضاً فتقول (عطل الرجل فهو عاطـل) أي خلا من العمل ، اذا دلت على ذلك القرينـة فتقول (هؤلاء عاطلون) كمـا تقول (هؤلاء متعطلون) ٠

وثمة (عطل) كقتل ، وأصل استعماله للمرأة أيضاً ٠ ففي المصباح « عطلت المرأة عطلاً من باب قتل اذا لم يكن عليها حلي فهي عاطل » وأردف :« وعـَطـَل الأجير مثل بطـَل يبطـُـل بالضم وزناً ومعنى » أي أن قولك (عطل الأجير) كقتل يعني أنه بـَطـَل أي لم يعمل ٠ ففي الأفعال لابن القوطية : « وبطـل الأجـير بطالة بكسر الباء في المصدر لم يعمل » ٠ فثبت بهذا صحة قولك (عطل الأجير) فهو عاطل ، اذا لم يعمـل ٠

والأجير هو العامل ، ذلك أن الأجير هو من عاقدته على أن يعمل لك بأجر معلوم ، وتقول في هذا المعنى (آجرت الأجـير) فالأجـير مؤاجر بفتح الجيم ، على ما جاء في الأساس للزمخشري ، أو هو مـن عاقـدك على ذلك فهو مؤاجر بكسر الجيم ، على ما جاء في المصباح ٠ أو ليس الأجـير اذاً هو العامل ؟ فاذا صح هـذا جاز لك أن تقول (عطل العامل فهو عاطـل) كما تقول (عطـل الأجير فهو عاطل) ٠ وقد يقولون في (الاجارة) هذه استأجرت جماعة ليعملوا كذا ، كما جاء في الحديث : « قال مثـل المسلمين واليهود والنصارى كمثـل رجـل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً الى الليـل ، على أجر معلوم ٠٠ » جاء ذلك في كتاب (التجريد الصريح لأحاديث الجامـع الصحيـح للامام أبي العباس الشهير بالحسين بن المبارك ـ ص ١٣٧ ـ ج ١) فالأجير اذاً هو العامل ، وقد ثبت بذلك صحة قولك (العاطل والمتعطـل) للعامـل ، كما تقـوله للأجير ، خلافاً لما ذهب اليه الناقـد ٠

★ ★ ★

وبحث ما نحن بصدده الأستاذ محمد العدناني، في معجمه (الأخطاء الشائعة) فأنكر قول القائل (فلان عاطل عن العمل) وقصر الصواب على قوله (فلان عاطل من العمل) بحرف الجر من دون عن ، واستشهد ببعض الشعر ومن ذلك قول أبي تمام :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى   فالسيل حرب للمكـان العـالي

فما الرأي فيما ذهب اليه ؟

أقول ان النص على استعمال (عطل) بحرف من حروف الجر لا يمنع من استعماله بحرف آخر اذا اتسع له معناه ٠ وقد عرضنا لذلك في كتابنا (مسالك القـول في النقد اللغوي) فقلنا : « ليس شيء أولى بالتدبر وأحق بطول الدربة والدراية من استعمال حروف الجر ٠ اذ لا يكفيك للتثبت في صحة اختيار الحرف لتصريف الفعل في معنى من معانيه أن تعود الى المعاجم وحدها ، بل لا يجزيك حيناً أن تقف ، في كتب النحو ، على ما يطرد فيه استعمال كل حرف ٠٠٠ أو تضرب بسهم من تصفح كتب الأدب نثره وشعره ، ذلك أنه لا بـد لاحكام استعمال هذه الحروف من أن تعلق من كل ذلك بسبب وتحظى بطائـل ٠٠٠ فيتحصل بمطالعتك هذه ومدارستك ما يبصرك بتصريف هذه الحروف واجرائها في مجاريها ٠٠ ص ٩١ » ٠

وعندي أن قولك (عطل عن العمل) و (عاطل عن العمل) صحيح لا غبار عليه ٠ فانظر الى قول الراغب صاحب المفردات : « العطل فقدان الزينة والشغل » وقد دلّ بقوله هـذا على أن (العطل) لا يقتصر على الخلو من (الزينة) ، ولو كان هذا هو الأصل في استعماله كما ذكرنا قبل ٠ وأردف فقال : « وعطلته من الحلي ومن العمل فتعطل » فدل بذلك على صحة ما انتهينا اليه من صحة قول القائل (عطل من العمل فهو عاطل ومتعطل) لثبوت (عطل) اللازم و (عطّلته) المتعدى فتعطل ، خلافاً لما ذهب اليه الأستاذ عباس أبو السعود ٠ ثم قال : « وعطل الدار عـن ساكنها والابل عن راعيها » بتشديد الطاء ، فاستعمل (عن) للتعبير عن تعطيل الدار من ساكنها أي اخلائها ، خلافاً للأصل ، كما استعمل (عن) في تعطيل الابل عن راعيها أي قطعها عنه باخلاء ذرعها منـه ٠ قال صاحب المصباح : « وعطلت الابل خلت من راع يرعاها ، ويتعدى بالتضعيف فيقال: عطلت الأجير والابل تعطيلاً » ٠

ويتبين عند التحقيق أنك اذا قلت (عطـل الرجل من العمل فهو عاطل منه) فقد أخذت بالأصل الذي هو (عطلت المرأة من الحلي) واعتددت به ٠ واذا قلت (عطل الرجل عن العمل فهو عاطل عنه) فقد أخذت بما انتهى اليه معناه وعوّلت عليه ٠ ذلك أن (تعطيل الرجل) حجز له عن العمل الذي به قوامـه ، وحبس له عن السعي الذي به كيانه ٠ فتعطيل الرجل يعني تنحيته عما فطر عليه ، لا مجرد اخلائه أو محض تعريته مـن صفة محمودة يحوزها كأدب أو مال أو سوى ذلك ٠

ولا يعد (عطل) فريداً في تعديته بمن وعن ٠ فأنت تقول بعـد عنه ومنه وتباعد عنه ومنه ٠ كما تقول تحول عنه وهو المشهور ، وتحول من حال الـى حـال كمـا جـاء في (لطـائف اللطف/٦٤) للنيسابوري ٠

وهكذا قيل (تنقل من موضع كذا) كما هو الشائع ، وقيل (أصبح السلطان متنقلاً عن أهل الفضل الى أهل النقص) كما جاء في كليلة ودمنة(باب برزويه) لابن المقفع • ونحو ذلك (انصرف عنه) كما هو الجاري و (انصرف من بلاد الهند)كما في المصدر نفسه •

وتقول (تحرّز منه) كما في الصحاح والقاموس والمصباح ، وتقول (تحرّز عنه) ، كما جاء في الأدب الكبير لابن المقفع ، اذ قال : (تحرزاً بذلك عن تقصير فعل/٨٥) • وتقول (خرج منه) و (خرج عنه) • قال ابن المقفع في كتابه المذكور : (وكان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ، وخارجاً من سلطان لسانه فلا يقول ما لا يعلم/١٣٣) ، كما جاء في سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي : (وخرج عن حد الاستعمال) وفي مقدمة الكتاب (وخرج عن مقدور البشر) ، أي تجاوز ، ونحو ذلك ما جاء في المخصص لابن سيده (تخلّيت منه وتخلّيت عنه) •

ولا شك أن لكل حرف من هذين معنى يقتضيه عند التحقيق • فلا بد أن يفضي الفعل مع حرف بعينه الى معنى لا يفضي اليه مع حرف آخر • وقد بسطنا القول في ذلك بكتابنا (مع النحاة/١١١) •

* * *

ويتصل بما نحن بصدده ما جاء في معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة • فقد ذهب الأستاذ محمد العدناني في معجمه هذا الى تخطئة قول القائل (عاضه عن الشيء) وجعل صوابه (عاضه الشيء) و (عاضه منه) ، مستشهداً بما جاء في الحديث عن أبي هريرة : « فلما أحلَّ الله ذلك للمسلمين ، يعني الجزية ، عرفوا أنه قد عاضهم أفضل مما خافوا » ، على صحة (عاضه الشيء) ، ومستشهداً بما جاء في الألفاظ الكتابية للهمذاني وفي أساس البلاغة للزمخشري وسواهما ، على صحة (عاضه منه) • لكنه أقر بصحة قول القائل (اعتاض عنه) ، كما جاء في المقامة الدمياطية لأبي القاسم الحريري ومحيط المحيط ، الى جانب قول القائل (اعتاض منه) !

والغريب أن يثبت العدناني (اعتاض عنه) ويمنع (عاضه عنه) ، والأصل أن يتفق الحرف في (فعلته فافتعل) كجمعته الى فلان فاجتمع اليه ، ونسبته الى فلان فانتسب اليه وخصصته بكذا فاختص به • ونحو ذلك (أفعلته فافتعل) كأبعدته عنه فابتعد عنه وهكذا •• و (اعتاض) معناه أخذ العوض ، و (عاضه) أعطاه العوض • فصواب المسألة أنك تقول (عضته من كذا) فاعتاض منه ، كما تقول (عضته عن كذا) فاعتاض عنه • وتقول الى ذلك (هذا عوض من ذاك) و (هذا عوض عن ذاك) أيضاً • ودليل ذلك ما جاء في كلام الفصحاء • فاذا عدت الى (خزانة الأدب) للامام عبدالقادر البغدادي (المطبوع بتحقيق محمد محي الدين عبدالحميد) ، وتصفحته ، لا سيما الجزء الثاني منه ، ألفيت أن الفعل (عاض) ومشتقاته والاسم منه في الصفحات (٩٤ و ١١٣ و ١٤٩) خاصة ، قد عُديت بالحرفين جميعاً ، كقوله (المعوض عنه ومنه ، والعوض عنه ومنه) وقد تكرر ذلك •

واذا تدبرنا الأمر وجدنا أنه كلما عُدّي (عاضه) بمن كان بمعنى (أبدله) وكان (العوض) بكسر ففتح ، وهو الاسم ، بمعنى (البدل) • والغالب فيما جاء من (عاضه منه) أن يشار فيه الى أن العوض بمعنى البدل • قال الامام عبدالرحمن بن عيسى الهمذاني في كتابه (الألفاظ

الكتابية) : « اعتاض هذا الأمر من ذاك اعتياضاً وأعاضه فلان وعوّضه عِوَضاً ، وخذ هذا عوضاً من ذاك » وأردف « والعوض ٠٠ والبدل والبديل واحد » ٠

على أن للعوض معنى آخر ، يفارق بـه البدل، فقد ذكر ابن جني في الخصائص (١/٢٦٥): أن جماع ما في الأمر أن البـدل أشبه بالمبدل منه ، من العوض بالمعوض منه٠ فالبدل يقع في موضع المبدل منه ، ولا يلزم من العوض ذلك ٠ فالعوض لا يحل محل المعوض منه أما البدل فيحل محل المبدل منه فلا يجتمعان ٠ وهكذا لا يشترط في (العوض) الا أن ينوب عـن (المعوض عنه) ولا يشترط أن يشابهه أو يحل محله ٠ وبهذا المعنى أمكن أن تقول (هذا عوض عن هذا) أي ينوب منابه ويجزي عنه، أي يقضي ، ومن ذلك قوله تعالى : « ولا تجزي نفس عـن نفس شيئاً ـ البقرة/٤٧ » ، وبذلك يتجلى معنى (عن) ٠ قال أبو البقـاء الكفوي في الكليات : « والبدل لا يكون الا في موضع المبدل منه ، والعوض لا يكون في موضع المعوض عنه ـ ١/٣٩٩ » فعدّى (عوض) بعن ليشير به الى المعنى الذي يفارق به (بدّل) أو (أبدل) !

وانظر الى قول الامام الشافعي :

سافر تجـد عوضاً عمّن تفارقه   وانصب فان لذيذ العيش في النّصَب

وتأمل قوله (عوضاً عمن تفارقه) ، فلماذا اختار الشافعي ذلك عن أن يقول، بل على أن يقول: (بدلاً ممن تفارقه) أو (عوضاً ممن تفارقه) ؟ أقول قد آثر (عوضاً عمن تفارقه) لأن المسافر انما يكفيه بل يجزيه أن يجد مـن يأنس به ويطمئن اليه ،ويغنيـه أن يظفر بمن يشـق به ويسكن اليـه ، فيسلو به عمن يفارقه فتطيب نفسه عن ذكره ٠وهو لا يطمـع أن يلقى (البديل) ممن نزح عنهم و (الشبيه) بمن ألف صحبتهم ، فكان قوله (عوضاً عمن تفارقه) واقعاً موقعه صائراً الى مستقره ٠ وقد يدق هذا فيخفى على الناظر حتى يتلطف له فيظهر من أكمامه وينشر عن طيه ٠

★ ★ ★

هذا ما رأيت الكشف عنه ، في موضوع دلالة (اسم الفاعل) والموازنة بينه وبين الصفة المشبهة ، وما يعترض الكتّاب فيـه مـن لبس واشكال أو يتصل باستعماله مـن خطأ واشتباه ٠ وأرجو أن أكون قد وفّقت ، فيما أدليت به من وجوه الرأي، الى ما يمكن الوثوق بصحته فلم أخطىء القصد فيما ابتغيت ، ومن الله العون والتسديد ٠

★ ★ ★

الطوفــان بــين الحقيقـة والأسطورة

إعداد : محمّد فيض الله الحامدي*

في مجلس أنس جمع شلة من الأصحاب ، احتد النقاش حول طوفان نوح ، هل كان الطوفان عاماً على كامل الكرة الأرضية ؟ أم حادث في موقع جغرافي محدد كبلاد ما بين النهرين ؟ وهل البشرية الحالية هي من سلالة نوح فقط ؟ وهل حمل نوح معه كل الأنواع الحيوانية التي تتنفس الهواء وهي آلاف الأنواع ؟ وأين رست سفينة نوح ؟ على الجودي أم على ارارات ؟ وهل حمل نوح زوجته في السفينة ؟

وأسهمت في النقاش بقدر اطلاعي على هذا الموضوع ، وكان رأيي أن الطوفان حدث في زمن ما وفي مكان معين ، وترك أثراً كبيراً في وجدان الناجين، وتناقلت ذاكرة الأجيال هذا الحدث ، بصيغ مختلفة فكانت أساطير الطوفان ، وجاءت الكتب المقدسة لتؤكد حقيقة الطوفان ، ففصلت التوراة قصة الطوفان وأجمل القرآن .

وفي هذا البحث سأتناول الطوفان في الروايات الأسطورية ، ثم رواية التوراة ، وقصة الطوفان في القرآن الكريم . ثم الدلائل التاريخية والجيولوجية على حدوثه ، مع التعليق المناسب في المكان المناسب .

□ أساطير الطوفان :

أساطير الطوفان منتشرة **في جميع أنحاء العالم**، عند الشعوب المتحضرة والبدائية ، وقد كشفت الحفريات التي تمت في منطقة بلاد ما بين النهرين، عن ألواح ورقم دوّنت عليها ملاحم أدبية تتحدث عن الخليقة وفي سياقها ترد حادثة الطوفان، فهناك الملحمة السومرية والملحمة الأكادية (البابلية) وفي تراث الهند الثقافي ملحمة ورد فيها عن الطوفان ما يشبه الى حدٍّ ما ملاحم بلاد الرافدين

(*) كاتب وباحث ومحقق .

والأسطورة اليونانية عن الطوفان مقتبسة من بلاد ما بين النهرين مع تعديل بسيط • وتبدو رواية التوراة والطوفان متشابهة مع رواية الطوفان في الأساطير السومرية والبابلية • أما القرآن الكريم فقد أجمل القصة كما ذكرنا ولم يحدد مكان وزمان الطوفان ولم يحدد من كان مع نوح ، ولكن أكد على حقيقة الطوفان • ونبدأ بالأسطورة السومرية •

أولاً ـ النص السومري عن الطوفان :

« السومريون شعب سكن في بلاد ما بين النهرين في الألف الرابع قبل الميلاد ، ويعتقد العلماء أن هذا الشعب قدم الى هذه البلاد من مرتفعات فارس أو المنطقة الواقعة وراء الخليج العربي »(١) ولدى التنقيب في خرائب مدينة (نفر) السومرية عام ١٩١٤ م عثر العالم آرنو بوبل Arno Bobel على مجموعة ألواح تعود للألف الثالث قبل الميلاد ، دوّن عليها نص عن الطوفان يتشابه مع رواية التوراة عن الطوفان ، فترك ذلك الاكتشاف صدى واسعاً في الأوساط العلمية ، والنص فيه تشوهات، ولكن المقروء منه ، ملخصه أن الآلهة قررت افناء البشر بالطوفان ، وبعض الآلهة كان معارضاً لهذا القرار، وأحدهم أخذ على عاتقه مهمة انقاذ بذرة الحياة على الأرض ، وكان على الأرض ملك صالح يدعى « زيو سودرا » فيتصل به الاله المنقذ من وراء حجاب فيخبره بقرار الافناء ، وفيما يلي مقاطع من الأسطورة(٢) : « في ذلك الحين بكت « ننتو » كامرأة في المخاض • وأنانا المقدسة ناحت على شعبها • وانكي تفكّر ملياً وقلب الأمر على وجوهه ••• في تلك الأيام « زيو سودرا » كان ملكاً وقيّماً على المعبد • قام بتقدمة ذبيحة عظيمة جداً ، وجعل يسجد بخضوع ••• بتبجيل • وباصرار كل يوم كان يقف منتظراً وحي الآلهة • فرأى في أحد الأيام حلماً لم يرَ له مثيلاً قط » يتشوه النص والمقاطع التالية تقول: « زيو سودرا واقفاً بجانبه (أي الجدار) يسمع صوتاً • قف قرب الجدار على يساري واسمع ، سأتوجه لك بكلمة عند الجدار فاتبع ما أقوله لك وأعط أذناً صاغية لوصاياي ، بأيدينا سنرسل طوفاناً من المطر ••• للقضاء على بني الانسان ••• ذلك حكم وقضاء مجمع الآلهة • قضاء (آنو) و (انليل) • لمحو سلطة البشر والقضاء على حكمهم » •

يتشوه النص ، تليه مقاطع واضحة عن حوادث الجو التي أدت الى الطوفان : « هبت كل العواصف دفعة واحدة • ودفعت سيول الأمطار أمامها ••• ، بعد سبعة أيام وسبعة ليال ، غمرت سيول الأمطار وجه الأرض ، ودفعت العواصف المركب العملاق فوق المياه العظيمة • ثم ظهر « أوتو » ـ أي إله الشمس ـ ناشراً ضوءه على السماء والأرض • فتح زيو سودرا كوة في المركب الكبير وسمح لأشعة البطل « أوتو » بالدخول اليه • زيو سودرا الملك خرَّ ساجداً أمام أوتو ونحر ثوراً وقدم ذبيحة من غنم » • يتشوه النص ولكن تنتهي القصة ب « زيو سودرا الملك سجد أمام أنو وأنليل • ومثل إله وهباه حياة أبدية ، ومثل إله وهباه حياة خالدة ، عند ذلك زيو سودرا الملك دعي حافظ بذرة الحياة ، وفي أرض ••• دلمون حيث تشرق الشمس أسكناه » •

ومن هذا النص السومري نسجل الملاحظات التالية :

١ ـ ايمان الشعب السومري بتعدد الآلهة ، وقرار الطوفان يصدر من مجمع الآلهة لتدمير البشر والحياة على الأرض •

٢ ـ صاحب السفينة هو زيو سودرا وهو ملك وقيّم على المعبد ، فهو رجل صالح ، يخبره أحد الآلهة بقرار الطوفان ، ويأمره ببناء السفينة (المركب العملاق) • لينجو بنفسه •

٣ ـ حدوث الطوفان بعواصف جوية ، وأمطار غزيرة دامت سبعة أيام بلياليها ، ونجاة زيو سودرا •

٤ ـ لم تحدد الأسطورة مكان استواء المركب العملاق ، ولكن يفهم انه في أرض دلمون حيث تشرق الشمس •

٥ ـ يفهم من النص المكتشف أن الطوفان عام ، لأنه دمّر الحياة على الأرض ، وزيو سودرا أنقذ بذرة الحياة • ولكن مدة العواصف والأمطار غير كافية لتشكيل طوفان يعم كامل الأرض •

٦ ـ لم يكلف زيو سودرا بتبليغ قومه قرار الآلهة ، ولم يكن رسولاً ، ولكن كان صالحاً متعبداً فاختارته الآلهة لصلاحه ، لينقذ بذرة الحياة ، وينجو من الغرق •

ثانياً ، النص البابلي عن الطوفان : (ملحمة جلجامش) :

« في عام ١٨٧٢ أعلن الباحث الانكليزي جورج سميث أنه قد توصل لحل رموز أحد الواح مكتبة الملك الآشوري « آشور بانيبال » في نينوى ، الذي حكم في القرن السابع قبل الميلاد وأن هذا اللوح يحتوي على نص للطوفان • فتتابعت البعثات التنقيبية على المنطقة لاكتشاف المزيد • الى أن تمّ العثور على الألواح الاثني عشر التي تشكل ملحمة جلجامش التي تأخذ قصة الطوفان معظم اللوح الحادي عشر منها »(٣) •

ومن غير الدخول في تفاصيل ملحمة جلجامش Gelgamish ، يفقد جلجامش صديقه (انكيدو) فيحزن عليه ، ويريد اعادة الحياة له ، فيهيم على وجهه في البراري والقفار باحثاً عن سر الخلود ، ويقصد جلجامش شخصاً يدعى « أوت ـ نابشتيم » — Ut Napishtim الذي منّت عليه الآلهة بالحياة السرمدية ، ليسأله عن سر الخلود • ويصل جلجامش اليه بصعوبة ويسأله عن سر الخلود ، فيقص عليه (أوت ـ نابشتيم) كيف حصل على الحياة الأبدية بحادث فريد هو الطوفان الكبير وفيما يلي مقاطع من **الأسطورة**(٤) : يسأل جلجامش أوت ـ نابشتيم « أخبرني كيف حصلت على رفقة الآلهة ونلت الخلود ؟ فقال أوت ـ نابشتيم لجلجامش : جلجامش ••• سأكشف لك سراً كان مخبوءاً ، وأبوح لك بسر من أسرار الآلهة • « شوريباك » مدينة أنت تعرفها ، تقع على شاطىء نهر الفرات • لقد شاخت المدينة والآلهة في وسطها ، فحدثتهم نفوسهم أن يرسلوا طوفاناً • كان هناك « آنو » أبوهم ، كما كان « انليل » مستشارهم و « ننورتا » ممثلهم و « اينوجي » وزيرهم ، و « ننجيكو » الذي هو « ايا » كان حاضراً أيضاً ، فنقل حديثهم الى كوخ القصب ـ (بيت أوت ـ نابشتيم) ـ ياكوخ القصب ياكوخ القصب ، جدار ياجدار ، اصغ ياكوخ القصب ، وتفكر ياجدار ، رجل شوريباك ، يا ابن أوبارا ـ توتو • قوّض بيتك وابن سفينة • اهجر ممتلكاتك وانج بنفسك • اترك متاعك وأنقذ حياتك • اعمل على حمل بذرة كل ذي حياة • والسفينة التي أنت بانيها ، ستكون وفقاً لمقاسات مضبوطة • فيكون عرضها معادلاً لطولها ، وعطها كما هي المياه السفلى • عندما فهمت ذلك قلت ل « إيا » مولاي : سأضع نصب عيني ما قد أمرتني به وأعمل على تنفيذه » •

ويتابع أوت-نابشتيم حديثه لجلجامش ، الى أن يقول : « وفي اليوم الخامس أنهيت هيكل السفينة، كانت أرضيتها « ايكو » واحد - (مقياس يعادل ٣٦٠٠ م٢) - وارتفاع جدرانها مائةوعشرين ذراعاً ، وطول كل جانب من جوانب سطحها مائةوعشرين ذراعاً ، حددت شكلها الخارجي وشكلته، وستة سطوح سفلية بنيت فيها ، وبذلك قسمتها لسبعة طوابق • كما قمت بتقسيم أرضيتها لتسعة أقسام ، وثبت على جوانبها مصدرات الماء •زودتها بالمؤمن والذخيرة » ويتابع أوت نابشتيم حديثه حتى يصل الى « حملت اليها كل ما أملكه•كل ما أملكه من فضة ، حملت اليها • كل ما أملكه من ذهب حملت اليها • كل ما لدي من بذور كل شيء حي حملت اليها • وبعد أن أدخلت اليها أهلي وأقاربي جميعاً ، وطرائد البرية ووحوشهاوكل أصحاب الحرف ، عين لي الاله « شمش » وقتاً محدداً : (عندما يرسل سيد العاصفة مطرأمدمراً في المساء ادخل الفلك وأغلق عليك بابك)• وما إن أزف الموعد ، حتى أرسل سيد العاصفة مطرأمدمراً في المساء • قلبت وجهي في السماء كان الجو مرعباً للنظر ، دخلت السفينة وأغلقت علي بابي ، وأسلمت قيدها للملاح « بوزور-آموري » أسلمته الهيكل العظيم بكل ما فيه • وما إن لاحت تباشير الصباح ، حتى علت الأفق غيمة كبيرة سوداء، يجلجل في وسطها صوت « حدد » - ويسبقها « شوللات » و « خانيش » - اقتلع « أريجل » الدعائم وقام « ننورتا » بفتح السدود • رفع (الأنوناكي) مشاعلهم، حتى أضاءت الأرض ببريقها. الا أن ثورة حدد بلغت حدود السماء ، أحالت الى ظلمة ما كان مضيئاً ، وقام بتحطيم الأرض كما تحطم الجرة ، عصفت الرياح العاتية يوماً كاملاً ، بعنف عصفت ••• أتت على الناس وحصدتهم كما الحرب ، حتى عمي الأخ عن أخيه ،وبات أهل السماء لا يرون أهل الأرض ، حتى الآلهة ذعروا من هذا الطوفان ، وهربوا صاعدين الى سماء « آنو » • انكمشوا كالكلاب الخائفة وربضوا في أسى •

صرخت « عشتار » كامرأة في المخاض ، ناحت سيدة الآلهة ذات الصوت العذب : (لقد آلت الى طين تلك الأيام القديمة ، ذاك بأنني نطقت بالشر في مجمع الآلهة ، فكيف استطعت أن آمر بمثل هذا الشر ؟ كيف استطعت أن آمر بالحرب لتدمير شعبي ؟ تدمير من أعطيتهم أنا الميلاد • وها هم يملأون اليم كصغار السمك) • وبكى معها آلهة الآنوناكي ، وجلسوا يندبون وينوحون وقد غطّوا أفواههم •

ستة أيام وستة ليال ، والرياح تهب ، والعاصفة وسيول المطر تطغى على الأرض ، ومع حلول اليوم السابع ، العاصفة والطوفان خفت من وطأتها، وكانت قبل كأنها الجيوش المحاربة، وأخذ البحر يهدأ والعاصفة تسكن • والطوفان يتوقف،فتحت نافذة فوقع النور على وجهي ، نظرت الى البحر كان الهدوء شاملاً ، وقد عاد البشر الى طين » •

ويتابع أوت-نابشتيم حديثه لجلجامش : « واستقرت السفينة على جبل (نصير) ، أمسك الجبل بالسفينة ومنعها من الحركة • ومضى اليوم الأول والثاني والجبل ممسكاً بالسفينة • ومضى اليوم الثالث والرابع والجبل ممسك بالسفينة •ومضى اليوم الخامس والسادس والجبل ممسكاً بالسفينة • وعندما حل اليوم السابع ، أتيت بحمامة وأطلقتها في السماء • طارت الحمامة بعيداً، وما لبثت أن عادت الي ، لم تجد مستقراً فآبت• فأتيت بسنونو وأطلقته في السماء ، طار بعيداً

ثم أتيت بغراب وأطلقته في السماء ، فطار الغراب،وما لبث أن عاد اليّ • لم يجد موطئاً لقدميه فآب• بعيداً ، ولما رأى أن الماء قد انحسر ، أكل وحام وحط ولم يعد • عند ذلك أطلقت الجميع للجهات الأربع ، وقدمت أضحية » ويتابع أوت-نابشتيم حديثه ، فيبين ما فعله على قمة الجبل من أضحية وتجمع الآلهة ، والحوار الذي دار بين الآلهة حول الطوفان ونتائجه ، ويخلص الى القول : « فصعد انليل الى السفينة وأخذ بيدي وأصعدني معه •كما أصعد زوجتي أيضاً ، وجعلها تركع الى جواري ، ثم وقف بيننا ولمس جبهتينا مباركاً : « ما كنت يا أوت-نابشتيم الا بشراً فانياً ، ولكنك وزوجك منذ الآن ستغدوان مثلنا (خالدين) وفي القاصي البعيد عند فم الأنهار ستعيشان » ثم أخذوني وأسكنوني في البعيد حيث فم الأنهار » •

يعتبر هذا النص أهم نصوص الطوفان في بلاد الرافدين ، لأنه كامل ، ولدقة تعابيره وحسن صياغته ، وقد اجتزأت بعض الفقرات من النص،فمن أراد الاطلاع على النص الكامل يمكن العودة الى المرجع المحدد بالهامش •

والملاحظات التي نسجلها من قراءة النص البابلي للطوفان في ملحمة جلجامش هي :

١ ـ ايمان الشعب البابلي بتعدد الآلهة ، كالشعب السومري، وقرار الطوفان يتخذه مجموعة من الآلهة، لتدمير شوريباك على نهر الفرات ، ولكن ورود مقطع يبين ذعر الآلهة أو بعضها وانكماشهم كالكلاب الخائفة ، يشير الى نظرة البابليين الى مكانة الآلهة وقداستهم فحدث الطوفان جلب النقمة حتى على الآلهة •

٢ ـ صاحب السفينة هو أوت-نابشتيم ـ ويخبره « ايا » أن يصنع سفينة بمواصفات معينة ، فيعمل هذا الرجل اليها كل ما يملك من ذهب وفضة وبذور كل شيء حي ، ثم يدخل هو وأهله وأقاربه وأصحاب الحرف وطرائد البرية والوحوش، ويطلقهم في الجهات الأربع بعد الطوفان فكان الحياة على الأرض ابتدأت من جديد بعد الطوفان •

٣ ـ حدوث الطوفان بعواصف رعدية مرعبة ، وتفجر الأرض بالينابيع عندما قام حدد بتحطيم الأرض كما تحطم الجرة • ودامت العواصف ستة أيام بلياليها ، وهدأت في اليوم السابع •

٤ ـ مكان الطوفان هو بلاد ما بين النهرين « شوريباك التي تقع على الفرات » وتستقر السفينة على جبل نصير (يقع بين الفرات والزاب الصغير) ، وتبقى السفينة ستة أيام على قمة الجبل قبل أن يطلق أوت نابشتيم الحمامة ثم السنونو ثم الغراب ليستطلع ، هل حدث انحسار الماء • وهذا يفيد أن الطوفان لم يكن عاماً، فجبل نصير منخفض بالنسبة لجبال أخرى كثيرة في المنطقة •

٥ ـ لم يكن أوت-نابشتيم ملكاً أو رسولاً الى قومه ، ويبدو أنه كان فقيراً لأنه يعيش في كوخ القصب ، والذين نجو معه في السفينة هم أهله وأقرباؤه وأصحاب الحرف ، وهذا يوحي بنجاة عدد كبير من الناس معه ، ولكن نيل الخلود كان من نصيب أوت-نابشتيم وزوجته • وفي النص اشارة الى انتقال أوت-نابشتيم باتجاه الشمال حيث فم الأنهار (أي منابع الأنهار، فالمناطق المرتفعة أكثر أماناً من الأماكن المنخفضة عند حدوث الفيضانات •

ونشير هنا الى أن بعض أساطير أخرى عن الطوفان وجدت مدونة على ألواح ، تم اكتشافها في بلاد ما بين النهرين تعود للعهود البابلية الكلدانية . ولكن أغلبها مشوه أو كسرات غير كاملة ، فقد عثر على كسرة من لوح في خرائب مدينة « نيبور » والمدون عليها جزء من قصة الطوفان « سأقوم بافلات وتحرير ... سوف يأخذ الناس أجمعين ... قبل أن يحل الطوفان ... سأسبب الخراب والدمار والفناء ... قم ببناء سفينة كبيرة ... سيكون هيكلها سفينة عظيمة ستكون ، وسيكون اسمها حافظة الحياة ... قم بتغطيتها بغطاء متين والى السفينة التي صنعت وجلب وحوش البر وطيور السماء »(٥) .

الفكرة التي دونت على الكرة رغم نقصها ، تشير الى طوفان قادم ، وشخص يؤمر ببناء سفينة للحفاظ على الحياة ، يحمل الوحوش وطيور السماء ، والنص يؤكد انتشار أسطورة الطوفان في المنطقة .

وثمة ملحمة أخرى بنص بابلي وصلتنا موزعة على كسرات عديدة ، بطلها « أتراحيس » فعرفت باسم ملحمة اتراحيس ، وهي تتحدث عن غضب (انليل) على البشر بسبب تكاثرهم وضجيجهم الذي منعه من النوم ، فيأمر (انليل) بقلع الأشجار ويطلب من حدد حجب المطر ومن (نيسابا) حجب صدرها الخصب والهدف هو تعريض البشر للقحط وفي الملحمة مصائب أخرى سلطها أنليل على البشر كالأمراض والأوبئة ، وفي الملحمة جزء خاص بالطوفان « ففتح أنكي فمه وقال مخاطباً أنليل لماذا أمرت ؟... سأمد يد المساعدة الى البشر ... والطوفان الذي قد أمرت به ... » يتشوه النص، وفي كسرة أخرى « وفي الوقت المحدد الذي سأعينه لك ، أدخل الفلك وأغلق عليك بابك ، احمل اليها الحبوب والمتاع والمواشي ، زوجك وعائلتك وأقرباءك وأصحاب الحرف ، طرائد البرية ووحوشها ، وما استطعت من أكلة الأعشاب ، سأدفع بها اليك ، وتقبع عند أبوابك تحرسها لك . ففتح أتراحيس فمه وقال محدثاً « إيا » مولاه : لم يسبق لي أن بنيت سفينة ، فهلا رسمت لي شكلاً لها على الأرض أستعين به على بنائها ؟... ثم اني سأعمل على تنفيذ ما أمرتني به »(٦) .

ان ما وصلنا من ملحمة أتراحيس بخصوص الطوفان ، يتشابه مع ملحمة جلجاميش في بعض النقاط ، كحمل الحبوب والمتاع والمواشي ، ثم الأهل والأقرباء وأصحاب الحرف، وصناعة السفينة بوحي من « إيا » ، ولكن بطل الأسطورة في ملحمة جلجامش الذي هو أوت-نابشتيم يصبح أتراحيس، ومعنى أوت-نابشتيم «الذي رأى الحياة » أما معنى (أتراحيس) فهو « الواسع الحكمة » . وسنرى أن أسماء الآلهة وبطل الطوفان والمواقع تتغير عندما نقلت أسطورة الطوفان الى الآداب اليونانية ، كما يظهر في نص بيروسوس ، والأسطورة اليونانية عن الطوفان .

☐ نص بيروسوس(٧) :

بيروسوس كاهن مردوخ في بابل ، في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد ، دوّن تاريخ بابل بالاعتماد على الوثائق المدونة على الألواح ، ونقلها الى اليونانية عام (٢٧٥) قبل الميلاد ، فضاع معظمها ، ولكن ما يتعلق بالطوفان ، ظهرت في أعمال الكاتب ألكسند بوليستر في القرن الأول

قبـل الميلاد ، اقتبسها من رواية بيروسوس عـن الطوفان، وملخص الرواية « أن الملك اكسوثروس » بن « أرديتس » رأى حلمـاً ، تجلى له فيـه الاله« كرونوس » فيخبره الاله باهـلاك الحيـاة على الأرض بطوفان مدمر ، فيأمره بكتابة ألواح عـن بداية كل شيء وتطـوره ونهايتـه ، وطمر هـذه الألواح في (سيبارا) مدينة اله الشمس· كما يأمره ببنـاء سفينة ، لتحمله مـع عائلتـه وأقربائه ، ويحمل فيها من كل ما يطير ويدب على الأرض ،ويبني الملك سفينة طولها خمسة (استاديا) وعرضها اثنتا (استاديا) ، وحمل فيها وفق المشيئة الالهية ثم صعد مع زوجته وأولاده المقربين اليه ·

ويحـدث الطوفان ، وبعـد هدوئه يرسل اكسوثروس الطيور مرتين ، وتعود لعدم انحسار المـاء ، ثم يرسل ثالثة فلا تعود الطيور ، فيعرف اكسوثروس أن الأرض انكشفت · واستوت السفينة على أحـد الجبال · وينزل الملك وزوجته وملاح السفينة على الأرض ، فسجد الملك وبنى مذبحاً ، وقدّم قرباناً للآلهة · بعد ذلك نزل الذين كانوا في السفينة للبحث عن اكسوثروس لأنه تأخر عليهم ، فلم يجدوه ، فأتاهم صوت مـن السماء يأمرهم بالتقوى والصلاح ، ويخبرهم أن اكسيوثروس رفع الى السماء الى الآلهة ، ليعيش معهم عيشة خالدة، بسبب تقواه وصلاحه · كما أخبرهم الصوت أن مكان استواء السفينة هو احـدى بقاع ارمينيا وعليهـم أن يعودوا الى بابـل ليستعيدوا الألواح المطمورة في سيبارا ، وعندما سمع القـوم ما قاله لهم الصوت السماوي ، قدموا الأضاحي للآلهة ، ومضوا الى بابـل ، فاسترجعوا الألواح ، وبنوا المدينة مـن جديد ، وأشادوا مدناً كثيرة وأقاموا المعابـد والهياكل » ·

والملاحظات على نص بيروسوس : أنه غير اسم الالـه « ايـا » الى اسم الـه يوناني وهـو « كرونوس » وبطـل الطوفان هو ملـك مثل زيوسودرا ولكن اسمه يوناني اكسوثروس ، والنص ابتعد عـن التفصيلات التي تتعلـق بحالة الجو ،فأعطى واقعيـة أكثر للروايـة ويتركز اهتمـام القارىء على الهـدف مـن الطوفان والنتائج ·واختفاء اكسوثروس ورفعـه الى السماء ، فكرة متقدمة في مجال العقيدة الدينيـة ، فالعروج الى السماء وارد في الأديان السماوية ، كما أن سماع القوم نداءً من السماء دون رؤية الآلهة ومخاطبتهم مباشرة ، فيـه تنزيه للآلهة من التجسد ، والنص يشـير الى مكان استواء السفينـة (ارمينيا) التي يقع فيها جبل آرارات حاليـاً ·

ثالثـاً ـ الأسطورة اليونانية عن الطوفان(٨) :

يرجح معظم العلماء أن الأسطورة اليونانية مقتبسة من أساطير الطوفان في بلاد ما بين النهرين وقد ذكرها « هسيود » الشاعر اليوناني الذي عاش في القرن الثامن قبـل الميلاد · في ملحمة شعرية · وملخص الروايـة أن « زيوس » — Zeus —كبـير الآلهـة غضب على البشـر لازياد شرورهم وعصيانهم الدائم وذلك يشكل خطراً دائماً يهـدد الآلهة ، فقرر ابادتهم بالطوفان ، وقد أخبر زيوس « بروميثس » بقرار الطوفان رغم ما بينهما مـن عداوة فقد كان زيوس يخشى سطوة بروميثوس لتعاطفه مع البشر· فأخبر بروميثوس ابنه دوكاليون Deucalion وكان هذا ملكاً صالحاً ، أمه حورية البحر«كليمينة» وكان متزوجاً من (بيرا) Pyrrha بنت ايبيميثيوس وباندورا ، وقد حكم دوكاليون تساليا بالعدل وطلب بروميثوس من ابنه أن يصنع سفينة لينجو بنفسه مع زوجته (بيرا) · فصنعها ، وفي اليوم الموعـود انفتحت أبواب السـماء بالمطر الغزير ، فغطت الميـاه وجـه الأرض ، وأهلـكت

الصغير والكبير ، ودام الطوفان تسعة أيام بلياليها،وبقي الفلك عائماً على وجه الماء وعلى متنه دوكاليون وزوجته فقط ، وفي اليوم العاشر ، حطت السفينة على جبل (البرناس) Parnasse . فخرج دوكاليون وزوجته من الفلك وقدم ذبيحة لأبي الآلهة (زيوس) فدخلت الرحمة في قلبه ، وتنسم رائحة الضحية بانشراح ، ورضي على مقدمها ، فأرسل زيوس رسوله (هرمس) ليسألهما عن أمنيتهما ، فأجابا بأنهما يتمنيان عودة الجنس البشري ، ايناساً لوحشتهما ، فأمرهما أن يلقيا عظام جدتهما ، وبعد تفكير أدرك دوكاليون أن عظام جدتهما ليست سوى حجارة الأرض التي هي جدتهما « ليبيا » فنفذا الأمر ، فكان الذكور من الحجارة التي يلقيها دوكاليون خلفه ، والاناث من الحجارة التي تلقيها « بيرا » خلفها ، فنشأت البشرية من جديد من أناس أكثر صلابة وشجاعة .

ونسجل على هذه الأسطورة الملاحظات التالية :

١ ـ قرار الطوفان يتخذه زيوس كبير الآلهة ، فما زالت فكرة تعدد الآلهة موجودة ، وسبب الطوفان هو شرور البشر وعصيانهم .

٢ ـ صاحب السفينة دوكاليون هو ملك عادل وابن لبروميثوس (النبي) الذي كان متعاطفاً مع البشر ، فهو مثل زيوسودرا الملك ، ومثل نوح في التوراة من سلالة نبي .

٣ ـ مكان هبوط السفينة ، أرض اليونان ـ جبل البرناس وارتفاعه حالياً (٢٤٥٩) م. والطوفان أهلك كل البشرية بدون استثناء ، ما عدا دوكاليون وزوجته .

٤ ـ البشرية الحالية خلق جديد من حجارة الأرض ، وهذه الفكرة تربط بين الانسان وأصله من تراب .

رابعاً : الأسطورة الهندية عن الطوفان(٩) :

« تقول الأسطورة: ان « مانو » وهو ابن الله كان يغسل يديه ، فجاءت في يده سمكة صغيرة ، وكلمته السمكة، وطلبت منه أن ينقذها من الهلاك،ووعدته جزاءً عليه أن تنقذه في المستقبل من خطر عظيم ، وهو طوفان عارم سيجرف جميع المخلوقات،فحفظ مانو السمكة في وعاء ولما كبرت السمكة أخبرت مانو عن السنة التي سيحدث فيها الطوفان،وأشارت عليه أن يصنع سفينة كبيرة ، ويدخل فيها عند طغيان الماء ، وصنع مانو السفينة وكبرت السمكة فألقاها في البحر، وحدث الطوفان، وعندما دخل مانو السفينة ، عامت اليه السمكة ، فربط السفينة بقرن على رأسها ، فسحبتها الى الجبال الشمالية ، وربط مانو السفينة بشجرة ، وعندما تراجع الماء وخف بقي مانو وحيداً .

وانهمك مانو في العبادة ، وكان يتمنى أن يخلف في الأرض ، فقدم ضحية ، وبعد سنة خلقت الضحية امرأة ، فأخبرت المرأة مانو أنها ابنته لأنها خلقت من ضحيته وقالت : أنا بركة استعملني في القربان تصبح غنياً في الأخلاف والمواشي ،واستمر مانو في العبادة والمجاهدة مع المرأة ، فأنتجا هذه الذرية ، فهي ذرية مانو ، وأي نعمة طلبها مانو بواسطتها أعطيت له » . والملاحظات على الأسطورة الهندية ، أنها تتشابه في بعض عناصرها مع أساطير بلاد الرافدين، كحدوث طوفان عارم مدمر لكل مظاهر الحياة والبشر ، ثم بناء سفينة كبيرة من قبل شخص يعلم مسبقاً بحدوث

الطوفان ، واستواء السفينة فوق جبل مرتفع ،والبشر الحاليين من سلالة ذلك الشخص الناجي وهو رجل عابد صالح تقي ٠

لكنها تختلف عن أساطير بلاد الرافدين بثلاثة نقاط وهي :

١ ـ السمكة تخبر مانو بالطوفان ، (حوار بين انسان وحيوان) ، وفي سياق الأسطورة لا توجد غرابة من هذا الحوار ولكن تدل على مرحلة بدائية في العقيدة الدينية ٠

٢ ـ كان الطوفان عارماً ، والسمكة جرت السفينةنحو الشمال ، (خيال بدائي) وربط مانو السفينة بشجرة ، وهذا يدل أن الماء لم يغط كل القمم ٠ ولكنه أباد البشرية بكاملها ٠

٣ ـ خلق المرأة من ضحية مانو ، ثم تناسل البشرية منهما ، عودة الى قصة خلق الانسان الأول (التي تشبه قصة آدم الى حد ما) بينما في أساطير بلاد الرافدين كان الناجي يحمل زوجته وأهله في السفينة ٠

وهذا الاختلاف ، يوحي بعدم وجود ارتباط بين هذه الأسطورة وأساطير الطوفان الأخرى ، ولكن فكرة الطوفان قد تكون عامة ، لأن ظاهرةالطوفان تحدث في أمكنة مختلفة فتسبب كوارث ، وسبيل النجاة هو صناعة السفينة والتوجه نحوالجبال ٠

☐ الطوفان في التوراة(١٠) :

روت التوراة في سفر التكوين في الاصحاح السادس والسابع والثامن قصة الطوفان ، فأسهبت في سرد الأحداث ، وبينت الأسباب والنتائج ،ورواية التوراة فيها عناصر مشابهة للعناصر الموجودة في أساطير بلاد ما بين النهرين ، وتختلفعنها في جوانب أخرى ، وقد أثرت هذه الرواية في كافة أتباع الأديان الثلاثة : الموسوية والمسيحية ،والاسلام ، لذلك سأنقل هنا النص الكامل للاصحاحات الثلاثة ، مع التعليق المناسب ٠

☐ الاصحاح السادس :

١ ـ ولما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الأرضوولد لهم بنات ٠

٢ ـ رأى بنو الله بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لهن نساء من جميع من اختاروا ٠

٣ ـ فقال الرب لا تحل روحي على الانسان أبداً لأنه جسد وتكون أيامه مئة وعشرين سنة ٠

٤ ـ وكان على الأرض جبابرة في تلك الأيام وأيضاً بعد أن دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً أولئك هم الجبابرة المذكورون منذ الدهر ٠

٥ ـ ورأى الرب أن شر الناس قد كثر على الأرض ، وكان كل تصور وأفكار قلوبهم انما هو شر في جميع الأيام ٠

٦ ـ فندم الرب أنه عمل الانسان على الأرض وتأسف من قلبه ٠

٧ ـ فقال الرب أمحو الانسان الذي خلقت عن وجه الأرض ، الانسان مع البهائم والدبابات وطير السماء لأني ندمت على خلقي لهم ٠

٨ ـ أما نوح فنال حظوة في عيني الرب ٠

٩ ـ وهؤلاء مواليد نوح ٠ كان نوح رجلاً براً كاملاً في أجياله وسلك نوح مع الله ٠

١٠ـ وولد نوح ثلاثة بنين ساماً وحاماً ويافثاً ٠

١١ـ وفسدت الأرض أمام الله وملئت جوراً ٠

١٢ـ ورأى الله الأرض فاذا هي قد فسدت لأن كل جسد قد أفسد طريقه عليها ٠

١٣ـ فقال الله لنوح قد دنا أجل كل بشر بين يديّ ، فقد امتلأت الأرض من أيديهم جوراً فهاءنذا مهلكهم مع الأرض ٠

١٤ـ اصنع لك تابوتاً من خشب قطراني، واجعله مساكن واطله من داخل ومن خارج بالقار ٠

١٥ـ كذا تصنعه ثلاث مائة ذراع طوله ، وخمسون ذراعاً عرضه وثلاثون ذراعاً سمكه ٠

١٦ـ وتجعل طاقاً للتابوت والى حد ذراع تكمله من فوق ، واجعل باب التابوت في جانبه ومساكن سفلى وثواني وثوالث تصنعه ٠

١٧ـ وهاءنذا آتٍ بطوفان مياه على الأرض لأهلك كل جسدٍ فيه روح حياة من تحت السماء ، وكل ما في الأرض يهلك ٠

١٨ـ وأقيم عهدي معك فتدخل التابوت أنت وبنوك وامرأتك ونسوة بنيك معك ٠

١٩ـ ومن كل حي من كل ذي جسدٍ اثنين ، من كل تدخل التابوت لتحيا معك ذكراً وأنثى تكون ٠

٢٠ـ من الطير بأصنافها ومن البهائم بأصنافها ومن جميع دبابات الأرض بأصنافها يدخل اليك اثنان من كل لتحيا ٠

٢١ـ وأنتَ فخذ لك من كل طعام يؤكل وضمه اليك فيكون لك ولهم مأكلاً ٠

٢٢ـ فعمل نوح بحسب كل ما أمره الله به هكذا فعل ٠

في هذا الاصحاح يمكن تحديد النقاط الأساسية التالية :

١ ـ ازدياد شرور الناس على الأرض ، وندم الرب على خلقه لهم فقرر محو البشر والبهائم والطيور والدبابات بطوفان مياه ٠

٢ ـ نوح رجل صالح نال حظوة في عيني الرب ، فيخبره الله أن يصنع تابوتاً (سفينة) ويحدد له مقاساتها ، الطول والعرض والعمق (السمك) وطوابقها (مساكنها) أي حدد الله لنوح حجمها الاجمالي ٠ وصنعها نوح كما أمره الله ٠

٣ ـ حدد الله لنوح من يدخل معه ، الزوجة والأولاد الثلاثة سام وحام ويافث وزوجاتهم ، فركاب السفينة من البشر ثمانية فقط حسب رواية التوراة •

٤ ـ أمر الله نوحاً أن يدخل من كل ذي روح اثنين ذكراً وأنثى ، وطلب منه تزويد السفينة بالمؤونة (الطعـام) له وللأحيـاء التي سيحملها في السفينة •

☐ الاصحاح السابـع :

١ ـ وقال الله لنوح ادخل التابوت أنت وأهلك فانى ايـاك رأيت باراً امامي في هـذا الجيـل •

٢ ـ وخذ من جميع البهائم الطاهرة سبعة سبعة ذكوراً واناثا ، ومـن البهائم التي ليست طاهـرة اثنين ذكراً وأنثى •

٣ ـ وخذ أيضاً من طير السماء سبعة سبعة ذكوراً واناثا ليحيا نسلها على وجه كل الأرض •

٤ ـ فانني بعد سبعة أيام ممطر على الأرض أربعـين يوماً وأربعـين ليلة ، وماح كل قائم مما صنعته على وجه الأرض •

٥ ـ فعمل نوح بحسب كـل ما أمره الرب به •

٦ ـ وكان نوح ابن ست مائة سنة حين كان ماء الطوفان على الأرض •

٧ ـ ودخل نوح التابوت هو وبنوه ونسوة بنيه معه من ماء الطوفان •

٨ ـ ومن البهائم الطاهرة ومن البهائم التي ليست بطاهرة ومن الطير وجميع ما يدب على الأرض •

٩ ـ دخل التابوت اثنان اثنان الى نوح ذكوراً واناثا كما أمر الله نوحـاً •

١٠ ـ وبعد سبعة أيام كانت مياه الطوفان على الأرض •

١١ ـ في السنة الست مئة من عمر نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر منه ، في ذلك اليوم تفجرت عيون الغمر العظيم وتفتحت كوى السماء •

١٢ ـ وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة •

١٣ ـ في ذلك اليوم نفسه دخل نوح التابوت هو وسام وحام ويافث بنوه وامرأة نوح وثلاث نسوة بنيـه معهـم •

١٤ ـ هم وجميع الوحوش بأصنافها ، وجميع البهائم بأصنافها من كل طائر وكل ذي جناح •

١٥ ـ ودخلت التابوت الى نوح اثنين اثنين من كل ذي جسد فيه روح حيـاة •

١٦ ـ والداخلون دخلوا ذكوراً واناثاً من كل ذي جسد كما أمره الله وأغلق الرب عليـه •

١٧ ـ وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض ، فكثر المـاء وحمل التابوت فارتفع عن الأرض •

١٨ـ وكثرت المياه جداً وتعاظمت على الأرض فسار التابوت على وجه الماء ٠

١٩ـ وكثرت المياه جداً جداً فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت السماء كلها ٠

٢٠ـ وعلت المياه خمسة عشرة ذراعاً على الأرض وتغطت الجبال ٠

٢١ـ فهلك كل ذي جسد يدب على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش وجميع الزحافات التي تزحف على الأرض والناس كافة ٠

٢٢ـ وكل من في أنفه نسمة حياة من كل من في اليبس ماتوا ٠

٢٣ـ ومحا الله كل قائم كان على وجه الأرض من الناس والدبابات وطير السماء، فانمحت من الأرض وبقي نوح ومن معه في التابوت فقط ٠

٢٤ـ وتعاظمت المياه على الأرض مئة وخمسين يوماً ٠

وفي هذا الاصحاح تكرار لبعض ما ورد في الاصحاح السادس ، ويمكن تحديد بعض النقاط الاساسية فيه بما يلي :

١ ـ حدد الله لنوح موعد ابتداء الطوفان ، وهو اليوم السابع عشر ، من الشهر الثاني من السنة ست مائة من عمر نوح ، وأبلغه قبل سبعة أيام من بدء المطر ، وأن المطر سيدوم أربعين يوماً وأربعين ليلة ، فعظم الماء ، واستمر تعاظم الماء مئة وخمسين يوماً (ربما نتيجة فيضانات آتية من مكان بعيد) ٠

٢ ـ غطت المياه قمم الجبال الشامخة ، وارتفعت على الأرض خمسة عشر ذراعاً ، ولم يحدد النص ارتفاعها فوق قمم الجبال ، ولكن يفهم أن كامل اليابسة غمرت بالمياه، « وارتفاع الماء خمسة عشر ذراعاً غير كافٍ لتغطية اي تل عادي في سهل منبسط » ٠

٣ ـ أهلك الطوفان جميع الأحياء على اليابسة، وهذا يفيد أن الأحياء الحالية هي من سلالة ما حمله نوح في السفينة ٠

☐ الاصحاح الثامن :

١ ـ وذكر الله نوحاً وجميع الوحوش والبهائم التي معه في التابوت ، فأرسل الله ريحاً على الأرض فتناقصت المياه ٠

٢ ـ وانسدت عيون الغمر وكوى السماء واحتبس المطر من السماء ٠

٣ ـ وكانت المياه تتراجع على الأرض كلما مرت وعادت ونقصت المياه بعد مائة وخمسين يوماً ٠

٤ ـ واستقر التابوت في الشهر السابع في اليوم السابع عشر منه على جبال آرارات ٠

٥ ـ وكانت المياه كلما مرت نقصت الى الشهر العاشر وفي أول يوم منه ظهرت رؤوس الجبال ٠

٦ ـ وكان بعد أربعين يوماً أن فتح نوح كوة التابوت التي صنعها ٠

٧ ـ وأطلق الغراب فخرج وجعل يتردد الى أن جفت المياه عن الأرض ٠

٨ ـ ثم أطلق الحمامة من عنده لينظر هل غاصت المياه على وجه الأرض ٠

٩ ـ فلم تجد الحمامة مستقراً لرجلها فرجعت اليه، الى التابوت اذ كانت المياه على وجه الأرض كلها ، فمدّ يده فأخذها وأدخلها اليه الى التابوت ٠

١٠ـ ولبث أيضاً سبعة أيام أخر وعاد فأطلق الحمامة من التابوت ٠

١١ـ فعادت اليه الحمامة وقت العشاء وفي فيها ورقة زيتون خضراء فعلم نوح أن المياه قد جفّت عن الأرض ٠

١٢ـ ولبث أيضاً سبعة أيام أخر ثم أطلقها فلم تعد ترجع اليه أيضاً ٠

١٣ـ وكان في سنة احدى وست مئة في اليوم الأول من الشهر الأول أن جفت المياه عن الأرض ، فرفع نوح غطاء التابوت ونظر فاذا وجه الأرض قد نشف ٠

١٤ـ وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين منه جفّت الأرض ٠

١٥ـ فخاطب الله نوحاً قائلاً :

١٦ـ أخرج من التابوت أنت وامرأتك وبنوك ونسوة بنيك معك ٠

١٧ـ وجميع الوحوش التي معك من كل ذي جسد من الطير والبهائم وسائر الدبيب الساعي على الأرض أخرجهن معك ليتوالدن في الأرض وينمون ويكثرن عليها ٠

١٨ـ فخرج نوح وبنوه وامرأته ونسوة بنيه معه ٠

١٩ـ وجميع الوحوش والدبابات والطيور وكل ما يدب على الأرض بأصنافها خرجت من التابوت٠

٢٠ـ وبنى نوح مذبحاً للرب وأخذ من جميع البهائم الطاهرة ، ومن جميع الطير الطاهرة ، فأصعد محرقات على المذبح ٠

٢١ـ فتنسم الرب رائحة الرضى وقال الرب في نفسه لا أعيد لعن الأرض أيضاً بسبب الانسان ، بما أن تصور قلب الانسان شرير منذ حداثته ، ولا أعود أهلك كل حي كما صنعت ٠

٢٢ـ وأبداً ما دامت الأرض فالزرع والحصاد والبرد والحر والصيف والشتاء والنهار والليل لا تبطل ٠

وفي الاصحاح التاسع ، تشير الآيات الى رضى الله على نوح وبنيه ، وعهد الأمان بعدم انقراض الحياة على الأرض ٠

في الاصحاح الثامن وصف لتراجع المياه واستقرار السفينة (التابوت) على جبال آرارات ووصف لاطلاق نوح الطيور للتأكد من انحسار الماء فأطلق الغراب ثم أطلق الحمامة مرتين٠ ودام الطوفان أكثر من سنة على الأرض منذ ابتداء المطر وحتى جفاف الأرض ٠

ويقدم نوح ذبائح طاهرة للرب فيتنسم رائحتها بالرضى ، ويتعهد بعدم لعن الأرض وتدمير الحياة عليها ٠

رواية التوراة لقصة الطوفان تقعنا في أجواء أساطير الطوفان البابلية وبشكل خاص ملحمة جلجامش ، ويمكن الاشارة الى بعض العناصر المشتركة بدرجات قريبة من التطابق :

أولاً : سبب الطوفان : تكاثر البشر ، وازدياد شرورهم وازعاجهم للآلهة (في الأساطير) وفي التوراة نفس الأسباب مع ندم الرب على خلقه لهم ، والتوراة تقر بالتوحيد (إله واحد) ٠

ثانياً : صاحب السفينة : رجل صالح ، تختاره الآلهة ، وتأمره ببناء السفينة لينجو هو وأهله واقرباؤه فقط (في الأساطير) ٠ وفي التوراة الرجل الصالح (نوح) يأمره الله ببناء السفينة لينجو بنفسه وأهله فقط ٠

ثالثاً : السفينة : يحدد الله أبعادها في بعض الأساطير ، كما في ملحمة جلجامش ، والتوراة فيها تحديد لأبعاد السفينة ٠

رابعاً : مدة الطوفان : حددت الأساطير مدة الطوفان بالأيام ، في السومرية سبعة أيام بلياليها ، وفي البابلية ستة أيام بلياليها ، وفي اليونانية تسعة أيام بلياليها ، وفي التوراة أربعين يوماً وأربعين ليلة مطر ، ودام الطوفان أكثر من سنة ٠ والتشابه ليس في التحديد بل في تعيين الزمن (الهدف من التوقيت) ٠

خامساً : الطيور للاستطلاع : أطلق أوتـنابشتيم بعد استواء السفينة على جبل نصير ، حمامة ــ ثم سنونو ــ ثم غراباً ، ثلاثة طيور ، وأطلق نوح ، غراباً ثم حمامة ثلاثة مرات ٠

وانوه أن هذا التشابه في العناصر بين أساطير الطوفان ، ورواية التوراة ، لا ينفي حقيقة الطوفان بمقدار ما يؤكدها ، ولكن كتبة التوراة يبدو أنهم تأثروا بروايات الأساطير فأرادوا اعطاء مبررات ودوافع أكثر منطقية للطوفان ، ووصف حوادثه ونتائجه بخلفية الايمان بإله واحد ٠

□ قصة الطوفان في القرآن الكريم :

ذكرت قصة نوح في عدة سور بشيء من التفصيل في الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء والقمر وسورة نوح ، وتختلف الآيات بالألفاظ بحسب ما تكون الغاية من ايراد الآيات والمراد من معناها ، سنكتفي بايراد ما يفيد هذا البحث عن الطوفان ٠ جاء في سورة نوح :

« إنا أرسلنا نوحاً الى قومه أن انذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم (١) قال يا قوم إني لكم نذير مبين (٢) أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون (٣) يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون (٤) قال ربي إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً (٥) فلم يزدهم دعائي إلا فراراً (٦) وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً (٧) ثم إني دعوتهم جهاراً (٨) ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً (٩) فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً (١٠) يرسل السماء عليكم مدراراً (١١)

ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا (١٢) ما لكم لا ترجون لله وقارا (١٣) وقد خلقكم أطوارا (١٤) ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا (١٥) وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجا (١٦) والله انبتكم من الأرض نباتا (١٧) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا (١٨) والله جعل لكم الأرض بساطا (١٩) لتسلكوا منها سبلاً فجاجا (٢٠) قال نوح ربِّ إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا (٢١) ومكروا مكراً كبارا (٢٢) وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسْرا (٢٣) وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالا (٢٤) مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا (٢٥) وقال نوح ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا (٢٦) إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا (٢٧) ربِّ اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا (٢٨) » .

نلاحظ من سورة نوح ، أن الله اختاره رسولاً لينذر قومه قبل أن يأتيهم العذاب الأليم فيؤدي نوح رسالته ، ويبذل كل ما بوسعه لهدايتهم ،يقدم لهم الأدلة والبراهين الكونية على وحدانية الله ليتركوا عبادة الآلهة الوثنية ، فلم يستجيبوا له ،فيطلب نوح من ربه أن لا يذر على الأرض من الكافرين ديارا ، ويستجيب الله لدعائه ، ونوح عليه السلام في القرآن الكريم كما ذكرنا مرسل من الله بينما في التوراة رجل صالح لم يكلف بالرسالة ، فالله في التوراة يقرر هلاك البشرية والحياة على الأرض ، بينما في القرآن لا يتخذ الله هذا الموقف الا بعد انذارهم وعدم ايمانهم واستكبارهم استكبارا .

وفي سورة هود حوار بين نوح وقومه ، يريد هدايتهم ولكنهم في ضلالهم يعمهون فيقص القرآن الكريم: « **وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون (٣٦) واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون (٣٧) ويصنع الفلك وكلما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون (٣٨) فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلُّ عليه عذاب مقيم (٣٩) حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومَنْ آمن وما آمن معه إلا قليل (٤٠) قال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرْساها إنَّ ربي لغفور رحيم (٤١) وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين (٤٢) قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين (٤٣) وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين (٤٤) ونادى نوح ربه فقال ربِّ إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين (٤٥) قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين (٤٦) قال ربي إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلاَّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين (٤٧) قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم (٤٨) .**

في الآيات السابقة من سورة هود ، تأكيد أن صناعة الفلك كان بأمر من الله ووحي منه ، وهذا يتفق من نص التوراة في المضمون ، كما هناك اتفاق بين حمل الأحياء بالأزواج، وان كانت التوراة

أكثر تفصيلاً للأصناف ، ورست سفينة نوح(التابوت) على جبل آرارات بينما استوت سفينة نوح في القرآن على الجودي ، وجبل آرارات يقع حالياً في أرمينيا بينما الجودي شمال العراق . ولا يتسع المجال لايراد كافة الآيات التي تناولت رسالة نوح والطوفان ، ومن مجملها نخلص الى الارشادات التالية :

أولاً : لا يوجد قرار إلهي مسبق بتدمير الحياة على الأرض كما ورد في الأساطير والتوراة .

ثانياً : الرجل الصالح المختار هو نوح ، وهو رسول الى قومه قبل قرار الطوفان ، بينما كان اختيار الرجل الصالح في الأساطير بعد قرار الطوفان .

ثالثاً : تفاصيل الحدث غير واردة في القرآن ، كما هي مفصلة في التوراة بالأيام والأشهروالأرقام فحجم الفلك في القرآن غير محدد ولكن وصف (بالفلك المشحون) بينما في التوراة وبعض الأساطير ترد أرقام تثير ملابسات عديدة .

رابعاً : لم يفصل القرآن في مدة الطوفان وارتفاع المياه بالأذرع ، ولكن وصف أمواج الطوفان كالجبال ، كما لم يشر الى اطلاق الطيور للاستطلاع .

خامساً : حمل نوح في السفينة من كلٍّ زوجين اثنين لاستمرار التناسل، وحمل أهله باستثناء **زوجته(١١)** التي لم تؤمن ، وهذا يخالف ما ورد في التوراة وبعض الأساطير .

سادساً : تحدد التوراة أولاد نوح ، سام وحام ويافث ، ولم يحدد القرآن ذلك ولكن يفهم من آيات مختلفة أن ذريته هم الباقين .

□ هل الطوفان حقيقة ؟

لا مجال لانكار الطوفان ، اذ أجمعت الأساطير والكتب المقدسة على وقوع هذا الحدث الكوني . واختلاف الدوافع والغايات والنتائج في الروايات المختلفة عن الطوفان ، ليس دليلاً على عدم وقوع الطوفان . فأي حدث بهذا الحجم تقادم عليه العهد سيكون عرضة للتأويل والتحريف . وقد فصلت التوراة في قصة الطوفان فلم تترك مجالاً للتأويل ،بغض النظر عن مصداقية المواصفات والأرقام التي وردت عن السفينة ومدة الطوفان، وهل ذلك ممكن من الناحية العملية ؟.

أما القرآن الكريم فقص على محمد (ﷺ) قصة نوح « **تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** » .

فلم يوضح أين كان نوح ؟ ومن هم قومه ؟ ومتى كان ذلك ؟ وكم بقي الطوفان ؟ وهل كان عاماً على كامل الأرض ؟ واستواء السفينة (الفلك)على الجودي لا يعني بالضرورة الجبل المسمى بهذا الاسم حالياً ، لذلك كان أمام المفسرين والمؤرخين المسلمين ، مجال واسع للتأويل والاختلاف بما لا يتعارض مع المراد بالبيان الالهي .

فأخذوا من التوراة ، ومن روايات أشخاص لا علم لهم بما سلف ، بدليل أن الرسول (ﷺ) لم يعرف قصة نوح الا بالوحي فكيف عرف أولئك تفاصيل الأحداث ؟

وأذكر على سبيل المثال ما ورد في تفسير ابن كثير عن أبعاد الفلك : « وقال قتادة كان طولها ثلاث مائة ذراع في عرض خمسين ذراع ، وعن الحسن طولها ستمائة ذراع، وعرضها ثلاث مائة، وعنه مع ابن عباس طولها ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة ، وقيل طولها ألفا ذراع وعرضها مائة ذراع فالله أعلم ، وقالوا كلهم كان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع »(١٢) .

وهناك تباين في الآراء حول تخصيص الطوابق الثلاثة لأصناف الأحياء ، ففي رواية ابن كثير « الطبقة السفلى للدواب والوحوش ، والوسطى للانس ، والعليا للطيور »(١٣) .

وفي رواية ابن الأثير « وجعل نوح الطير في الطبق الأسفل من السفينة ، وجعل الوحش في الطبق الأوسط ، وركب هو ومن معه من بني آدم في الطبق الأعلى »(١٤) .

وفي رواية اليعقوبي « فصعد هو (يقصد نوح) وولده الى مغارة الكنز فاحتملوا جسد آدم فوضعوه في وسط البيت الأعلى في السفينة يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من آذار وأدخل الطير في البيت الأوسط وأدخل الدواب والسباع البيت الأسفل وأطبقها حين غابت الشمس »(١٥) .

ويتضح التباين أكثر بالمقارنة التالية :

	الطابق السفلي	الطابق الأوسط	الطابق العلوي
١ ـ رواية ابن كثير :	الوحوش	الأنس	الطيور
٢ ـ رواية ابن الأثير :	الطيور	الوحوش	الأنس
٣ ـ رواية اليعقوبي :	الوحوش	الطيور	الأنس

وقد لجأ المفسرون الى روايات مختلفة ، بعضها نسب الى الرسول (ﷺ) ، ولا أظن أن الرسول (ﷺ) فصل في القصص حيث أجمل القرآن ولم يعرفها من قبل ، وأذكر هنا قصة أم الصبي « روى الامام أبو جعفر بن جرير والحبر أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيرهما من حديث يعقوب بن موسى الزمعي عن قائد مولى عبيد الله بن أبي رافع بن ابراهيم بن عبدالرحمن بن أبي ربيعة أخبره أن عائشة زوج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أخبرته أن النبي (ﷺ) قال : « لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي » قال رسول الله (ﷺ): « كان نوح (عليه السلام) مكث في قومه ألف سنة الا خمسين عاماً ، وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهبت كل مذهب ، ثم قطعها ، ثم جعلها سفينة ، ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون تعمل سفينة في البر فكيف تجري ؟ قال : سوف تعلمون . فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك ، خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً ، فخرجت الى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا ، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي » . وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد روى كعب الأحبار ومجاهد ابن جبير قصة هذا الصبي وأمه بنحو من هذا »(١٦) .

لو صحت هذه الرواية في مضمونها فكيف تتمكن هذه المرأة العزلاء من صعود الجبل في جو عاصف ماطر ؟ وكيف تمكنت من الثبات على قمة الجبل حتى وصل الماء الى رقبتها ؟ روايات كثيرة من هذا القبيل شوهت حقيقة الطوفان ، وجعلته أقرب الى الأساطير ، وترسخت في أذهان عامة الناس ، وأصبحت في حكم المسلمات التي لا تدحض ببرهان ٠

« قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي ، حدثنا عبدالله بن صالح ، كاتب الليث ، حدثني الليث ، حدثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم ، عن أبيه أن رسول الله (ﷺ) قال : (لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه وكيف تطمئن المواشي ومعها الأسد ؟ فسلط الله عليه الحمى فكانت أول حمى نزلت في الأرض، ثم شكوا الفارة فقالوا الفوسيقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله الى الأسد ، فعطس فخرجت الهرة منه ، فتخبأت الفارة منها »(١٧) ٠

والرأي الشائع عند عامة الناس عن طوفان نوح هو جماع ما ورد في الأساطير والتوراة وروايات المفسرين والمؤرخين ، وبقيت الحقيقة غائبة ، وملخص الرأي الشائع :

أولاً : طوفان نوح عمَّ كامل الكرة الأرضية ، قبل ستة آلاف سنة تقريباً ، فأهلك كل البشر والأحياء البرية ، باستثناء ما حمله نوح في السفينة ، فالبشر الحاليين هم من سلالة نوح « أبو البشر الثاني » ٠

ثانياً : رست سفينة نوح على جبال آرارات في اعتقاد أهل الكتاب ، وعلى الجودي في اعتقاد المسلمين ، والموقعان هما في شمال بلاد الرافدين من الناحية الجغرافية ٠ فهل هذا الرأي صحيح ؟

الاجابة تقودنا الى مناقشة الرأي على ضوء الواقع ، والاكتشافات الأثرية التي تدل على حدوث الطوفان أو عدم حدوثه ٠

أولاً ــ هل كان الطوفان عاماً ؟ أم خاصاً بموقع جغرافي محدد ؟

من الناحية العلمية وضمن ما ورد في سياق نصوص الأساطير ، والكتب المقدسة ، لا يمكن أن يكون الطوفان عاماً لكل اليابسة في الكرة الأرضية٠ فمن أين جاءت فكرة التعميم ؟ ربما لاحظ الانسان في ذلك العصر كما نلاحظ اليوم وجود مستحاثات حيوانية بحرية ضمن صخور الجبال العالية كجبال طوروس وجبال آرارات وجبال الألب وجبال هيملايا ٠ ولا يمكن تعليل وجود هذه المستحاثات المائية في تلك الصخور الا بافتراض طغيان الماء عليها ٠ و الحقيقة من يدرس الجيولوجيا (علم الأرض) ، يعلم أن جغرافية الأرض تبدلت كثيراً في الأحقاب السابقة قبل ملايين السنين ، فما نراه اليوم يابسة كان قعراً لبحر لجي عميق والشاهد على ذلك طبيعة الرسوبيات وما تحمله من بقايا أحياء بحرية ، فرسوبيات الشاطيء تختلف عن رسوبيات الرصيف القاري ورسوبيات المنحدر القاري ، كما لرسوبيات الأعماق طبيعة معينة ٠ وعلى سبيل المثال كشفت التحريات الجيولوجية أن رسوبيات جبال طوروس وجبال آرارات كانت متوضعة في قعر بحر عميق قبل مائتي مليون سنة في الحقب الثاني ، في العصر الذي انتشرت فيه الزواحف الضخمة « الديناصورات »٠

ونتيجة الضغط الداخلي على قشرة الارض وتحرك الصفائح القارية تنشأ السلاسل الجبلية وهكذا نشأت السلاسل الجبلية المذكورة أعلاه ،ويقدر العلماء أن جبال آرارات انحسر عنها الماء قبل ستين مليون سنة نتيجة ارتفاع المنطقة ببطء وما زالت ترتفع • والبحر يتراجع للأماكن المنخفضة •

وفي بعض المناطق حدث ارتفاع اليابسة ثم انخفاضها ثم ارتفاعها ثانية ، فطغى عليها الماء مرتين كما يستدل على ذلك من رسوبياتها ، ولكن هذه الأحداث تتم بمقياس زمني جيولوجي يقدر بملايين السنين ، فلا يصح تعليل طوفان نوح بأنه أحد دورات المد البحري على اليابسة لأنه دام عدة أيام وعلى الأكثر سنة كما تروي التوراة ، وحدث قبل بضعة آلاف سنة وهذا لا تؤيده التحريات الجيولوجية •

وتؤكد النصوص الدينية على اهلاك كافة البشر باستثناء من كان في السفينة واهلاك كل الأحياء البحرية باستثناء ما حمله نوح في السفينة، ولا يستشف منها أن الطوفان عام فنوح كان يعيش في منطقة معينة (نفترض أنها في منطقة بلاد ما بين النهرين) ، فاذا كان قومه محصورين في تلك المنطقة فقط ، وهم كامل البشرية على الأرض ، ولا يوجد غيرهم في أوروبا وافريقيا وشرق آسيا ، فلماذا يعم الطوفان على تلك البلاد لاهلاك الأحياء البرية ؟

واذا افترضنا وجود بشر آخرين غير قوم نوح في مصر والصين وأوروبا وبلدان أخرى فلماذا تعم عليهم دعوة نوح بالهلاك ويغرقهم الله جميعاً ،والنص القرآني صريح : « **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** » •

ان طوفان نوح كان في منطقة محددة ، فأهلك قومه الذين لم يؤمنوا بدعوته ، وأمر الله له بحمل من كل زوجين اثنين من الحيوان لا يعني حمل كل الأنواع ، اذ يكفي أن يحمل ما دجنه الانسان ، كما يحدث حالياً عندما يرحل البدو من منطقة الى أخرى ينقلون معهم دوابهم وأنعامهم • ولا شك أن طوفان نوح كان عارماً شمل منطقة واسعة جداً ، لذلك ترك في نفوس الناجين وذاكرة الأجيال التالية أثراً لا ينمحي ، فظهر الحدث في الملاحم الأسطورية وأعطت التوراة بعداً جديداً للحدث ينسجم مع نفسية اليهود ورغبتهم في السيطرة على العالم • والقرآن الكريم أجمل الحدث ، فأكد الحقيقة ولم يؤكد التعميم •

فاذا كان الطوفان خاصاً بقوم نوح وطغى على المنطقة التي كان يعيش فيها •

☐ فاين حدث الطوفان ؟

الحضارة السومرية والبابلية كانتا في منطقة بلاد ما بين النهرين ، وترك الطوفان السابق أثراً بالغاً في وجدان الناجين ، والأجيال اللاحقة تلقت الخبر من الأسلاف فخلدت الحدث في الملاحم الأدبية الأسطورية • فالطوفان بحسب النصوص البابلية حدث في بلاد الرافدين ودمَّر مدينة (شوريباك) على نهر الفرات • وفي التوراة اشارات الى حدوث الطوفان في بلاد الرافدين أيضاً وذلك من خلال انتشار أولاد نوح (عليه السلام) وحفدائه بعد الطوفان ، وهبوط السفينة على جبال آرارات

تأكيد لحدوث الطوفان في هذه المنطقة ، فمنابع دجلة والفرات هي من الهضاب في أرمينيا وشمال شرق تركيا حاليا • وجبل الجودي يقع حالياً فيشمال العراق وهو جزء من بلاد ما بين النهرين •

فهل أثبتت التحريات الجيولوجية ، أو التنقيبات الأثرية حدوث الطوفان قبل ستة آلاف سنة ؟

☐ الحفريات الأثرية تثبت حدوث الطوفان(١٨) :

في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٢٥ـ١٩٣٠ قام العالم البريطاني ليونارد وولي — Leonard Woolley — وزوجته كاترين وولي — Katherine Woolley — بدراسة موقع (أور) - Ur القديمة فأجرى حفريات عديدة ،واكتشف بقايا آثار الأمم الغابرة التي تعاقبت على هذا الموقع ، وكل طبقة تمثل حقبة من الزمن ،ومرحلة قامت على أنقاض مرحلة أخرى ، وتحت هذه الأنقاض ظهرت طبقة رسوبية طينية نظيفة ،وهي لم تأخذ شكلاً طباقياً ، ومستواها أعلى من مستوى الأرض السبخة الأساسية المحيطة بها •وظل الحفر في هذه الطبقة مستمراً ، وعلى عمق أحد عشر قدماً في هذه الطبقة ، تم اكتشاف آثار وأنقاض وهياكل بشرية • وأثار هذا الاكتشاف العالم (وولي) وأمر بالحفر في اتجاهات مختلفةفتأكد أن هذه الطبقة الطينية تمتد على مساحات واسعة • وأسفلها طبقات من الأنقاض • وتساءلوولي من أين جاءت هذه الطبقة الطينية ؟

لاحظ وولي أن المستوى العلويللطبقة داكناللون ومكون من مواد مفككة، وأوسطها أفتح لوناً وأكثر تماسكاً ، وأسفلها قاتم ، ولا يتشكل هذاالوضع الا بتدفق ماء بمقادير هائلة •

لا شك أن مدينة أور وما يجاورها دفنت تحت هذه الرسوبيات نتيجة طوفان عارم ، واذا كانت سماكة الطبقة الطينية المكتشفة (١١) قدمافكم سيكون ارتفاع مد الطوفان ؟•

لا شك أنه يتجاوز هذا الرقم بكثير ، واذا علمنا أن أور ازدهرت في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد فان الطوفان الذي دمر أور القديمة يكونقد حدث قبل خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة ، فهل هو طوفان نوح المذكور في التوراة والقرآن ؟العلم عند الله •

ثانيا ـ اين استوت سفينة نوح ؟

في أساطير الطوفان وفي التوراة ، كانت السفينة ترسو على جبل ، ففي النص البابلي ورد اسم جبل نصير (حمرين) وفي النص اليونانيجبل (البرناس) وفي التوراة (جبال آرارات) ولم تحدد قمة معينة ، وفي القرآن الكريم لم يرد لفظالجبل ، واسم الجودي لا يعني جبلاً محدداً فهل رست السفينة فعلاً على قمة جبل شامخ ؟

واذا وصلت سفينة نوح كما تروي التوراةالى قمة آرارات الحالية فلا شك أن الماء غطى كامل الكرة الأرضية •

واستدل بعض المفسرين من محاورة نوح معابنه الذي لم يؤمن ، قبل أن يغرق ، عندما طلب من نوح أن يؤمن ويركب الفلك ، فقال الابنسآوي الى جبل يعصمني من الماء ، فرد نوح عليه

لا عاصم اليوم من أمر الله · استدلوا على أن الماءسيطغى على قمم الجبال بكاملها ، والآية القرآنية التي أوردت حوار نوح مع ابنه ، لا تعني أن الابن صعد فعلاً الى الجبل ، ونتصور الآن فلكاً مشحوناً بالمؤن والحيوانات وبعدد من البشر ، لا شك هو من الكبر يتجاوز حجوم المراكب التي كانت قبل ستة آلاف سنة ، تمخر الخلجان وشواطىء البحار ،هذا الفلك الكبير كيف سيتحرك وفي أي اتجاه اذا كان في جنوب العراق ؟

ان مياه الفيضانات في بلاد ما بين النهرين تتجه من الشمال حيث المرتفعات الجبلية الى الجنوب لتصب في الخليج العربي · واذا ترك هذا الفلك بدون توجيه ، سيتحرك باتجاه الجنوب بينما أكدت الأساطير والتوراة أن السفينة رست على الجبال الشمالية العالية ، قرب منابع الأنهار · من الطبيعي أن يتوجه الفلك بارادة الملاح باتجاه المنطقة الأكثر أماناً ، ولكن الطوفان معجزة إلهية، وبناء السفينة كان بوحي من الله ، فلا شك أنها استجري بأمر الله ورعايته · وترسو باسمه في المكان الذي قدره الله ، « **اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إنَّ ربي لغفور رحيم** » ــ هود ــ (٤١) · « **وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كُفِر * ولقد تركناها آيـة فهل من مدّكر** » ــ القمر (١٣ــ١٤ــ١٥) ·

ان اتجاه الطوفان في ضوء جغرافية المنطقة سيكون من الشمال الى الجنوب ، وتحركت السفينة من الجنوب الى الشمال ، فهل كان اتجاه العواصف من الجنوب الى الشمال ؟ أي جاءت الفيضانات من الشمال وتحركت أمواج الخليج العربي من الجنوب بفعل الأعاصير فالتقى الماء على أمر قد قُدر · وتتحرك السفينة في هذه الحالة بقوة دفع الرياح باتجاه الشمال · ولكن هل رست فعلاً على جبال آرارات ؟

ان دراسة صخور جبال آرارات والجودي لا تؤكد وجود لحقيات فيضانية قريبة العهد ، فهي رسوبيات تعود الى ملايين السنين · ويبقى احتمال التأويل وارداً ، من أن السفينة اتجهت من لجنوب، حيث كان يعيش نوح مع قومه في الأغوار في جنوب العراق ، الى الشمال بعد حدوث الطوفان الذي ارتفع عدة أمتار فغطى كامل المنطقة ، وأهلك كل حي يدب على الأرض ووصلت السفينة الى سلسلة الجبال الشمالية ، فرست هناك ونزل منها نوح ومن معه فاتخذوا من المرتفعات مقراً لهم ريثما تعود الأمور الى طبيعتها السابقة ، **وكان أمر الله مفعولا** ·

ترك هذا الحدث في ذاكرة الأجيال اللاحقة صورة معينة عن هذا الطوفان ، فقد أهلك الحياة على الأرض ، وعمّ اليابسة بكاملها ، وانسحب التعميم على قمم الجبال ، ولا شك أن الباحث يتساءل لماذا قدّر الله استواء السفينة على جبل شاهق ؟ فالجبال أقل صلاحية للسكن والاستقرار والزراعة وتربية الماشية ، وما دام الطوفان عقوبة إلهية ، والناجون من الطوفان يستحقون مكافأة على ايمانهم فكان الأولى أن ترسو السفينة بعد الطوفان في مكان خصب سهل منبسط · والله سبحانه الذي أوحى لنوح صناعة السفينة وقدر مجراها ومرساها لم يترك السفينة في مهب الأعاصير أو دوامات المياه لتستوي بالصدفة في مكان مرتفع ولينتظر نوح ومن معه في السفينة أياماً حتى تجف المياه ، والقرآن الكريم لم يقطع باستواء السفينة على جبل شامخ، وكما ذكرت لفظة الجودي لا تعني

جبــلاً محدداً ، لذلك يمكن فهم حقيقــة الطوفان بعيداً عن الأجواء الأسطورية. ولكن المنطق العلمي يفترض أن يلجأ الانسان في حوادث الطوفان الى الأماكن المرتفعة وهذا ما حدث فعلاً بالنسبة لطوفان نوح (عليه السلام) .

☐ فاين رست سفينة نـــوح ؟ وهــل تم العثور على آثارهــا ؟

قبل الاجابة عن هذين السؤالين ، أين يمكن البحث عن سفينة نوح وآثارها ؟

حددت التوراة جبال آرارات ، وذكر القرآن الجودي وأسطورة جلجامش حـــددت جبــل نصير (حمرين) والأسطورة اليونانيــة حـــددت جبــل (البرناس) . فأي المواقع مرشح للبحث والتنقيب؟

معظم الأبحاث تركزت على آرارات لأسباب عديــدة ، اما لاثبات حقيقــة الطوفان ، أو لنفي صحة الخبر الوارد في التوراة ، أو حباً في الاستطلاع والمغــامرة .

يقول : كريستيان هيرالد(١٩) « لم تذكر التوراة قمــة معينة بل اكتفت بالاشارة الى جبال آرارات، ويسلم الجميع بأن آرارات لم تكن تعني في ذلك الحين جبــلاً محدداً ، بل منطقة واسعة جــداً سميت فيما بعد بأرمينيا ، وهي تشمل أجزاءً من تركيا الحديثة وايران والعراق والاتحاد السوفيتي ومئات من القمم » ، وبما أن جبل آرارات ينتصب منعزلاً متشامخــاً الى ارتفــاع (٤٢٦٧) متراً في السهول في أطول منحدر متناسق في العــالم ، فان قمته لا بد أن تكون الأولى التي برزت فوق الماء في تلك المنطقة ، لذلك يعتقــد الأرمن أن السفينة استقرت عليه .

وأصبحت للجبل حرمة مقدسة لم يتجرأ أحد الصعود اليــه والبحث عــن السفينة ، من أهالي المنطقة . « وأول بعثة تسلقت جبل آرارات برئاسة الفرنسي فريدريك بارو عام ١٨٣٩ ، ولم يبحث عن السفينة ولم يجدها ، لكنــه ترك أثراً في علم طلقت عليه تسمية (علم أبحــاث سفينة نــوح) وبهذا انتهك (التابو) القديم الذي كان يحظر على الأهالي المحليين تسلق الجبل ومهد بذلك الدرب لاجراء الأبحاث اللاحقة »(٢٠) .

وفي عام ١٨٧٦ عثر اللورد برايس فوق حافة ناتئة من الجبل تبرز على ارتفاع (١٣) ألف قدم على قطعــة خشبية منحوتة يبلــغ طولهــا زهــاء أربعــة أقــدام .

وكثرت الروايات عن مغامرات المستكشفين، ولا يخلو بعضها من التأكيد على رؤية بقايا من سفينة نوح ولكن لم تقطع تلك الروايات الشك باليقين والأدلة الدامغــة .

« ان الشاهد الحسي الوحيد على وجــود الفلك هو قطــع خشبية وجــدها المتسلقون على الجبل وأكثر هذه القطع اثارة للجدل ، قطعة دكناء صنعت باليد وغدت متحجرة جزئياً ، وجدها فرنسي يدعى فرنان نافارا عام ١٩٥٥ وقــد تولى مختبر اسباني فحص خلاياها فحدد عمرها بنحو (٥٠٠٠) سنة وهو الزمن التقريبي لصنع الفلك . الا أن اختبــارين أجريا في مكانــين مختلفــين بالأشــعة الايزوتوبية (لعنصر الكربون ــ ١٤) وأحدهما في جامعة أمريكية والآخر في جامعة بريطـانية حــددا تاريخ خشبة نافارا بين (١٢٠٠) و (١٤٠٠) سنة فقط »(٢١) .

ويعلق العالم السوفيتي : ي. ا. ريزانوف مستشهداً بمضمون كتاب (أدوارد زيوس) الذي نشره عام ١٨٨٣ م بعنوان « وجه الأرض » الذيقارن فيه بـين ملحمة جلجامش الكلدانية ورواية التـوراة فيقـول : « والرواية الكلدانيـة تحصرالطوفان في حدود قليلة ومعقولة تمـاماً ، فالمطر يتساقط لمدة سبعة أيام فقط ، والمياه لا تغمر حتىجبـل (حمرين) الذي يبلغ ارتفاعه زهاء (٤٠٠) متر ، وتوقف السفينة عند جبل حمرين في الوقتالذي بلغ فيه الطوفان حده الأقصى يعطينا صورة عـن ارتفاع مستوى المياه • فهذا الجبـل يقع فيحدود منبسط ما بين النهرين ، ويكفي أن ترتفع المياه نحو (٥ـ١٠) أمتار فحسب لكي تغمر المياهالمنبسط بأسره باستثناء الجبل المذكور وقد خلص أدوارد زيوس الى استنتـاج مـؤداه أن المقصـودبالطوفان العظيم هو الفيضان المدمر الذي حدث في المجرى الأسفل لنهر الفرات والناجم عـن هبـوباعصار من الجنوب • لكن ما الواجب قوله بصدد رواية الكتاب المقدس القائلة أن سفينة نوح رستعند قمـة آرارات وأن حطام السفينة الأسطورية موجود فوق هذا الجبل ؟ ليس من العسير ملاحظةأن رواية الكتاب المقدس عن الطوفان تتسمبالمبالغة في وصف عواقب الظاهرة الطبيعية التي حدثت •فمثلاً ان فترة الطوفان استمرت عاماً كامـلاً • لقد نقل مدونو رواية الكتاب المقدس عن الطوفانمكان الأحداث ، رغبة منهم في تشديد عواقبه ، من جبـل حمرين غير المرتفع الى أعلى جبـل في آسياالصغرى أي آرارات »(٢٢) •

ويتابع زيزانوف قوله : « ان بحري قزوينوالأسود هما أقرب حوضين بحريين الى جبلآرارات وبلغت مياه حوض قزوين أعلى منسوب لها قبـل(١٠) آلاف سنة وآنذاك بلـغ منسوب ميـاه بحر قزوين (٤٦ـ٤٨) متراً مـن الارتفاع المطلـق ـ(حوالي ٧٥ متراً فـوق المستوى الحـالي لبحـر قزوين) • وبلغ الارتفاع نفسه منسوب المياه فيالبحر الأسود ، وبهـذا فلم يكن البحر يغمر على مدى المليـون عام الأخير جبـل آرارات ومنطقةالقفقاس بأسرها • وفي منطقة جبل آرارات وجدت رواسب بحرية لا يقل عمرها عـن /٢٠/ مليونعام ، وتكونت قبـل أن يكون وجود لجبل آرارات في الحقبة التاريخية المذكورة، فلا تتوافر المسوغاتاذن للبحث عـن سفينة نوح هنـاك • أما الألواح وحطام الأخشاب على قمـة آرارات ، فقد تكون موجودة هناك ، لكنها لم تحمل اليها مع الطوفان• اذ قد تكون بقايا منشآت عبادة للبشر القدامى ،نظراً لأن آرارات كان منـذ قـديم الزمان يحظى بتكريم خاص لدى الشعوب القاطنة حوله »(٢٣)•

أما بالنسبة للجودي (الجبل الحالي) فهناك روايات غير موثوقة ، عن عثور بعض المستكشفين على ألواح خشبية ومسامير كبير (دسر) قديمة جداًعلى قمة الجبـل •

☐ خلاصـة البحث :

طوفان نوح حقيقة لا مراء فيها ، أهلك قومنوح ، حدث ذلك في منطقة بلاد ما بـين النهرين ، وكان طوفاناً عارماً ، وما جاء في الأساطير والتوراةمبالغ فيه ولا ينسجم مع معطيات الواقع ، وقواعد المنطـق •

اعداد : محمد فيض‌الله الحامدي

هوامش البحث :

١ ـ د. نورالدين حاطوم وآخرون ـ موجز تاريخ الحضارة ـ الجزء الأول ـ مطبعة الكمال ـ ١٩٦٥ . الحضارة السومرية ـ ص (١٥٦) .

٢ ـ فراس سواح ـ مغامرة العقل الاولى ـ اتحاد الكتاب العرب ـ ١٩٧٦ (نصوص الأسطورة منقولة حرفياً من الكتاب) .

٣ ـ فراس شواح ـ المرجع السابق ـ ص (٢١١) .

٤ ـ فراس سواح ـ المرجع السابق ـ ص (٢١٢ ـ وما بعدها) .

٥ ـ فراس سواح ـ المرجع السابق ـ ص (٢٢٤) .

٦ ـ فراس سواح ـ المرجع السابق ـ من ملحمة اتراهيس ـ ص (٢٢٦ ـ وما بعدها) .

٧ ـ فراس سواح ـ المرجع السابق ـ ص (٢٣٨) ـ بشيء من التصرف .

٨ ـ أخذت المعلومات من ثلاثة مراجع ـ فراس سواح ـ مغامرة العقل الأولى ـ ص (٢٠١) ـ ومجلة المعرفة السورية ـ العدد ١٩٧ ـ تموز ١٩٧٨ بحث « أصداء عربية في الأسطورة الغربية ـ لعزالدين الخير ـ ومعم الأساطير اليونانية والرومانية ـ سهيل عثمان وعبدالرزاق الأصفر ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٨٢ » .

٩ ـ تاريخ الأدب الهندي ـ الجزء الاول ـ للسيد ابي النصر احمد الحسيني البهوبالي الهندي ـ عن قصص الأنبياء لعبدالوهاب النجار ـ ص (٤٦ ـ ٤٧) .

١٠ـ عن نسخة الكتاب المقدس ـ العهد العتيق ـ جمعيات الكتاب المقدس المتحدة ـ ساحة النجمة ـ بيروت ـ المطبعة الكاثوليكية ١٩٥١ .

١١ـ اختلف المفسرون حول نجاة زوجة نوح ، فمنهم من قال أنها ماتت قبل الطوفان ، ومنهم من قال ادخلها السفينة لأنها من أهله ، ومنهم من قال كانت له أكثر من زوجة ، والقرآن لم يفصل ذلك والأرجح ان زوجته الخائنة هلكت مع الهالكين .

١٢ـ ابن كثير ـ تفسير القرآن ـ الجزء الثاني ـ ص (٤٤٤) .

١٣ـ ابن كثير ـ تفسير القرآن ـ الجزء الثاني ـ ص (٤٤٤) .

١٤ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ الجزء الأول ـ ادارة الطباعة المنيرية ـ مصر ١٣٤٨ الصفحة (٤٠) .

١٥ـ اليعقوبي ـ تاريخ اليعقوبي ـ المجلد الأول ـ دار صادر ـ بيروت ـ ص (١٤) .

١٦ـ ابن كثير ـ تفسير القرآن ـ الجزء الثاني ـ ص (٤٤٧) .

١٧ـ ابن كثير ـ تفسير القرآن ـ الجزء الثاني ـ ص (٤٤٥) .

١٨ـ مجلة العربي ـ العدد (٢١٨) ـ كانون الثاني ١٩٧٧ ـ (أين سفينة نوح وما هي حكاية الطوفان) د. أمين محمود عبدالله .

١٩ـ مجلة المختار ـ العدد الصادر في شباط ـ ١٩٧٩ ـ مقال « سر فلك نوح » بقلم : كريستيان هيرالد .

٢٠ـ مجلة المواد السوفيتية ـ العدد (٩) ـ ١٩٩١ ـ بحث (البحث عن سفينة نوح) .

٢١ـ مجلة المختار ـ العدد السابق ـ شباط ١٩٧٩ .

٢٢ـ مجلة المواد السوفيتية ـ العدد (٩) ـ ١٩٩١ .

٢٣ـ مجلة المدار السوفيتية ـ العدد (٩) ـ ١٩٩١ .

☐ الأسماء الواردة في نصوص الأساطير – (الآلهة) :

١ – أنانا : من الآلهة السومرية .
٢ – انكي : إله الماء .
٣ – آنو : سيد السماء مقره السماء السابعة .
٤ – انليل : إله له السيادة على الأرض والجو .
٥ – اوتو : إله الشمس .
٦ – اينوجي : من الآلهة البابلية .
٧ – اريجال : إله العالم السفلي .
٨ – انوناكي : اسم جمع للآلهة .
٩ – حدد : إله البرق والرعد والصواعق والأمطار .
١٠ – إيا : إله له السيادة على البحار والمحيطات .
١١ – خانيش : مساعد الاله حدد . –
١٢ – زيوس : كبير آلهة اليونان – إله الظواهر الجوية كالبرق والرعد والمطر .
١٣ – شمش : إله الشمس .
١٤ – شوللات : مساعد الاله حدد .
١٥ – عشتار : إلهة نجم الزهرة .
١٦ – كرونوس : كبير الآلهة الرومانية – رمز الزمن عند اليونان .
١٧ – ننتو : الالهة الأم .
١٨ – ننورتا : إله الزراعة والري .
١٩ – نيسابا : إلهة القمح والحبوب .
٢٠ – ننجيكو : اسم آخر للاله (إيا) .
٢١ – هرمس : ابن الاله زيوس وحفيد أطلس .
٢٢ – بروميثوس : يعني النبي كانزيوس يخشى سطوته .

☐ أبطال الطوفان :

١ – زيو سودرا : (بطل الطوفان السومري) – ومعنى الاسم : الذي وضع يده على العمر المديد .
٢ – اوت – نابشيتم : (بطل الطوفان البابلي – الكلداني) – والاسم يعني (الذي رأى الحياة) .
٣ – اتراحيس : (بطل الطوفان البابلي أيضا) والاسم يعني (الواسع الحكمة) .
٤ – دوكاليون : (بطل الطوفان اليوناني) وهو ملك وابن بروميثوس النبي .
٥ – مانو : (بطل الطوفان الهندي) ابن الاله والجد الأسطوري للبشر .
٦ – نوح : في التوراة رجل صالح والاسم يعني (الراحة) .
٧ – نوح : في القرآن ، نبي ورسول الى قومه ، أيده الله بمعجزة الطوفان .

زراعة النخيل عند العرب *

مشروع دراسة مقارنة

فاضل السباعي

١ ـ النخلة العربية الأولى في الأندلس :

ذكر أحد الباحثين الغربيين في كتاب له عن الزراعة عند العرب ، أن تلك النخلة ـ التي تأملها يوماً أمير الأندلس « عبد الرحمن الداخل » في حديقة قصره ، وأنشد فيها أبياتاً من الشعر عبرت عن احساسه بالغربة ـ ربما تكون هي النخلة الأولى التي زُرعت في اسبانيا ، في القرن الثامن الميلادي (الثاني للهجرة) ، على يد الفاتحين العرب !

استوقفتني هذه الملاحظة ، التي أبداها المستعرب الكندي «أندريو واطسون» في كتابه « الابداع الزراعي في بدايات العالم الاسلامي »[1] ، وأذكرتني بالقصر الذي ابتناه الأمير الشاب عبد الرحمن بشمالي العاصمة قرطبة وسماه « قصر الرُّصافة » ، تأسياً بجده الخليفة الأموي الشامي «هشام بن عبد الملك» (حكمه : ١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) ، هذا الذي كان قد نقل سرير مُلكه من دمشق الى مدينة « الرُّصافة » قريباً من نهر الفرات .

ومما يسترعي انتباه المطلع على سيرة الأمير عبد الرحمن ـ الذي استطاع أن يتملك الأندلس عقيب سقوط الخلافة الأموية في المشرق على يد العباسيين سنة ١٣٢ هـ ـ انه بذل عناية خاصة بِبُنْيَة قصره الرُّصافة ، بأن نقل الى هذه

(*) قُدِّمَ هذا البحث في ندوة النخيل الثالثة ، التي نظمتها جامعة الملك فيصل بالمملكة العربية السعودية ، في المدة من ٢٤ ـ ٢٧ رجب ١٤١٣ هـ / ١٧ ـ ٢٠ كانون الثاني ١٩٩٣ م .

الجنان ــ على ما روى المقّري في « نفح الطيب ·· » ــ « غرائب الغروس ، وأكارم الشجر من كل ناحية ، وأودعها[هذه الجنان] ما كان استجلبه « يزيد » و « سَفَر » ، رسولاه الى الشام ، من النوى المختار والحبوب الغريبة ، حتى نمت ، في المدة القريبة ، أشجاراً مُعتمّة، أثمرت بغرائب من الفواكه ، انتشرت عما قريب بأرض الأندلس ··· »(٢) ·

والواقع أن العرب نقلوا الى الأندلس ، فيما نقلوا من المعارف والعلوم وفنون الحضارة المختلفة ، نباتات كثيرةلم يكن يعرفها قبلهم أهل اسبانيا · ذلك أن التجارب العميقة ، المتراكمة عندالأمم المفتوحة ، في مشرق الامبراطورية العربية الاسلامية ومغربها ، كانت قدأخذت في التفاعل ، وبالتالي في الانتقال شيئاً فشيئاً من قطر الى قطر ، يحملهامعهم أبناء الدين الجديد ·

ويعدد المؤرخ البريطاني في القرن العشرين « ويل ديورانت » بعض ما نقله العرب الى اسبانيا من النباتات ،التي منها : القطن ، وقصب السكر ، والأرز ، والموز ، والكرز ، والليمون ،والسفرجل ، والخوخ ···(٣) وهذه وغيرها لم تكن معروفة هنالك ، ومنهاتلك الشجرة ، البعيدة أثمارها ، الجم نفعها ، المديد عمرها : النخيل !

ولعلنا لا نسرف في القول اذا زعمناأن ثمار النخيل تأخذ عند العرب أهمية خاصة بسبب ما لها من القيمة الغذائية، وهي التي ظلت ، طوال حقب التاريخ، الغذاء الأول لأهل البوادي والواحات !

٢ ــ مصادر ومراجع :

في التراث العلمي الذي صنفه الأجداد ، كثير من الكتب والموسوعات التي عنيت بالفلاحة والزراعة والطب النباتي؛ وقد أبقى الزمان لنا على عدد منها ، احتوى خلاصة معارفهم في هذا الفن الهام،سنعول على ما تيسر لنا منها لدى إعدادنا هذا البحث ؛ وهذه المصادر هي ، حسب أزمان مؤلفيها :

١ ــ « **الفلاحة الرومية** » ،لقسطوس بن لوقا البعلبكي (توفي بعد ٣٠٠ هـ / ٩١٣ م) ، نقله الى العربية في حينه سرجس بن هلبا نُشر في سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦م) بالقاهرة، بعنوان« **الفلاحة اليونانية** » ·

٢ ـ « **المُقنِـع في الفلاحـة** » ، لأحمد بن محمـد بن حجـاج الاشـبيلي (كان حياً في سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢ م) • نشـر في سنة ١٩٨٢ بعمـان ، بتحقيـق صـلاح جرار وجاسـر أبو صفيـة ، في منشورات مجمع اللغة العربية الأردني •

٣ ـ «**زهر البستان ونزهة الأذهان**» لأبي عبدالله ، محمد بن مالك الطغْنَري، المعروف بالحاج الغرناطي (حياً ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م) ، ما زال مخطوطاً !(٤)

٤ ـ « **كتاب الفلاحة** » (**أو الفلاحة في الأرضـين**) ، لأبـي زكرياء ، يحيى بن محمد بن أحمـد ، المعروف بابـن العوّام الاشبيلي (من علماء القرن السادس الهجري/١٢ م) • نشر في سنة ١٨٠٢ بمدريد (في مجلدين ، مع ترجمته الى الاسـبانيـة) ، وأعيـد طبعـه فيهـا مصوراً ١٩٨٨ •

٥ ـ « **الجامـع لمفـردات الأدويـة والأغـذيـة** » ، لضياء الدين أبي محمد، عبدالله بن أحمد المالقي ، المعروف بابن البيطار (ت ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م) • طبع في مطبعـة بـولاق بالقاهـرة ١٢٩٠ هـ(١٨٧٥ م) •

٦ ـ « **مفتاح الراحة لأهل الفلاحة**» ، لمجهول (من أهل القرن الثامن الهجري / ١٤ م) • نشـر ١٩٨٤ بالكويت ، بتحقيق الدكتور محمد عيسى صالحيـة والدكتور إحسان العمد •

وذلك فضلاً عن مراجع ومعجمات وموسوعات ، قديمة وحديثة ، في الفلاحة والطب واللغة والتاريخ ومنها مراجـع اختصت بالنخيل والتمر • وسوف نشير الى كل منها لدى الرجوع إليه(٥) •

٣ ـ توصيفـه(٦) :

النخيـل (مؤنثـة) ، **والنخـل** (يدل على الجنس ، يُذكّر ويؤنث) ، شجر من الفصيلة النخلية Palmae . الاسـم العلمـي لـه : فينكـس داكتيليفـيرا Phoenix dactylifera . موطنـه الأول منطقة البحرين وشبه الجزيرة العربية • وقد كانت هذه الشجرة تُزرع ، قبـل حوالي أربعة آلاف سنة ، على شواطىء دجلة والفرات •

وجذع النخلة ساق اسطوانية خشبيةطويلة لا تتفرّع إلا نادراً ؛ وتنمو الى الأعلى باطراد ، بمعدل سنوي يراوح بين ٣٠ ـ ٩٠ سم ، حتى ليبلغ طول النخلة أحياناً ثلاثين متراً ، إذا واتتالظروف البيئية وعوامل الخدمة مقرونة بصنف النخيل الممتاز . وأما قطر الجذع فهو بين ٤٠ ـ ٩٠ سم .

ويُشبّه القدماء النخل بالانسان فيالتباين بطول القامة وبالجرم : فان منه الطويل الذي يسمو ثمانين ذراعاً ويسمى « الجبار » ! ومنه القصير الذي تناله الأيدي من قيام وقعود ! ومنه الغليظ ـ مثل الرجل السمين ـ الذي ما يحضنه إلا رجلان ! ومنه ما يُشبه الرجل النحيف(٧) !

ويتكون على جذع النخلة **غلاف**"ليفي خشن ، يقيه من الصدمات ، ويرد عنه أذى الحيوانات ، ويُضائل من وطأة الحر والبرد جميعاً .

وسَعَف النخلة (واحدتها : سَعَفة) ، تتجمع في رأسها دون ساقها،والسعفة ورقة مركبة ريشية كبيرة جداً (٣ ـ ٦أمتار) ، تُولّد النخل منها في السنة ما بين ١٠ ـ ٢٠ ، وتظل السَعَفتؤدي وظائفها طوال بضع سنين ، قبل أن تجف وتفقد لونها وتتدلى فيتعين إزالتها بالتقليم . وغالباً ما يكون في رأس النخلة من السعف الأخضر ما بين ٣٠ ـ ١٥٠ سعفة .

والخُوص (واحدتها : خُوصة) ،هو ورق السَعَفة المنتشر على جانبيها ، وعدده في كل سَعَفة ما بين ١٢٠ ـ ٢٤٠خوصة .

والجريد هو السَعَف الطويلة إذاجُردت من خوصها ، والجريدة من النخل ـ كما ورد في معاجم اللغة ـ كالقضيبمن الشجر(٨) .

ويسمى الجزء الأدنى من السَعَفة، أي قاعدتها ، **بالكَرَبة** (ج كَرَب) ، وهي عريضة وغليظة ، يبلغ طولها من ٢٥ ـ ٥٠ سم . وما يتبقى من أصول الكرب على الجذع ، بعد التقليم ، يسمى**الكرناف** (بضم الكاف أو كسرها) (واحدتها : كرنافة) .

ويُستفاد من جذوع النخيل ، الميتة،أخشاباً في البناء ، ومن أليافه تُصنع الحبال ، ومن خُوصه الزنابيل والقُفف، ومن أعواد جريده الأقفاص والكراسي، هذا الى أنه يُستوقد بالكَرَب والكُرناف(٩) .

ويقود النخلة ، في نموها الى الأعلى، ذلك البرعم الطرفي الوحيد في قلب رأس النخلة ، أو الغُرنوق الانتهائي- كما أطلق عليه مصطفى الشهابي -على حين سماه الأجداد **الجُمّارة** (ج جُمّار)[١٠] .

وتلتف حول هذا البرعم - الذي هو بالأحرى مجموعة من البراعم - «الأوراق الحديثة في أعمارها ، وأطوالها ، وألوانها المختلفة ما بين الأبيض الناصع الى الأبيض المخضر ، وبينها الليف يحزمها حزماً محكماً ، بحيث تكون في مجموعها مكبوسة القواعد كبساً شديداً ، تشكل في داخلها كتلة بيضاء هشة ذات عُصارة حلوة المذاق ، وتسمى هذه المجموعة بالجمّارة (ويتابع المرجع النباتي المعاصر وصفه) فاذا ارتطمت هذه الكتلة البيضاء بجسم صلب تهشمت ، أو على الأقل حدثت فيها رضوض أوشروخ [صدوع] ، قد تؤدي الى القضاء على البرعم الطرفي ، وبالتالي القضاء على النخلة »[١١] .

والى هذا المعنى يُشير أحد المصادر القديمة : والنخلة « إذا قُطع رأسها ماتت . والجُمّار يُشبه الدماغ [في الانسان] ، في جوهره ، ووضعه ، ومنفعته ! »[١٢] . وفي اللغة : جَمَّر :قطع جُمّار النخلة !

ونحب أن نُدرج أدناه ما كان نقله صاحب « زهر البستان ونزهة الأذهان » عن بَلَديّه الفِلاحيّ ابن البصال ، مما يتعلّق **بمُشابهة النخل لابن آدم** ... يقول الحاج الغرناطي :

« لقد أطنب ابن البصال في كتابه ،في ذكر النخل ، حتى ذكر أنها تشبه ابن آدم في صفات منها :

« ان النخل تنبُت من ظهر النواة ،كما ينبت ابن آدم من ظهر أبيه !

« وذكر أنها تحمل من ذكور النخل ،كما تحمل النساء [من الرجال] ،

« وذكر أن لها وفرة ، ويعني بذلك الليف الملتف على جُمّار النخل الذي لا يفارقه ،

« وذكر أنه يخرج منها الدم ، إلا أنه في قليل منها ، ولا يكون إلا إذا انكسرت ،

« وذكر أن لها عروقاً كثيرة ، كما لابن آدم ،

« و ذكر أنها تُصرع وتأخذها العين، كما تأخذ ابن آدم ،

« وذكر أن طَلْعها يبرز في حفاظة،كما يبرز الجنين في المشيمة ،

« وذكر أن رائحة طَلْع فحلها كرائحة المَنِيّ ،

« وأنه إن قُطع أعلاها فسدت ،كابن آدم »(١٣) !

٤ ـ اتخاذه من نَواه :

وتكون فلاحة النخل : زرعاً من **نَواه** ، أو غرساً من **الفسائل** التي يُفرّخها هذا الشجر حول قواعده •

ويُعد لذلك بأن تُحرث الأرض أولاً ، وتُسوّى ، وتُخط فيها خطوط مستقيمة متوازية ويُحدد موقع الحفائر على أبعاد متساوية ، وتُحدث فيها طرق ومساق ومصارف للمياه •

ويوصيك ابن حجاج الاشبيلي ، أنت الفالح الزارع :

« احفر حفرة عمق ذراع ، واملأها تراباً وزبلاً • **وخذ نواة** ، وأقمها في الحفرة ، يكون شقها قبالة المشرق ، ثم اطمرها بتراب وملح وزبل قليل ، ثم غط مكان الحفرة بورق الشجر ، واسقها حتى تنبت ثم اقلعها وانصبها •••»(١٤).

ويزيد كتاب « مفتاح الراحة لأهل الفلاحة » على ذلك شيئاً ما :

« وما يُزرع من نواه ، ينبغي أن تُحفر له حفائر لِطاف ، بُعد كل واحدة من [سطح] الأرض ثلاثة أشبار ، ثم تؤخذ إما ثلاث نويات أو خمس أو سبع، فتُلقى في الماء العذب حتى تتغرق ثم تُجعل في الحفائر ، وتُغطى بمقدار شبر مفتوح ، ويُغمر عليها باليد اليمنى ،وتُسقى الماء •••»(١٥) •

ويشيرون ، في أيامنا هذه ، بأن يكون حجم الحفيرة متراً مكعباً،وبأن يُستبعد ما استُخرج من ترابها وتُستبدل به تربة سطحية نظيفة بعد خلطها بما يعادلها من سماد عضوي متحلل ؛ وإذاما تبين أن ما تحت الحفيرة هو طبقة متماسكة صلبة ، فيجب تفتيتها وتعميقها، لتتيح للجذور النفاذ بيسر •

ويوصي القدماء بالمباعدة ما بين النخلات عند زراعتها • وفي الأمثال عندهم : « تقول النخلة للنخلة : ابعدي ظلي من ظلك ، أحمل مثلي حملي وحملك ! » • وتقول النخلة لزارعها :« ضع اختي بعيداً عني وخذ حملها مني ! »[١٦] •

٥ الأرض المملوحة لفلاحة النخل من النوى :

وقد بدا أن **أجدادنا العرب** ، وقبلهم الفلاحيين الاغريق وغيرهم ، قد رأوا أن الأرض المثلى لفلاحة النخل من النوى ، **هي الأرض المالحة** •

يقول قسطوس بن لوقا ، البعلبكي (من القرن الثالث للهجرة) :

« أمثل الأرض لغرس النخل ما كان فيها سَبَخ ماء ومملوحة ••• [ويقول] والنخل يألف الملح ، فاذا كانت أرضه عذبة فينبغي أن يُحفر عن أصله في كل سنة مرة ، ثم يُصب عليه شيء من ملح، فان كانت أرضه تُضارع السّباخ فلا حاجة الى ذلك »[١٧] •

وينصح الحاج الغرناطي : « ولا يجب أن يُفرّط في تفقده بالحفر والملح ••• إلا أن تكون الأرض مملوحة فليُستغن عن الملح »[١٨] •

ويُجاريه ابن العوام ، الاشبيلي ــ نقلاً عمن سماه يونيوس ــ فينصح بأن يُلقى على النوى التراب مخلوطاً « بسرجين وملح » ؛ ويضيف ــ نقلاً عن ديمقراطيس ــ إن من الناس من يحفر ، بعد نبت النواة ، « حواليها ، كل عام ، ويلقي فيها شيئاً من الملح ، لتَوْق النخل الى الملح » •

إلا أنه ــ أي ابن العوام ــ ينقل كذلك عن بلديّه ابن حجاج : « قال ابن حجاج ، رحمه الله : قد رأيت غراسة نوى النخل ، من غير أن يُخلط بتربته ملح ، (•••) ، تعلّق وجاد نقله [ثم يستدرك ، ابن حجاج] إلا أنهم أجمعوا على أن الملح ، والأرض المملوحة ، أفضل له ! »[١٩] •

وأما **المعاصرون** ــ الذين لاحظوا ما تتمتع به أشجار النخيل من خاصية تحمّلها للعطش ــ فانهم يقولون أن النخيل يحتاج الى المياه الوفيرة في موسم

الاثمار ، أي الصيف • ويرون أن النخيل يجود أيضاً في الأراضي المالحة ••• ووجدوا ، كذلك ، « أن الاختلاف في مقادير الملوحة [في مياه الري] لا يؤثر إلا تأثيراً بسيطاً في سرعة نمو السعف، ونوعية الثمرة وحجمها »[٢٠] •

وإذن ، فان ملوحة الأرض ، أو إلقاء ملح في أصل النخلة لدى زراعة النوى أو بعده ، ليس شرطاً لعطاء النخيل الجيد !

ومهما يكن من أمر، فان **علماء اليوم لا ينصحون باستنبات النخل من نواه** ؛ فقد عرفوا أن الثمار في هذه الحال ،كثيراً ما تأتي رديئة ، وتكون التمور متباينة ، في الشكل أو الحجم أو اللون •

وقد **سبقهم الأوائل** الى تبيّن بعض ذلك ، فقالوا :

« ومن عجيب أمر (النخيل ، أنه) إذا أخذ نوى من نخلة معروفة ، (وزُرعت منه) مئة نخلة أو ألف نخلة، خرجت كل واحدة لا تشبه الأخرى في الحمل والأصل ، إلا في النادر ! »[٢١] •

٦ ـ اتخاذه من الفسائل :

فأما الطريقة المثلى لتكثير النخل[٢٢]، فأن يتخذ من فسائله (واحدتها : **فسيلة**)[٢٣] ، وهي ما تُولده النخلة من أفراخ ؛ ويكون نموها من البراعم العرضية حول قواعد أمهاتها ، ولكنها قد تنبت عالية • على الجذع فتُسمى « **الراكوب** » (الجمع : رواكيب) •

وقد تحدّث الحاج الغرناطي عن **نقل الفسيلة** ـ بعد أن تفصل عن أمها وتُغرس وتبقى مدة ـ فقال :

« الوقت المحمود لقلع الغرسة أول شهر فورار [فبراير ، شباط] ، ليأتي فصل الصيف عليها وهي متمكنة بعروقها، وتخرج قوية •

« وبعض الأكّارين قال : فصل غراستها أول غشت [آب] ، فاذا أراد [الفلاح] قلعها فليُزل جريدها بمنجل الزبّارة، ويشد قلبها لئلا يتخلل فيفسد، ويستأصلها بجميع عروقها ، ويحفر لتلك البنات حُفراً غماقاً ، ثم تُدفن حتى

لا يبقى [منها] إلا شبران لا أقل ، وتنزّل فيه البنات ، ويُرد التراب المخلوط بالزبل ومعه شيء من الملح ، وتُسقى على المقام وترغد بالماء (!) الى خمسة عشر يوماً ، ثم تسقى كذلك . وأما زمن الصيف فانها تُثمر سريعاً ، ولقد رأيت هذا بالينبوع عياناً »(٢٤) .

ويكون توالد الفسائل خلال عشرين السنة الأولى من عمر النخلة ، ثم تكفّ . وتعطي النخلة من ١٠ ــ ٣٥ فسيلة ، وبعض النخل لا يعطي ولا فسيلة واحدة . ويحسُن أن تؤخذ الفسائل من أم قد تجاوز عمرها السنوات الخمس .

وقد عكف **العلماء المعاصرون** ، من عرب وأمريكيين ، على دراسة فلاحة الفسائل دراسة مُعمقة ، فنصحوا بألا تؤخذ الفسيلة إلا بعد اكتمال نموها (في السنة الثالثة من عمرها ، أو الرابعة) ، فيكون طولها نحو متر ، وقطرها ما بين ٢٠ ــ ٣٠ سم ، ووزنها في حدود عشرين كيلو غراماً .

ورأوا أن أفضل الطرق لفصل الفسيلة عن أمها أن يُعمد ، قبل شهرين من النقل ، الى « تنظيف » ما حول الفسيلة بأن تُنزع الفسائل الثانوية الصغيرة المتولدة فيها ، ويُقلم ما على جذعها من الكرناف (أصول الكَرَب) ؛ وبعدئذ يتم الفصل والنقل في الربيع أو الصيف .

ويتعين أن يُباشر ذلك كله عمال أكفاء ، يُحسنون التقليم والحفر والقطع ؛ ويترفقون في ربط الصفين العلويين من سَعَفات الفسيلة حول الجُمّارة لحمايتها ؛ ويُشذّبون جذورها ، مُزيلين المُجرّح منها ؛ ثم لا يُغيّبون ، من الفسيلة في الحفيرة لدى الغرس ، سوى الجزء الذي كان يغمره التراب وهي بجوار أمها !

وقلما تُنقل الفسيلة من جوار أمها مباشرة الى المكان الذي يُراد لها أن تستقر فيه ؛ ولكن يُعمد الى غرسها في مكان وسيط ، هو مشتل ، تتوافر فيه العناية البالغة ، وهناك تظل نحواً من ثمانية عشر شهراً ، يُتأكد خلالها من أنها شجرة صالحة ، وعندئذ تُنقل الى المكان المستديم .

وقد جُرب في بعض أنحاء **المملكة العربية السعودية** ، أن يحفر حول الفسيلة ـ وهي لمّا تزل في حضن أمها ـ ويفصل بينها وبين الأم ، دون أن يُتعرض في ذلك لجذور الأم من الجهة الخارجية ، الوحشية : « إذ من الملاحظ أن الفسائل تكوّن جذوراً من الجهة الخارجية قبل أن تكوّن شيئاً في المنطقة التي بينها وبين الأم [الجهة الأنسية] » ؛ ثم يُرد عليها التراب ، وتترك سنة ، تحقق خلالها « استقلالاً » عن أمها ، وعندئذ تقتلع وتنقل(٢٥) .

وغني عن البيان أنه تتعذر **الاستفادة من الرواكيب** (النامية على جذوع النخل) ، لانعدام الجذور فيها ، الا اذا أمكن تجذيرها !

ولقد أجريت تجارب في ذلك في **الولايات المتحدة الأمريكية** بأن اتّخذ كيس ، من مادة صناعية ما ، مفتوح الجانبين على شكل اسطوانة ، يُلبّس للراكوب وهو على أمه ، ثم تربط الفتحة السفلية ، ويُملأ الكيس بنشارة خشب مندّاة بالماء ، وتربط فتحته العلوية ... فلا تلبث أن تشاهد ، خلال أسابيع ، الجذور وهي تتبدى من وراء الكيس الشفاف !

وانها لعملية ـ ان عمّت ـ يسيرة وزهيدة التكاليف ، يشرع بها في الشتاء ، ليصبح الراكوب المتجذر معداً للغراسة في الربيع التالي .

ولكن علماء اليوم ماضون في تجاربهم في اتجاه آخر : **زراعة الأنسجة النباتية** ، بهدف تكثير النخيل ، وأملا في انتاج سلالات منه خالية من الفيروس .

فهم يحاولون أن يزيدوا في عدد الخلايا لهذا النبات ، بتجارب لهم داخل مزارع معقمة ، عن طريق تخليق أعضاء عرضية أو تشجيع نمو الخلايا الى أجنة عرضية .

فمتى نجحوا في نقل النسيج ، المزروع في الأنبوبة المعقمة ، الى التربة ، مع تهيئته لمواجهة الظروف الصعبة في الطبيعة ، غدت زراعة الأنسجة الطريقة الفضلى لتكثير النخيل . وهي لا تزال في طور البحث والتجريب(٢٦) .

٧ ـ إزهـاره :

وزهرالنخيل هو **الطَّلْع** ، الذي يظهرأوله في فصل الربيع ، قريباً من القمة ، ثم يتوالى ...

وتتكون الطلعة ـ وهي كبيرة ،طويلة وضيقة على شكل سيف ـ من وعاء متين ، في داخله المجموع الزهري !

ويسمى هذا الوعاء الجُفّ (ج جُفوف ، أو الكُفرّى[٢٧] ، والكوز ، والكُم ، والجراب ، والخنصر) . وهوصلب أشبه بجلد ، أخضر اللون ، يكسوه زغب كالمخمل . ويراوح طوله ما بين٢٥ ـ ١٠٠ سم !

وينطوي الوعاء على **الاغريض**(ج أغاريض) ، الذي متى آن للجف أن ينشق عنه ، في شهر شباط، برز **العرجون** على شماريخه الأزهار بيضاً صغيرة نضيدة ، « والنخل باسقات ، لها طلع نضيد »[٢٨] .

ويتألف العُرجون (ج عراجين) منجملة **الشماريخ** المتدلية منه . والعرجون من النخل كالعنقود من العنب ! ويراوحطوله من ٢٥ سم حتى مترين اثنين . وبعد نمو الثمار في العرجون يسمى عِذْقاً (ج عُذوق) ، أو قِنواً (قِنوان ، أقناء : « ومن النخل من طلعها قِنْوان دانية »[٢٩]) ، أو كِبيسة (كَبائس) .

وأشجار النخيل « **ثنائية المسكن** » ،أي ان الأزهار المذكرة تكون على شجرة والمؤنثة على شجرة غيرها . ويتباين الطلع المذكر والمؤنث ، بأن جُف الأول أقصر وأعرض من جُف المؤنث . وتعطي النخلة الذكر (الفحل) ما بين ١٠ـ٣٠ طلعة ، على حين تعطي النخلة الأنثى من٦ ـ ١٨ ، وتحجم أحياناً عن العطاء !

ويتعين **اخصاب النخلة الأنثى بلقاح الذكر** ، ويكون التلقيح بأن تؤخذ من النخلة الذكر ، لدى بدء انشقاق أكمامها ، عراجين ، تُنشر في الشمس يوماً أو يومين ، حتى يتم تفتحها عن حبوب اللَّقاح ، هذه التي يستفاد منها طوال موسم التلقيح (فصل الصيف) ،كما يمكن خزنها بشروط حفظ مواتية الى موسم قابل .

ويتم **التلقيح** (أو التأبير) بأن يتسلق الزارع (المؤبر) النخلة الأنثى ، ويدس شماريخ مذكرة ، بحالها ، فيعُذوقها ؛ أو ينفض عليها كيساً قماشياً، فيه ما فيه من حبوب الطلع الذكرية ،ومن النفاضة يقعالتلقيح ؛ وقد تُستعمل آلة تعفير ، تدفع بغبار الطلع الى حيثالعذوق المؤنثة.واذا وجدالمؤبّر أكماماً في النخلة لا تزال مغلقة ، هي تلك التيلا تواجه الشمس ، عمد الى شقها في أثناء التأبير !

ويُنصح بأن تجري عملية التلقيحخلال الساعات الثماني والأربعين الأولى من بدء انشقاق الأكمام في النخلة الأنثى. فان لم يكن فخلال الأيام السبعة الأولى . ويتوجب تكرار التلقيح مرة ثم مرة ، ضماناً لبلوغ غبار الطنع تضاعيف العراجين كلها .

وانه ليتفق لأزهار لم يصلها الغبارأن تعقد ، ولكنها تعطي ثماراً أدنى حجماً ولوناً وطعماً من تلك التي نالها التأبير ، ويأتي معظمها عديم النوى !

وتفيض **المصادر العربية القديمة**في الحديث عن التلقيح . من ذلك ما حدثنا به ابن العوام الاشبيلي ، عنتجربة له ... قال :

« ذكر[ت] نخلة برية ، في المشرق ، حين فتّح نوّارها ، بيسير من الفُحّال ، وذررت عليها ، عند ذلك، ورداً مطحوناً ، فأرطب بعضها رُطَباً طيباً ؛ وفعلت ذلك بها مرة واحدة فيذلك العام ، ويجب أن يكرر عليها ذلك مرات ، مرة بعد أخرى ... »[٣٠] .

وورد في كتاب « مفتاح الراحة .. » :

والنخل « تقبل اللقاح من فحل دونفحل . وقد تحتاج أن تلقح مرتين أو ثلاثاً أو أكثر ، وقد تقبل اللقاح من أول مرة .

« وفي النخل ما لا يقبل (...)اللقاح من فحل النخل ، وهذا داء ينبغي أن يُعالج منه ، وهو أن تَلْقح (...) بالأفواه الطيبة الروائح ، أو بفُقّاح الاذخر ، أو بأطراف اكليل الملك ؛وينبغيأن تُدخَل هذه الأشياء مع كش الفحولة ، فانها تقبل بذلك اللقاح »[٣١].

ويتزيد مؤلف هذا الكتاب :

واذا اتفق لفحل النخل أن وجدوسط نخلات مؤنثات ، « غلمن به ، كالرجل حوله النساء ، أو كالتيس حوله الصفايا » ![٣٢]

٨ ـ إثماره :

بعد تلقيح النخل ، تثمر أزهاره **بلحاً** أخضر اللون (واحدته : بلحة). « والبلح في النخل بمنزلة الحصرم في الكرم » ، كما يقول الدينَوَري[٣٣] ٠

وعند اكتمال نموه يسمى : **البُسْر** (واحدته : بُسْرة) ، وتتعدد ألوانه بين أصفر وأحمر وأشقر ٠

وبدءاً من أواخر الصيف ، يدخل في طور النضج ، فهو : **الرُّطَب** (واحدته : رُطَبة) ، « وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رُطباً جَنِيّا »[٣٤] ٠ فيصير الأصفر بني اللون (فاتحاً أو داكناً) ، والأحمر مسوداً ٠

ويُستساغ أكل بعض أصنافه ، وهو في حالة البُسر ، دون انتظار أن يُرطِب؛ ويؤكل بعضها الآخر ناضجاً مُرطِباً ، إلا أن معظم الأصناف تؤكل بعد أن تُقدّد ، فهي التمر (واحدته تمرة) ، وذلك ما يجعله قابلاً للتخزين ، وبالتالي الاستهلاك طوال العام ٠

ويمكن النظر الى ثمر النخل بصفته **غذاء كاملا** ، لما يحتويه من مواد سكرية وبروتين وأملاح وفيتامينات ٠

وقد رأى **القدماء** أن « من فضائل النخلة أنها تشارك أنواع النبات ، المقتاتة ، في الاغتذاء ـ وربما كانت أفضل من كثير منها نفعاً ، وربما أصلحت كثيراً من مضارها ـ [وهي الى ذلك] تشارك الفواكه في الحلاوة واللذة » ![٣٥]

ومن أشهر البلاد المنتجة للتمور في العالم : العراق وشبه الجزيرة العربية ، ومصر ، والسودان ، وتونس ، والجزائر ، وكاليفورنيا !

٩ ـ ما في ثمره من غذاء ودواء :

ولقد اهتدى الأوائل الى الاستطباب ـ بعد الاغتذاء ـ بثماره (بُسراً ورُطباً وتمراً) ، وبجُمّاره ، وبطَلْعه (حبوباً وقشراً) ، فبينوا منافعه الطبية ، دون أن يفوتهم التحذير مما قد يُسببه الاكثار من تناوله ، أو تناول بعضه ، من ضرر يلحق بالجسم !

فالبُسر ـ عند العشّاب الاغريقي السوري ، **ديسقوريدس** (القرن الأول الميلادي) ـ أشد قبضاً من القَسْب • وإذا أكِل ، أو شُرب ، « سكّن الالتهاب وقوى الحرارة الغريزية » • وقد يُنبّذ، فيفعل الفعل ذاته • « وطبيخه ، إذا شُرب وحده ، قبض قبضاً شديداً ، وشدّ »[٣٦] •

ويرى الطبيب الاغريقي **جالينوس** (القرن الثاني الميلادي) أنه ، « في البلدان التي ليست حرارتها بقوية جداً، فان البُسر لا ينضج ، ولا يصير رُطباً مُستحكماً (••• فيُضطر أهلها) الى أن يأكلوا البُسر حتى يفنى ، فيمتلىء بدن من يأكله خِلطاً نيئاً رديئاً خاماً ، ويصيبهم اقشعرار ونافض !...»[٣٧] •

وأما **ابن ماسويه** (القرن الثالث للهجرة/ التاسع م) ، فيرى أن أكل البُسر يعقل الطبيعة ، ويُولّد قراقر ورياحاً ونَفْخاً ، ولا سيما إذا شُرب على إثره الماء • والمختار منه ما كان هشاً حلواً ، لأنه إذا كان كذلك لم يُبطىء في المعدة؛ وإنّ مص ماء البُسر « المنتهي في النضج، الشديد الهشاشة » ، وإلقاء ثُفله ، هو أحمد من أكله بثُفله ![٣٨] •

وطبيخ البُسر ـ عند **ابن سينا** (ت ٤٢٨ هـ/١٠٣٧ م) ـ « يُسكّن اللهب مع حفظ الحرارة الغريزية ؛ والاكثار (منه ، ومن البلح) ، يُولد في البدن أخلاطاً غليظة »[٣٩] •

ويُحدث الرطب ـ وهو « التمر الطري » ، في رأي **جالينوس** ـ في البطن نفخة ، مثلما يفعل التين الطري[٤٠] •

ويرى **ابن ماسويه** أن غذاء الرطب « أكثر من غذاء البُسر • وأحمد الرطب الهَيرون (!) وما أشبهه ، والمختار بعده الأصفر ، والمكروه ما اسود ! »[٤١] •

وفي « المنهـاج .. » أن الرطب «جيد للمعدة البـاردة ويزيد في المني ، ويُلين الطبع في المبرودين »[٤٢] .

وعند التفليسي : « إذا أكِل [الرطب] مع اللوز يُكسر ضرره ، وينفـع جداً ؛ وإذا عُتّق صار أقل رطوبة وأكثرحرارة ... »[٤٣] .

والرُطَب ، في رأي ابن سينـا : « يلين الطبع ويزيد في جوهر المني »[٤٤].

والتمر ـ يتابـع جالينوس بيـان مايرى من « مضـاره ! » ـ هـو جميعه [تمره ورطبه] عسر الانهضام ،وبعضه يُحدث في المعدة تلذيعاً ؛ وما كان منـه كذلك فهو يُحدث الصداع أكثر من غيره!والغذاء ، الـذي ينفـذ من التمر الى البدن ، غذاء لا محالة غليظ ، وفيه معهذا بعض اللزوجة ، وذلك إذا ما كان التمر لحمياً تُخالطه حـلاوة يُسرع فيإيراث السَّدَد في الكبد ، وإذا ما كـان في الكبد ورم أو صلابة أضر بها غاية الضرر ... والمضرة من التمر للطحـال عظيمة !! »[٤٥] .

ويزيد على ذلـك ابن ماسـويه « وللتمور إفساد اللثة والأسنان!»[٤٦] .

ولكـن الـرازي(ت ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م) ، يتصـدى لهذين الطبيبـين خاصة (جالينوس وابن ماسويه) ، فيكتاب كانا هما دافعه الى تأليفه ، سماه : « منافع الأغذية ودفع مضارها »[٤٧] ،فينصح ـ في حديثـه عن التمـر ـ بأن « يـجتنب إدامته والاكثار منـه ، مَنْيُسرع إليه الصرع والرمـد والقُلاع والخوانيق ووجع الأسنـان ، ومن بـهغِلَـظ" في كبـده أو في طحـاله ... [ويستدرك :] وأما المبردون ، ومن لاتعتريهم هذه الأوجاع ، فيُخصبون عليه [ثم يتابع نصحه :] وينبغي ، لمن هـوضعيف الأسنان واللثة ، أن يغسل فاه بعد أكله بماء فاتر عذب ، ويدلك لثتهبأصابعه دلكاً جيداً ، ثم يُمسك في فيه ماء ورد قد نُقع فيه سُمّاق ... ليأمن بذلك القُلاع والخوانيق !... » .

ومما تحـدث فيه عـن التمـر ، أيضاً :

« إذا أُنقع في اللبـن ، وأُخـذ ،أنعَظ إنعاظاً قوياً إن أُديم أكله وشُرب ذلك اللبن ، ولا سيما إذا طُرح في ذلكاللبن شيء من الدار صيني . [ويُحذر

تحذيراً بالغاً] لكن المحرورين من هذا الفعل على خطر عظيم من الحُمى والدماميل والصداع والرمد ، ولا سيما في الزمان الحار ...

« وأجود وقت استعماله في الزمان البارد ، فان [المبرود] سيُخصب عليه بدنه ؛ ويزيد في الباه ، وفي حُسن اللون، زيادة كثيرة ؛ ويستأصل أمراضاً وأوجاعاً باردة ، إن كانت به ! »[٤٨] .

١٠ ـ ... وما في سائر أجزائه :

وفي **الجُمّارة**، ذلك الغُرنوق الانتهائي الذي يقود النخلة في نموها ، والمؤلف من أنسجة غضة طرية هشة ،حلوة المذاق ، يزيد وزنها على كيلو غرام أحياناً :

يقول **ديسقوريدس** : « إذا أُكِل ،وطُبخ، عَمِل ما يعمل الكُفُرّى! »[٤٩].

ويقول **ابن ماسويه** إنه « يَعقِل الطبيعة (...) بطيء في المعدة يغذو البدن غذاءً يسيراً ، وإن أكثر منه فليشرب بعده العسل المطبوخ »[٥٠] .

والدمشقي : « يختم القروح ، وينفع في نفث الدم »[٥١] .

ويقول **ابن سينا** في « القانون .. » : ينفع من خشونة الحلق ، يقبض الاسهال والنزف ، ينفع من لسع الزنبور ضِماداً »[٥٢] .

وفلاحو اليوم يأكلون **الجُمّار** ،إما على حاله وهو في غضاضته ، أو يُعدّون منه أكلاتٍ ما :

كأن تُقطع الجُمّارة ، وتُخلط باللحم والبصل والسمن وشيء من التوابل وتُطبخ ، فهذه تسمى في العراق بـ« الحميس » ؛

وقد تُفرم ، ويُضاف إليها السكر، وتُطبخ ، فهي « حلاوة الجُمار » ؛
وقد تُغمر قِطعُها في محلول ملحي، ثم تُرفع منه وتُرش عليها التوابل ، قبل أن تُحفظ في الخل ، فهي « مخلل الجُمّار » ![٥٣] .

وغني عن البيان أن ما تؤخذ جُمّارته من النخل ، هو الفسائل الفائضة ، ما دام استئصال الجُمّارة يؤدي الى القضاء على النخلة !

والطَلْـع ، أيضاً ، هو مما يُغتذى به من أجزاء النخلة ويُستَطَب ٠

وينبغي التفريق بين الطلعة قبل انشقاق وعائها ، وبين ما تنطوي عليه وهو **الوليع** ؛ حتى اذا انشق الوعاء (الجف ، الكفرى) برز **الاغريض** وعلى شماريخه الصغيرة الأزهار بيضاً نضيدة ، وذلك قبل أن يتحول ـ الاغريض ـ الى **عرجون** تعقد فيه الأزهار ، ويكتمل نموها ثم نضجها ، فهو **العذق** ٠ وهناك ما يفرزه طلع النخل من **الغبار** (أو الدقيق ، أو الحبوب) ، وبه تلقح شماريخ طلع الأنثى ٠

ويرى **ديسقوريدس** أن ما في الكفرى (وعاء الطلع) من القوة هو مثل ما في جوفها (الوليع) ٠ على حين يرى **جالينوس** أن قوة الطلع (بقشره ومحتواه) هي مثل قوة الجُمار[٥٤] ٠

وأما **ابن ماسويه** ، فان الطلع ، عنده ، « يورث ، مَن أكثر منه ، وجعاً في المعدة (٠٠٠) ، ولذلك ينبغي أن يؤكل مسلوقاً ؛ ويؤكل بالخردل والفلفل والزيت والنعنع والصعتر (٠٠٠) فان أراد مريد ، أكله نيئاً مع الأطعمة الدسمة ـ كالدجاج السمين وشحومه ، والجداء ـ وشرب بعده النبيذ العتيق ! »[٥٥] ٠

ويشبهه أحد القدماء ـ **الياقوتي**(!) ـ بـ « دقيق الحنطة » ، ويقول : « هذا الدقيق ينفع من الباه ، ويزيد من المباضعة »[٥٦] ٠

واليوم يقطفون طلع الأفحُل ، وهو في بداية تفتحه ، ويأكلون الاغريض غضاً !

ويأكلون ، كذلك ، ما يفيض من حبوب اللقاح ، على حالته ، أو بعد خلطه بالعسل ![٥٧]

والكُفرى ، واسمه عند **ديسقوريدس** : فينقس Phoinix ... يقول :

« يستعمله العطارون في تعفيص الأدهان ٠ وأقوى الكُفرى ما كان طيب الرائحة عفصاً ، رزيناً ، كثيفاً ، داخله ثمر ؛ وقوته قابضة ، مانعة للقروح الخبيثة من أن تسعى في البدن ٠٠٠

« واذا خلط ، بما ينبغي أن يخلط به من الضمادات ، نفع البطن والمعدة الضعيفة • وينفع من أوجاع الكبد •

« واذا غسل الشعر بطبيخه كثيراً ،اسود" •

« واذا شُرب طبيخه ، وافق من كان به وجع العصب أو وجع الكلى أو المثانة أو الأحشاء ••• »(٥٨) •

ويرى **جالينوس** ، « في قشور الطلع [الكُفرى] ، كيفية قابضة ، الا أنها تجفف أكثر من جميع ما وصفنا ،من طريق أن قِوام جوهر هذا القشر ، أيضاً في نفسه ، أشد يبساً ، ولا رطوبة فيه أصلا ؛ ولذلك صار الناس ، باستعمالهم اياه في مداواة الجراحات المتعفنة ، مصيبين •

« وقد يخلطونه في الأدوية التي تشد المفاصل الرخوة ، وفي الأدوية النافعة للكبد ولفم المعدة ، ولما يوضع من خارج، ويُشرب »(٥٩) •

ويعمد **زُراع النخل ، اليوم ، في شط العرب** ، الى أغلفة الطلع هذه ، الكُفرّى ، فيقطّعونها ، وينقعونها في الماء ، ثم يستقطرون النقيع ، فيتحصل لهم سائل فيه من الروائح ما كان في الكُفرّى • وهو عندهم علاج للاسهال ، ومسكن لمغص الأمعاء ، ويعطرون به ماء الشرب في فصل الصيف(٦٠) •

ويحدثنا **ابن العوام الاشبيلي** حديثاً طريفاً عن خبز كان يختبز من **طلع النخل** في الأندلس •

فانه اذا ما تشقق قشر الطلع ، أخذ ما في داخله (الاغريض) ، ويؤخذ جميعه ، بقشره ، ان كان الطلع رطباً غضاً ، « ويقطع بالسكاكين ، ثم يُجفف في الشمس حتى يجف جيداً • ثم يدق ،ويطحن ، ويعجن دقيقه بخمير من حنطة أو شعير ، ويترك مدة طويلة بعد عجنه •وينبغي أن يعجن بماء حار وملح كثير ، ثم يخبز ، ويؤكل •

« ومتى سلق بالماء والملح سلقتين ،كان جيداً ؛ وان سلق ثلاث مرات كان أجود ؛ ويبدل له الماء في كل سلقة »(٦١)•

وهنـاك **نسغ النخـل** ، الذي فطن **المزارعون** ، **في المغـرب العربي** ، **عـلى امتـداده** ، الى ما فيه من نكهـة طيبـة المذاق ، سموا شرابه : « اللقمة » (أو اللكمة ، بلهجتهم) !

وهم ، لاستخراجه ، يقطعون قمـة النخلة عند جُمارتها ، محدثين في المقطع حفـرة ، ما تلبث أن تمتلـىء بالنسـغ المرتشح ، الذي ينساب الى وعـاء قـد أحكموه تلقاءها ، وانه ليتجمـع في اليوم الواحد ، في أواخر الربيع ، ما قد يتجاوز اللترات الخمسة حتى العشرين ، علـى مدى ثلاثين يوماً أو أربعين ٠ وهو نسغ عسلي اللون ، حلو ، يشبه طعم الجُمار ؛ يشرب طازجـاً ؛ فان ترك ، تخمـر فأسـكر(٦٢) ٠

وبسبب منع بعض السلطات المحلية ذلك ، يتحيّل النخالون بأن يُعِدوا للوعاء مكاناً خفياً في قاعدة النخلة ، وقد يحتفرون له حفيرة يوارونه فيهـا ، فيتقطـر النسـغ اليه من عـل دون أن تلحظـه العيـون !

ولأن قطع قمة النخلة يودي بهـا ، فهم يُضَحّون ، في استخراج النسـغ ، بأفحل النخيل الزائـدة ، وبالمسن الذي شح محصوله !

١١ ــ ما يعتريه من الآفات والأمراض :

يعتري النخيل ما يلحق النبات مـن الآفات والأمراض الزراعية ، وقد عـرّف **القـدمـاء** بعضها ووصفوا علاماتهـا ، وقدموا ما تأتى لهم من صنوف العلاج ٠

وقد وقفت ، في جزء مطبوع من كتاب « النبات » للدينوري ، على الضـرر الذي يلحق النخل من الجرذان ٠٠٠ يقول :

« الجرذ يفسد الحرث والنخل : وذلك أنه يقطف السنبل ويدخره في جحر ، ويقطع شماريخ البُسر ! ولا يستنصفون منه إلا بالماء يدلقونه ٠ وجُرَذ الحرث والنخل أضخم من سائر الجرذ ! »(٦٣) ٠

وقد بينت **الدراسات المعاصرة** مدى الأضرار التي توقعها الفئران والجرذان في أشجار النخل ، فهي تقضم جذورها ، وخاصة الفسائل ، في مزارع عربستان (ايران) ، وهذا يؤثر في نمو الشجرة ، ويجعلها عُرضة للسقوط عند اشتداد عصف

الريح ! وقد تتسلقها الجرذان فتأكل من ثمرها ، وتلتهم ما ينشق عنه الطلع من الأغاريض، مما حمل النخالين في «مسقط» على أن يلفوا الطلع بعد تلقيحه أماناً له من هذه المخاطر !

وبعيداً عما فصلته المراجع الحديثة، من بيان للآفات التي يُلحقها بالنخيل عديد من الحشرات والديدان التي تحفر الأنفاق في الجذوع والجذور ، وتُحدث الأخاديد على أغلفة الطلع والعراجين والسعف والثمر ، وتُخلف عليها ذيولاً من الدبق والأنسجة العنكبوتية ؛ وكذلك ما تنوشه من ثمارها بعض الحيوانات ، الطائر منها والسائر ، كالزنابير والعصافير والخفافيش والقنافذ وبنات آوى والقردة ....

قلت : بعيداً عن ذلك كله ، فان **القدماء** لاحظوا ــ بالمعاينة الصحيحة ، أو هم توهموا ــ أمراضاً في أشجار النخل، قد جمع لنا أطرافاً منها صاحب « مفتاح الراحة .. » ، وأطلق عليها ، أحياناً ، أسماء لأمراض إنسانية مضفياً عليها شيئاً من أوصافها !(٦٤)

من ذلك أن يعرض للنخل **الغمّ** ، وعلامته نقص حملها ؛ ويعرض **الحزن** ، أن يبيضّ لَبُّها؛ **والجذام** ، أن يتحاتّ كربها ؛ **والبرص** ، أن يظهر على الكرب ما يشبه السورنجان ؛ **والهرم** ، إذا لم تعد تحبل ؛ كما يعرض لها **موت الفجاة** أيضاً ... ووصفوا لذلك من العلاجات ما وصفوا ، كأن يقطع قدر من سَعَفها ، وتوقد حولها نار في النهار، أو يُصب في أصولها الماء الحار المالح أو تُخلل عروقها بالحديد على نحو يجد فيه الماء والتراب لهما منفذاً !(٦٥)

ويعرض لها **اليرقان** . ومن أسبابه : عطش مفرط ، أو ركود الهواء في تموز وآب (يوليو وأغسطس) ... وعلامته : صُفرة لَبّها ، ونقصان خضرة جريدها، وإذا شُدِخت عروقها سالت منها رطوبة كدرة مائلة الى صفرة وزرقة وانكمش بُسرها بعد يومين ...

وعلاج اليرقان : أن يُخلط الخل بالماء العذب وبيسير من دقيق سميد ، ويُصب في لب النخلة ، ويرش على سعفها وفي أصلها ، وقد يُزرع بالقرب منها الشعير أو الخُبّازى أو القرع(٦٦) .

ويعرض لها **السُلّ** • وله واحد من أسباب ثلاثة : إما من انتهاء عروقها إلى الأرض الصلبة أو إلى حجارة فلاتنفذ فيها ، وإما من العشق (الذي سنذكر علاجه أدناه) • وعلامة السلّ : تشقّق سَعفها ، وعدم الرطوبة السائلة فيها عند قطع بعض سعفها أو عروقها •

وعلاجها : مداومة سقيها بالماء البارد العذب عند غروب الشمس ، وتسميدها بورق القرع والخُبّازى •••(٦٧)

على أن أعجب ما يعرض للنخلة : **العشق** ، عشقها لنخلة أخرى ! وإذا كان عشق الناس يعالج باجتماع العاشق بالمعشوق ، فانه لكذلك في عشق النخل ! ودليل عشق النخلة : ميلها الى جهة النخلة المعشوقة ، وخفة حملها، وهُزالها من غير ما سبب ظاهر !

وعلاج هذا الداء ــ زعموا ! ــ يكون بأحد هذه الأدواء :
أن يُلقى شيء من قلب المعشوقة ــ من طلعها ــ في قلب **العاشقة** !
أن تُعلق سعفة من المعشوقة على العاشقة •
أن تعلق أربع سعفات من سعف المعشوقة على أربع جهات **العاشقة**•
وربما شُدّ حبل بين العاشقة والمعشوقة !
أو يُجعل حجر مربع في قلب المعشوقة ثلاثة أيام ، ثم يُنقل الى قلب العاشقة !(٦٨)

١٢ ــ فصائل نخلية أخرى :

ذلك عن النخيل الذي عرفه العرب منذ القديم •

ولكن **المصادر العربية** ، وكذلك **المعجمات العلمية الحديثة** ، تتحدث عن أصناف أخرى من النخيل ، تشاركه في انتصابه وفي خُوصه وسَعَفه ، دون سائر أوصافه •

ولعل أشهر هذه الفصائل النخلية: **النّارَجيل** (من الفارسية ، والأصل سنسكريتي) ، ويسمى أيضاً : الرانِج والشّعْصُور ، واسمه العلمي Cocos nucifera. فيه أنواع للتزيين ،ونوع مثمر مشهور ثمرته : **جوز الهند!**(٦٩)

ومنهـا **الفَوْفَـل ، أو الكَوْثَـل** Catechu :نخلة مثل النارجيل ، تحمـل كبائس فيها الفوفل ، مثل التمر ، فمنه أسود وأحمر ،وهو ثمر طبي سماه العرب: **جوزة الكوثل** ، وليس من نبات العرب .

والدّوْم ، أو المُقْل Hyphaene thebaica . وربما كان المقـل صمغه[٧٠] ، وهو مما يُستطب به .

وذكرت المصادر العربية : الكاذي: شجر دون النخلة طولاً ؛ وبطَلْعه ـ قبل أن ينشق ـ يُطَيّب الدهن ، فيكتسب رائحة ، ويتسمى به **دهن الكاذي** . وعرفته المعجمات الحديثة Pandanus odoratissi ،من الفصيلة الكاذية ، ولزهره رائحـة جميلة ، وهو كثير في الهنـد والصين ، ويوجد منه في اليمن .

وعرّفت المعجمات العلمية بفصائل نخلية أخرى :

نخل الأدغال Chamaerops ، جنس شجر للتزيين ، مبذول في البلاد الحارة ؛

نخل الدقيق Sago palm ، وهو أنواع مختلفة ، منها ما يُستخرج من لب جذوعه نشأ مغذ يسمى **الساغو** ؛

نخـل الدهن Elaeis guineensis ، يستخرج من ثمره زيت أصفر ، يستعمل في صناعة الصابون والشمع ؛

نخــل النبيــذ Wine palm ، يستخرج من ثمره ، أو نسغه ، نوع من النبيـذ ؛

النخـلة الـزبـاء Acrocomia ، سُميت زبّاء الرأس لكثرة الأسـدية في رأس شجرتها[٧١] ؛

نخـلة المـذراة Thrinax ، اسمها العلمي من المِـذراة ذات ثـلاث الأصابع ، تشبيهاً لورقها بالمذراة ؛

فضلا عن **: نخل الجبل** Oreodoxa ، **ونخـل الجـوز** Caryota ، **ونخـل الشـمع** Ceroxylon andicola .

١٣ ـ ... والنخلة الأولى في الأندلس :

بالحديث عن تلك النخلة الأولى ، المنتصبة في رصافة قرطبة ، بدأنا بحثنا . ونختتمه برواية الأبيات التي أنشدهـا فيها الأمير عبدالرحمن ، قال :

تبدّت لنا ، وسط الرصافة ، نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهي في التغرّب والنوى ... وطول التنائي عن بَنِيّ وعن أهلي
نشأتِ بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك ، في الاقصاء والمنتأى ، مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي ... يسحّ ويستمري السماكَين بالوبل[٧٢]

وبعد تلك النخلة ـ التي يظن أنها الأولى التي زرعت هنالك ، أو هي الأولى التي أنشد فيها شعر عربي ! ـ عمّت زراعة النخيل أرجاء الأندلس الاسلامية ، وقد وجدت فيها التربة المواتية ، حتى لقد سمّيت احدى المدن ، في جزيرة من الجزر الاسبانية تلقاء سواحلها الشرقية : **بالما دي مَيُورْقَة** Palma de Majorca (أي : مَيُورقة النخيل !)[٧٣] .

دمشق ـ **فاضل السباعي**

* * *

☐ **الحواشي :**

١ ـ ترجمة الدكتور احمد الأشقر ، ومراجعة وتعليق الدكتور محمد نذير سنكري (منشورات معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ١٩٨٥) ص ١٩٢ ، وتكرر في ص ٢٦٥ .

٢ ـ رواية ابن سعيد الأندلسي (من أهل القرن السابع الهجري) في « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » (تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار صادر ببيروت ١٩٦٨) ١:٤٦٧ .

٣ ـ « قصة الحضارة » (الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، طبعة مصورة عن الطبعة الأولى ، بيروت ، د.م ، د.ت) ١٣:٢٩٤ .

٤ ـ علمت ، قبل فراغي من مسودة البحث ، أن الكتاب قد حقق ونشر في اسبانيا ، أخيراً . ولم يتح لي الاطلاع عليه منشوراً بعد . ولكني راجعت مصورة مخطوطته ، التي أهدانيها مشكوراً المستعرب الاسباني الدكتور خيسوس ريو ساليدو أيام كان سفيراً لبلاده بدمشق .

٥ ـ بعد فراغي من مسودة البحث حمل الي البريد ، من أكاديمية المملكة المغربية بالرباط ، اصدارها الجديد النفيس : عمدة الطبيب في معرفة النبات ، وقد نسبه الباحث محمد العربي الخطابي الى أبي الخير الاشبيلي (من علماء القرنين الخامس والسادس للهجرة) . وهو ، بالأحرى ، معجم ضخم (من مجلدين في ألف صفحة) ، يعرّف جميع النباتات . وبدا أن صاحبه ـ كما يقول المستعرب الاسباني أسين بلاثيوس ـ كان سباقاً « الى ابتكار نظام للتصنيف النباتي هو اقرب من غيره الى نظام التصنيف الحديث » ، ١:١٤ .

وسوف نرجع اليه في بعض حواشي البحث .

٦ ـ التوصيف: تصنيف الأشياء وبيان أنواعها أو صفاتها.

٧ ـ « مفتاح الراحة .. » : ١٨١ .

٨ ـ ثم انه استعير ، في عصرنا ، لفظ « الجريدة » وأطلق على الصحيفة اليومية !

٩ ـ يروى أن اعرابية سئل : « ما مالك ؟ » ؛ فاجاب : « النخل ! جذعها بناء ، وليفها رشاء [أي حبال] ، وخوصها اناء ، وكربها صلاء ، وسعفها ضياء ، وحملها غذاء » !

١٠ـ معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية (انكليزي ـ عربي) مادة Terminal buds .
والفرنوق في اللغة : الناعم المستتر من النبات • ومن معاني الكلمة أيضاً : طائر مائي أسود (أو أبيض)، والكركي، والشـاب الأبيض الجميـل ، والخصلة مـن الشعر المفتّلة •••

١١ـ أحمد ، د• حسين فتحي ، و د• أحمد سعيد القحطاني، و د• يوسف أمين والي : « زراعة النخيل وانتاج التمور في العالمـين العربي والاسلامي » (مطبعة جامعة عـين شمس ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م) : ٦٨ و ٦٩ •

١٢ـ « مفتاح الراحة •• » : ١٨١ •

١٣ـ « زهر البستان ونزهة الأذهان » (مخطوطة بلدية قرطبة) ، اللوحة ٧٥ •

١٤ـ « المقنع في الفلاحة » : ٤٥ •

١٥ـ « مفتاح الراحة » •• : ١٨٠ •

١٦ـ المرجع السابق : ١٨٠ •

١٧ـ « الفلاحة الرومية » : ٩٦ و ٩٧ •

والسبخ : المكان يظهر فيه الملح وتسوخ فيه الأقدام •

١٨ـ « زهر البستان •• » : اللوحة ٧٩ •

١٩ـ « كتاب الفلاحة » لابن العوام ١:٣٤٤ و ٤٥ •

والسرجين (أو السرقين) : الزبـل •

قلت: وقد لاحظت أن ما ورد في نص «المقنع في الفلاحة» (المحقق والمطبوع في عمان ١٩٨٢) متباين ومناقض لما نقل ابن العـوام ؛ وتكملة نص « المقنـع •• » ـ وقد استشهدنا بمقدمته أعلاه ـ « ••• وانصبها في أرض مالحة ؛ فان لم تكن مالحة ، فالق في الحفرة ملحا ، وتعاهدها كل سنة بالملح ، فان النخل يجود به » : ٤٥ •
وهـذا يدعو الى التـامـل !

٢٠ـ خليفة ، د• طاهر ، و د• محمد زيني جوانه ، ومحمد ابراهيم السالم : « النخيـل والتمور بالمملـكة العربيـة السعودية » (وزارة الزراعة والمياه ، الرياض ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م) : ١٠٤ و ١٠٧ •

٢١ـ « مفتـاح الراحـة •• » : ١٨١ •

ومع ذلك ، فان انتشار زراعة النخيل في أنحاء افريقيةعلى يد العرب ، انما كان من نوى التمر ـ لا الفسائل ! ـ زادهم الذي كانوا يحملونه في فتوحاتهم ، وفي هجراتهمبعد ذلك •

٢٢ـ جرت بعض المراجع الحديثة على أن تستعمل ، هنا ، لفظ التكاثر ، مصدر الفعل اللازم : تكاثر ، الذي يفيد تكاثر النخل من تلقاء ذاته ؛ على حين أن المقصود هو التكثير (أو الاكثار) بفعل الغير ، من الفعل المتعدي : كثّر (أو أكثر) !

٢٣ـ وهي أيضاً : الرئد ، والشكير ، والخلف •

٢٤ـ « زهر البستان •• » اللوحة ٧٥ •

٢٥ـ « النخيل والتمور •• » : ٨٩ و ٩٠ •

٢٦ـ « زراعة النخيل •• » : ١٧١ـ٧٥ ، و « النخيل والتمور •• » : ٩٢ •

٢٧ـ أو الكافر ، أو الكافور ، لأنه يكفر ما في داخله ، أي يغطيـه •

٢٨ـ سورة ق ، الآية : ٩ و ١٠ •
وفي معجم الوسيط : ان ما ينشق عنـه الطلع من الحبيبـات البيض ، هو الاغريض ؛ فاذا ما كـان الطلع في وعائه كأنه نظم لؤلؤ في شدة بياضه ، فهو : الوليع (واحـدته : وليعـة) •

٢٩ـ الأنعام : ٩٩ ٠

٣٠ـ فلاحة ابن العوام ١:٣٤٩ ٠

وقوله: في المشرق ، لعله يعني : مشرق الأندلس ؛ وابن‌العوام من اشبيلية ، الواقعة في جنوب الأندلس الى غرب على مقربة دانية من ساحل بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) !

والفحال : ذكر النخل ، ج فحاحيل !

والطريف في « تجربة » هذا العالم الأندلسي ، انه ذر على الأزهار المؤنثة ، مع غبار الطلع ، ذرور ورد ! وقد ذكر تجربته هذه في باب يتعلق بغراسة الأشجار في الأندلس ، التي منها النخل ! ثم عاد فرواها ، بمعناها ، في باب عن « تذكير الأشجار » ، ١:٥٧٢ـ٧٩ ٠

٣١ـ « مفتاح الراحة ٠٠ » : ١٨٢ ٠

والأفواه (واحدتها : فوه ، جج : افاويه) : التوابل ونوافح الطيب ٠

والاذخر ، نبات عشبي ، اسمه العلمي Andropogon schoeathus ، يسميه الشهابي : اذخر العرب ٠ يقول ابن سينا : ان لفقاحه (والفقاحة هي الزهرة حين تتفتح) رائحة تشبه في طيبها رائحة الورد ، « القانون في الطب » ١:٢٤٧ ٠

واكليل الملك Melilotus officinalis : نبات لونه ـ كما يقول ديسقوريدس ـ « الى لون الزعفران ، طيب الرائحة » ، ابن البيطار « جامع المفردات ٠٠ » ١:٥٠ ؛ ويضيف الطبيب القوصوني المصري : « سمي اكليل الملك ، لانه كان يتخذ منه اكاليل يضعها الملوك على رؤوسهم ! » ، « قاموس الأطبا وناموس الألبا » ٢:٣٣ ٠ ولعله يعني ب كش الفحولة الشماريخ الذكرية ، او ما تحبب فيها من غبار الطلع ! وقد ورد عند ابن العوام : « ٠٠ لا بد من تلقيح النخل بكش نخلة ذكر ٠ » ، « كتاب الفلاحة » ١:٥٧٦ ٠

ويلاحظ ان في ما يبديه كتاب « مفتاح الراحة ٠٠ » ، المشرقي ، تأييداً لتجربة ابن العوام ، في الأندلس ، الذي كان قد استعان ، في تذكير اناث النخل ، بذرور الورد (اعلاه) ٠

٣٢ـ « مفتاح الراحة ٠٠ » : ١٨١ ٠

وغلم غلمة : اشتدت شهوته للجماع ٠

والصفايا (صفي ، صفية) ، هنا : ما يستصفيه التيس لنفسه من اناث الماعز !

٣٣ـ أبو حنيفة الدينوري ، في كتابه : « النبات » ، الضائع معظمه (عن « جامع المفردات ٠٠ » ١:١١٢) ٠

٣٤ـ مريم : ٢٥ ٠

٣٥ـ « مفتاح الراحة ٠٠ » : ١٨٧ ٠

٣٦ـ « جامع المفردات ٠٠ » ١:٩٤ ٠

والقسب (وحرفت في النص المطبوع : العشب !) : التمر اليابس ٠

٣٧ـ « جامع المفردات ٠٠ » ١:٩٤ ٠

٣٨ـ « جامع المفردات ٠٠ » ١:٩٤ و ٩٥ ٠

ويوحنا (او يحيى) بن ماسويه ، أصله من جنديسابور ، درس الطب في بغداد ٠ وجعله الخليفة العباسي المأمون ، في سنة ٢١٥ هـ ، رئيساً لـ « بيت الحكمة » ٠ توفي ٢٤٣ هـ / ٨٥٧ م ٠

٣٩ـ « القانون ٠٠ » ١:٢٧٠ ٠

٤٠ـ « جامع المفردات ٠٠ » ٢:١٤٠

٤١ـ « جامع المفردات ٠٠ » ٢:١٤٠ ؛ و « المعتمد في الأدوية المفردة » ١٨٧ ٠

٤٢ـ « جامع المفردات ٠٠ » ٢:١٤٠

ومؤلف « منهاج البيان فيما يستعمله الانسان » هو ابن جزلة ، يحيى بن عيسى ، طبيب وفيلسوف عراقي ٠ كان نصرانيا ثم أسلم ٠ وله ايضاً : « تقويم الأبدان » ٠ ت ٤٩٣ هـ ٠

٤٣- « المعتمد .. » ١٨٧ .

والتفليسي هو : حبيش بن ابراهيم بن محمد ، طبيب بن آثاره : « تقويم الأدوية » و « تحصيل الصحة بالأسباب الستة » . ت حوالي ٦٠٠ هـ .

٤٤- « القانون .. » ١:٤٣٠ .

٤٥- « جامع المفردات .. » ١:١٤٠ .

والسدد والسداد: جسم غريب يسد وعاء دمويا ، وهو أيضاً : داء ياخذ في الأنف يمنع من الشم وتنسم الريح .

٤٦- « جامع المفردات .. » ١:١٤٠ .

٤٧- وقال ، في ما دعاه الى تصنيفه :

« رأيت أن أؤلف كتاباً في دفع مضار الأغذية ، تاماً ، مستقصى ، أبلغ وأشرح مما عمله الفاضل جالينوس ، فانه سها وغلط في كثير من كتابه في هذا المعنى ولم يستقص في كثير منه ؛ ولا سيما يحيى بن ماسويه ، فانه اضر بكتابه الذي عمله في هذا الغرض أكثر مما نفع !... » .

مقدمة الكتاب : ١٧ .

٤٨- « منافع الأدوية ودفع مضارها » : ٢١ و ٢٢ .

٤٩- « جامع المفردات .. » ١:١٦٨ .

٥٠- « جامع المفردات .. » ١:١٦٨ .

٥١- « جامع المفردات .. » ١:١٦٨ .

والدمشقي هو : مسيح ، عيسى بن الحكم . ولد بدمشق ، وخدم ببغداد الخليفة هارون الرشيد . أهم كتبه « الكناش » في الطب . ت بعد ٢٢٥ هـ/٨٣٩ م .

٥٢- « القانون .. » ١:٢٨٥ .

٥٣- « زراعة النخيل .. » ٥٦٤ و ٦٥ .

٥٤- « جامع المفردات .. » ٣:١٠٤

٥٥- « جامع المفردات .. » ٣:١٠٤

٥٦- « جامع المفردات .. » ٣:١٠٤

٥٧- « زراعة النخيل .. » : ٥٦٥ .

٥٨- « جامع المفردات .. » ٣:١٠٤ ؛ و « المعتمد .. » : ٤٢٧ .

وتعفيص الأدهان : معالجتها على نحو تصبح فيه ذات مرارة وتقبض .

٥٩- « جامع المفردات .. » ٤:٧٥ .

٦٠- « زراعة النخيل .. » : ٥٦٥ (نقلا منه عن : البكر ، عبدالجبار : « نخلة التمر ، ماضيها وحاضرها والجديد في زراعتها وصناعتها وتجارتها » ، مطبعة العاني ببغداد ، ١٩٧٢) .

٦١- فلاحة ابن العوام ١:٣٤٦ .

ويضيف مقدمة للفلاحين تعليماً :

« وهكذا يعمل في (...) الثمار التي تشبهه ، قبل اتخاذ الخبز منـ[ـها] : تسلق سلقتين بالماء العذب والملح ، أو بالماء وحده ؛ ويكون الماء وحده لما هو عفص شديد القبض ؛ وما شاب طعمه مرارة أو طعم آخر ، فالماء والملح » .

٦٢- « زراعة النخيل .. » : ٥٦٥ و ٦٦ (نقلا منه عن : « نخلة التمر .. » ...) .

٦٣- « كتاب النبات » ، الجزء الثالث والنصف الأول من الجزء الخامس (تحقيق المستشرق برنهارد لفين ، فيسبادن ١٩٧٤ ، مطابع دار القلم ، بيروت) : ٣ .

والحرث : الزرع .

٦٤ـ « مفتاح الراحة ٠٠ » : ١٨٢ـ٨٥ ٠

٦٥ـ اللَّبّ ، عند الفيروزابادي ، من النخل والجوز ونحوه : قلبها ٠ وهو ، هنا ، غير الجمارة ٠
والسورنجان ، عند ابن البيطار : نبات يطلع زهراً أبيض شبيهاً في شكله بزهر الزعفران ٠

٦٦ـ « مفتاح الراحة ٠٠ » : ١٨٤ ٠

٦٧ـ « مفتاح الراحة ٠٠ » : ١٨٤ و ٨٥ ٠

٦٨ـ « مفتاح الراحة ٠٠ » : ١٨٣ ٠

٦٩ـ ويزيدنا الدينوري به تعريفاً :

« النارجيل : نخلة طويلة تمد سعفها حتى تدنيه من الأرض ، ليناً ؛ ولها أقنان ، ويكون في القنو الكريم منها ثلاثون نارجيلة ؛ ولها لبن يسمى الأطواق ٠

« فاذا أراد احد لبنها ، ارتقى المرتقي الى ذروتها ومعه كيزان ، فنظر الى طلعة من طلعها قبل أن يعقد ، فيشق طرفها مع قضيب الوليع ، ثم يلقمها الكوز ، ويعلقه في العرجون ، ثم يفعل كذلك في سائر طلعها ٠ ولا يزال اللبن ، من ذلك الطلع ، يقطر في الكيزان قطراً تسمعه من تحتها ! » ٠

« حتى اذا كان العشاء ، وصعد اليها ، وجد في كل كوز منها الأرطال ؛ فيشرب من ساعته ، حلواً غليظاً طيباً، كانه لبن الضان ؛ يسكر سكراً معتدلا ، ومتى برز شاربه الى الريح افرط عليه السكر ٠

« فان بقي شيء منه الى الغد ، خلله ، وصار كاثقف خل ، يطبخ به لحوم الجواميس ، فتنضج » !

« مفتاح الراحة ٠٠ » : ١٨٩ و ٩٠ (نقلا منه عن « كتاب النبات ») ٠

٧٠ـ وفي اللغة : الدوم أيضاً : ضخام الشجر ، ما كان !

٧١ـ واحدتها : السداة : العضو الذكري في الزهرة ٠

٧٢ـ ياقوت الحموي : « معجم البلدان » (طبعة مصورة ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ١٩٧٩) ٣:٤٨ ٠

٧٣ـ وفي ذلك يشهد ويل ديورانت :

« ٠٠٠ واستعالت جزيرة ميورقة ، التي فتحها العرب في القرن الثامن [الميلادي] (وعلى وجه التحديد سنة ٢٩٠ هـ) ، بفضل علمهم بالزراعة وعنايتهم بها ، فردوساً مليئاً بالفاكهة والأزهار ، تشرف عليها أشجار النخيل ، التي سميت الجزيرة باسمها فيما بعد » ٠

« قصة الحضارة » ١٣:٢٩٤ ٠

مراجـع البحث :

أولاً ـ المصادر (مسلسلة حسب أزمان مؤلفيها) :

١ ـ الدينوري ـ أبو حنيفة ، احمد بن داود (توفي حوالي ٢٨٢ هـ) : كتاب النبات (الجزء الثالث والنصف الأول من الجزء الخامس) ، تحقيق : المستعرب الألماني برنهارد لفين ، الطبعة الأولى ، فيسبادن (المانيا) ، دار نشر فرانز شتاينر ، ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م ٠

٢ ـ قسطوس بن لوقا البعلبكي (ت بعد ٣٠٠ هـ) : الفلاحة اليونانية (أو : الفلاحة الرومية) ، نقله الى العربية سرجس بن هلبا ، القاهرة ، ١٢٩٣ هـ / ١٨٧٥ م ٠

٣ ـ الرازي ـ أبو بكر محمد بن زكريا (ت ٣٢٠ هـ) : منافع الأغذية ودفع مضارها ، مراجعة د٠ عاصم عيتاني ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، دار احياء العلوم ، ١٩٨٥ ٠

٤ ـ ابن سينا ـ ابو علي ، الحسين بن علي (ت ٤٢٨ هـ): القانون في الطب (ثلاثة اجزاء) ، بيروت ، دار صادر (طبعة مصورة عن طبعة بولاق ، القاهرة ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٧ م) ، د ت ٠

٥ ـ ابن حجاج الاشبيلي ـ احمد بن محمد (حيا ٤٦٤ هـ): المقنع في الفلاحة ، تح صلاح جرار وجاسر ابو صفية ، الطبعة الاولى ، عمان ، مجمع اللغة العربية الاردني ، ١٩٨٢ ٠

٦ ـ الحاج الغرناطي ـ ابو عبدالله ، محمد بن مالك الطغنري (حياً : ٤٨٠ هـ) : زهر البستان ونزهة الاذهان (مخطوطة مكتبة بلدية قرطبة) ٠

٧ ـ ابن العوام ـ ابو زكريا ، يحيى بن يحيى بن محمد بن احمد الاشبيلي (القرن السادس للهجرة) : كتاب الفلاحة (او الفلاحة في الارضين) ، مدريد ، وزارة الخارجية الاسبانية (طبعة مصورة عن طبعة مدريد ١٨٠٢) ، ١٩٨٨ ٠

٨ ـ ياقوت الحموي ـ شهاب الدين ابو عبدالله ، ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦ هـ) : معجم البلدان ، بيروت ، دار احياء التراث العربي (مصورة عن طبعة مصر) ، ١٩٧٩ ٠

٩ ـ ابن البيطار ـ ضياء الدين ابو محمد ، عبدالله بن احمد المالقي (ت ٦٤٦ هـ) : الجامع لمفردات الادوية والاغذية (اربعة اجزاء في مجلدين) ، دار المدينة (مصورة عن طبعة بولاق ، القاهرة ١٢٩١ هـ/١٨٧٥ م) ، د ت ٠

١٠ ـ الغساني ـ الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول (ت ٦٩٤ هـ) : المعتمد في الادوية المفردة ، (مصورة عن طبعة القاهرة ١٩٥١) ، بيروت ، دار القلم ، دت٠

١١ ـ مؤلف مجهول (القرن الثامن للهجرة) : مفتاح الراحة لأهل الفلاحة ، تح د٠ محمد عيسى صالحية و د٠ احسان صدقي العمد ، الطبعة الاولى ، الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ٠

١٢ ـ الحميري ـ محمد بن عبدالمنعم (ت ٩٠٠ هـ) : الروض المعطار في خبر الاقطار ، تح د٠ احسان عباس ، الطبعة الثانية ، بيروت ، مؤسسة ناصر للثقافة ، ١٩٨٠ ٠

١٣ ـ المقري التلمساني ـ احمد بن محمد (ت ١٠٤١ هـ) : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (سبعة مجلدات والثامن فهارس) ، تح الدكتور احسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٨ ، (المجلد الثالث) ٠

١٤ ـ القوصوني المصري ـ مدين بن عبدالرحمن (ت بعد ١٠٤٤ هـ) : قاموس الاطبا وناموس الالبا (جزءان) ، الطبعة الاولى ، دمشق ، من مصورات مجمع اللغة العربية ، ١٩٧٩ و ٨٠ ٠

ثانيا ـ المراجع :

١٥ ـ قصة الحضارة : ويل ديورانت ، بيروت (مصورة عن طبعة الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية) ، د ت ، الجزء ١٣ ٠

١٦ ـ معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية (انكليزي ـ عربي) ، اعداد احمد شفيق الخطيب ، الطبعة الثانية ، مكتبة لبنان ، ١٩٨٢ ٠

١٧ ـ الابداع الزراعي في بدايات العالم الاسلامي : د٠ اندريو واطسون ، ترجمة د٠ احمد الاشقر ، مراجعة د٠ محمد نذير سنكري ، الطبعة الاولى ، حلب ، معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ، ١٩٨٥ ٠

١٨ ـ زراعة النخيل وانتاج التمور في العالمين العربي والاسلامي : د٠ حسين فتحي احمد ورفيقاه ، القاهرة ، مطبعة جامعة عين شمس ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ٠

١٩ ـ النخيل والتمور بالمملكة العربية السعودية : د٠ طاهر خليفة ورفيقاه ، الرياض ، وزارة الزراعة والمياه ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ٠

غمدان

أول ناطحة سحاب في العالم

مطهر علي الأرياني*

تتحدث معظم المراجع العربيةعن (قصر غُمدان) ، وقد توسع في ذكره كل من المسعودي في مروج الذهب ، والنويري في نهاية الأرب وياقوت في معجم البلدان والبكري في معجم ما استعجم والألوسي في بلوغ الأرب ، وذكره أيضاً عدد من المراجع التاريخية والبلدانية والأدبية وحتى المعاجم اللغوية .

وحديث هذه المصادر عن (غمدان) يجمع بين الحقائق التاريخية الناصعة ، وبين بعض الجوانب الميثلوجية التي تقترن عادة بكل عمل فذ من أعمال الانسان ، فبينما تذكر الروايات القائلة بأن سام بن نوح هو مؤسس (غمدان) وبانيه ، وتلك القائلة بأن جن سليمان هم الذين بنوه للملكة بلقيس ، نجد بعضها يقترب من الحقائق التاريخية فيروي ياقوت عن ابن الكلبي شيئاً مما له مصداقيته في ما لدينا من أصح المراجع وأصدقها وهي نقوش المسند اليمني القديم ، وذلك حين يقول : « قال هشام بن محمد بن السائب الكلبي : إن ليشرح بن يحصب أراد اتخاذ قصر بين صنعاء وطيوة ، فأحضر البنائين والمقدرين ليقدروه ، فانقضَّت على الخيط حدأة فذهبت به فاتبعوها حتى ألقته في موضع غمدان فقال ليشرح : ابنوا القصر في هذا المكان .. » .

(*) باحث ومؤرخ وشاعر من اليمن .

واسم الملك المذكور في الفقرة ، وطبقاً لنقوش المسند هو (إلِي شَرَح يُحْضِب) و (طيوة) اسم مكان غير معروف ، ولكن النص يذكر اسم هذا الملك الذي نجد أن ما بأيدينا من نقوش المسند حتى الآن تذكره كواحد من الملوك الذين تقترن أسماؤهم باسم (غمدان)، وهذا يدل على أن في المؤرخين القدامى من كان يقرأ نقوش المسند ٠

أما أوسع حديث عن (غمدان) فجاء في مؤلفات لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني ، وخاصة في الجزء الثامن من كتابه الاكليل ، وأهمية كلام الهمداني تأتي من أنه مؤرخ يمني ، واليمنيون أعلم بتاريخ بلادهم ، ثم أنه من قدماء المؤرخين ـ (٢٨٠ ـ ٣٦٥ هـ) أي قبلما يزيد عن ألف عام ، رغم أن غُمدان لم يعد له وجود في عصره ٠

والهمداني يذكر روايات الاخباريين الاسطورية التي تقول : إن أول من أسسه وابتدأ بناءه ، هو سام بن نوح ، كما يشير في مكان آخر الى حكاية الجن وسليمان وبلقيس ، ولكنه سرعان ما ينصرف عن ذلك ، ويذكر أول ملك يقترن اسمه ب (غمدان) حيث يقول :

« أول قصور اليمن وأعجبها ذكراً ، وأبعدها صيتاً قصر غمدان في صنعاء ٠٠ وكان ـ الملك ـ شعرم أوتر ـ هو الذي وصل بنيان القصور وأحاط على صنعاء بسور » ٠ والملك شعر أوترم ، أقدم من إلِي شرح يحضب الثاني الذي ذكره ابن الكلبي وياقوت والهمداني أيضاً ٠

وما ذكره الهمداني حول الملوك وغمدان ، يتوافق مع ما بأيدينا من نقوش المسند حتى اليوم ، فشعرم أوتر هو أول ملك يرد ذكره مقترناً بغمدان ، ونقوشه تحدثنا عن انهماكه في البناء والزخرفة والأعمال الهندسية العظيمة الى حد انصرافه عن بعض الواجبات مما يلزمه التقرب الى الاله وطلب الغفران لهذا الانهماك ٠

ويقول الهمداني : « وكان غمدان عشرين سقفاً غرفاً بعضها على بعض ، وكان بين كل سقفين عشرة أذرع ٠٠ وكانت له أربعة أوجه في تربيعه ، وجه مبني بحجارة بيض ، ووجه بحجارة سود ، ووجه بحجارة خضر ، ووجه بحجارة حمر ٠

وكانت غرفة الرأس العليا مجلس الملك اثنتا عشر ذراعاً ، وكانت الغرفة تحت سقف وبيضة ـ قبة ـ من الرخام مؤلفة من ثمان قطع، وكانوا يثقبون ـ يشعلون ـ فيها السُرُج فترى من رأس عجيب ـ مرتفع جبلي على بعد نحو خمسين كيلو متراً شمال صنعاء ـ وفي كل ركن من أركان القصر عند ترابيعه أسد من نحاس رجلاه في الدار وصدره ورأسه خارجان من القصر ، وكل أسد ـ مغضٍ ما بين فيه الى أسفله عن حركات فيه مدبرة ، وكانت الريح إذا هبت تتردد في أجواف تلك الأسود فتزأر عنها ، وكان كل أسد يزأر لهبوب الريح من الجهة المدابرة له فاذا تناوحت الريح زأرت كلها ، وكانت في الغرفة العليا ستور فيها أجراس إذا ضربت الرياح تلك الستور تُسمع الأصوات لتلك الأجراس من بعيد ... وكان الملك إذا استلقى في غرفته ومر به الطائر يستطيع أن يعرف الغراب من الحدأة من خلف الرخام ، وكان محزماً بأطواق من الرخام والمرمر بين كل طابق وآخر » وكان كثيراً ما يتعمم الغمام لارتفاعه وارتفاع مدينة صنعاء .

وذكر الهمداني في الجزء الثاني من الاكليل رأياً آخر يعود بذكر بناء (غمدان) الى زمن أقدم ، وذلك في عهد (إلي شرح يُحْضُب الأول) وابنيه (عمرو ينأر) و (وتار ـ يهأمن) . فهؤلاء كما قال في ص ١٠٢ لهم دور في بناء قصر غمدان ، والهمداني يفرق بين إلي شرح يحضب الأول هذا والى شرح الثاني ، فهو ينص أن الأول من بني الصوّار ـ من حمير) ، أما الى شرح الثاني فهو من (بني جُرَت) ، ويذكر الهمداني أن الابن الأول (لالي شرح الأول) لقب بنسبته الى غمدان فهو (عمرو ينأر ذو غمدان) .

وهذا الرأي لم يتنبه له الدارسون المحدثون ، فهم لا يذكرون إلا شعرم أوتر ثم إليشرح الثاني ، ويهملون إلي شرح الأول ، مع أن نقوش المسند تذكره وتجعله من أوائل ملوك سبأ وذي ريدان في العصر السبئي الثالث ـ ١١٥ ق.م .

ويؤكد الهمداني روايته عن ارتفاع قصر غمدان وأنه كان عشرين طابقاً ، وكان ارتفاع كل طابق عشرة أذرع فيكون الارتفاع الكلي مئتي ذراع . وختم تأكيده بقوله : «ولم يتعذر ـ ذلك عليهم ـ لقدرتهم على كل معجز من البناء» .

وبغض النظر عن عدد الطوابق وقد نص الهمداني على روايات أخرى فان

قصر غمدان كان قصراً شامخاً منيفاً ،ويقدر الدارسون المعاصرون أن ارتفاعه كان لا يقل عن أربعين متراً فوق مدينة صنعاء التي تعلو عن سطح البحر بألفي متر وثلاثمائة متر ، والتي يقول فيها الشاعر الجاهلي عدي بن زيد العبادي وهو جاهلي من أهل الحيرة :

ما بعد صنعاءَ ؟ كان يَعْمُرُها ... ولاةُ ملكٍ جزلٌ مواهبُها
رفعَها مَنْ بنى لدى قزع الـ ... ـمزن وتَنْدى مسكا محاربُها
محفوفةٌ بالجمال دون عرى الـ ... ـكائد تُرتقى غواربُها
يانس فيها صوتُ النهامِ اذا ... جاوبَها بالعشيِّ قاصِبُها

ولهذا يقول الهمداني في (غمدان) :

من بعد (غمدان) المنيف وأهله ... وهو الشفاء لقلب من يتفكرُ
يسمو الى كبد السماء مُصَعّداً ... عشرين سقفا سَمْكُها لا يقصر
ومن السحاب مُعَصَّبٌ بعمامةٍ ... ومن الرخام مُنَطّقٌ ومُؤَزّرُ
متلاحكا بالقِطْر منه صخرة ... والجَزْع بين جُردبهِ والمرمر
وبكل ركن رأس نسر طائر ... أو رأس ليث من نحاس يزأر
متضمنا في صدره (قطّارة) ... ل (حساب) أجزاء النهار تقطر
والطير واقفة عليه وفودها ... ومياهه قنواتها تتهدر

* * *

ولم يكن (غمدان) مجرد قصر ملكي ، بل كان رمزاً من رموز السيادة واكتمال السلطان ، فالملك الذي يتمكن من التربع على العرش في سدة (سلحين) و (غمدان) و (ريدان) يكون قد بلغ قمة السيادة ، وشملت سلطته جميع ربوع اليمن القديم . وظل عدد من الملوك ذوي المكانة الرفيعة ، يضيفون الى غمدان عملا من الأعمال البنائية والتزيينية ليعد ذلك من مفاخرهم ، حتى بلغ منتهى العظمة والفخامة في أوائل القرن السادس الميلادي حين وقعت اليمن في قبضة الأحباش ، ومن هنا أخذ الخراب يحل بقصر غمدان حتى لم يبق منه في القرن الرابع الهجري ، أي في عصر الهمداني ، الا بضعة مداميك ذات أحجار ضخمة مهندمة ومتلاحكة ــ متداخلة ــ تلاحكاً عجيباً حسب تعبيره .

وأول انتقاص لقصر غمدان كان على يد الأحباش في عهدي أرياط وأبرهة لما ألحقاه به ، ولما انتزعه أبرهة من زينته ليزين بها قليسه ـ كنيسته ـ .

وبعد جلاء الأحباش أعيد للقصر اعتباره فتربع الملك سيف بن ذي يزن على سدة العرش فيه ، وكان ممن زاره وهنأه على تسنم عرش اليمن عبدالمطلب بن هاشم جد الرسول (ﷺ) ، وأمية بن أبي الصلت الذي مدحه بقصيدة مطلعها :

لا يطيب الثار الاّ كابن ذي يزن أغـذّ في البحـر للأعـداء أحوالا

وفيهـا يقـول :

فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقا في قصر (غمدان) داراً منك محلالا

ويبدو أن هذه المكانة المستعادة لقصر غمدان استمرت في فترة الحكم الفارسي لليمن ، ونزله الولاة من الفرس عندما حل الاسلام ، وحينما ثار عليهم عبهلة بن كعب العنسي ، احتل غمدان وفيه قتل .

ثم جاء المتطرفون والمتزمتون دينياً ـ ولكل عصر متطرفوه ـ فزعموا أن الاشارة الى قصر غمدان في الآية القرآنية (**لا يزالُ بُنْيانُهم الذيْ بَنَوا رِيْبَةً في قلوبِهِم**) ، ثم الاشارة في قوله تعالى (**أتبْنُونَ في كلِّ ريْعٍ آيةً تَعْبَثُونْ ، وتتّخِذونَ مَصانِعَ لَعلّكُم تَخْلِدُون**) انما هي ايذان بهدمه ، ثم زعموا أن الرسول (ﷺ) أمر بهدمه ، ثم نسبوا مثل ذلك الى عمر بن الخطاب (رض) ، أما عثمان (رض) على زعمهم فيقولون انه كلف الولاة بهدمه وقال : لا يزال أهل اليمن يجدون في أنفسهم عزة ما نظروا اليه ، فهدموه .

وهكذا أخذت معاول التعصب والتزمت الديني تعمل في قصر غمدان تخريباً ويقال انهم وجدوا فيه رخامة مكتوبة بالسند : (اسلم غمدان هادمك مقتول) ، وقيل ان الكتابة كانت على خشب بالرصاص المصبوب .

ولم ينته عهد عثمان حتى كان القصر قد أصبح خراباً ، قال الهمداني :

« ولم تزل حمير تنزله وتزيد فيه حتى أُخرب في أيام عثمان ... وقد بقي من حدّ غمدان القديم قطعة ذات جروب متلاحك عجيب قبالة البابين الأول

والثاني من أبواب الجامع ـ جامع صنعاء الكبير ـ الشرقية ، وكثير مما حوله من منازل الصنعانيين فمنه بُنيت ·· وباقيه كالتل العظيم » ·

ان الألوف الخمسة عشر من نقوش السند المتوفرة بين أيدي الدارسين حتى الآن ، ليست الا نقوشاً سطحية ، وصلت الى أيدينا عن طريق التجوال الشخصي، أو أهدتها لهذا الباحث أو ذاك (محاسن الصدف) ، حيث لم يقم حتى الآن تنقيب أثري في اليمن عدا تلك العملية المبتسرة التي قامت بها على وجل بعثة (ويندل فيليبس) عام /١٩٥٢/ وكان حصادها نحواً من ثلاثمئة نقش من بهو معبد واحد في مأرب ·

وكان من طقوس اليمنيين القدماء ،ألا يقوموا بأي عمل من أعمال البناء ، حتى يسجلوا ذلك على لوح حجري يدخل في صميم البناء وفي أبرز مكان فيه ، ولكننا لم نعثر حتى الآن على النقش التخليدي الخاص بقصر غمدان والذي لا نكاد نشك في وجوده تحت الأرض ان لم تكن معاول التحطيم قد نالته ·

ولتقريب صورة غمدان من الأذهان، نقتطف جزءاً من نقش يتحدث فيه الملك (شرحبيل) يُعفِر ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة وأعرابهم طودم وتهامتم) على بناء قصر في ظفار منكث عاصمة حمير ، ولم يكن لهذا القصر أي شهرة ، بل لم يكن معروفاً ، ولم يذكره أي مصدر من المصادر العربية رغم تأخر عصر بنائه ـ ٤٥٧/م أثناء حكم هذا الملك ـ حتى ساقته اليَّ محاسن الصدف أثناء جولة قمت بها في ظفار عقب سيل كشف عنه ، ونشرته مع المستشرق الايطالي جيوفاني غاربيني عام ١٩٦٩ ،في دورية تصدر عن جامعة نابولي · يقول النقش :

(ان شرحبيل يعفر ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة وأعرابهم في جبال عسير وتهامتها ، بن أبي كرب أسعد ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة وأعرابهم في جبال عسير وتهامتها ، يعلن أنه أنشأ وأسس وبنى وأكمل قصره المسمى (هرجام) من مواثره ـ أساساته ـ الى قمته ، فسمق به وشاد أركانه وعلّى سقوفه ، وطلاه بالجير من الداخل، وزينه به من الخارج ، وأوسع لهوجه ـ نوافذه ـ وأبدع في سطحه مَفرجاً ـ غرفة جلوس تطل على مناظر جميلة ـ

وأمده بالماء عبر قناة منحوتة في ميازيب لها شكل أعناق الثيران ورؤوسها ، وبين رؤوس الثيران تماثيل لأسود وأجراس من البرونز الذي بلون الذهب ، وكلها مزخرفة بالزخارف الجميلة ، وجعل فيه بهو استقبال ومجال ندوة واسعاً أقامه مظللا بسقف مزخرف على أعمدة مزخرفة ، ثم انه نصب في أرجاء القصر وحوله تماثيل لأناس ولأوعال ولأسود ولنمور ، وكلها من البرونز الذهبي النفيس • وفي هذا الوقت نفسه فان الملك شرحبيل يعفر يعلن أنه قام أيضاً بترميم وتجديد وتنظيف العرم الذي في مأرب ــ سد مأرب ــ بكل أجزائه وبصدفيه ومصارفه ، ومن البدء الى الختام ، وتم له كل ذلك في عام واحد ، وذلك بنصر وعون الرحمن رب السماوات والأرض ، وبقوة ورفد شعبه وخميسه سبأ وحمير وحضرموت ويمنة ، وسطر هذا في شهر ذي ايلان سنة ٥٧٣ » •

وهذا التاريخ اليمني القديم يقابل ٤٥٧ م • ونقول : انه اذا كان هذا هو ما صنعه الملك شرحبئيل يعفر في قصر ثان بناه بجانب القصر القديم (ريدان) في ظفار ، فماذا كان في قصر ريدان ؟؟ • واذا كان قصر (غُمدان) أشهر من قصر ريدان ، فماذا كان في قصر غمدان ؟؟ •

وهذا هو ما تبادر الى ذهن كاتب المقال ، حينما قرأ خبراً نشرته جريدة الثورة يوم الأحد ٢٤/١٠/١٩٩٣ عن قرار جمهوري صدر في صنعاء تلبية لخطة وزارة الثقافة ، ويقضي بانشاء (قصر غمدان للثقافة والفنون والسياحة) بالقرب من موقع القصر القديم ، والحمد للرحمن رب السماوات والأرض ، فقد اكتملت دورة الزمان بغمدان ، وارتفعت عقارب ساعته من حضيض النقصان الى أوج السعادة والتمام ، وهذا هو ما أوحى بكتابة هذا المقال ، تذكيراً للقارىء العربي برمز عظيم من رموز تاريخه القديم •

دمشق في ١٩٩٣/١٠/٢٧

مُطهَّر علي الارياني

★ ★ ★

من تاريخ قنسرين

علي جمعة الخويلد*

إلى الجنوب الغربي من حلب وعلى بعد ثلاثين كيلو متراً تقع مدينة قنسرين وليس ثمة أثر لمدينة انما هي تلال عالية من التراب • هي أطلال تلك المدينة العظيمة وقد طمرتها الأتربة •

كانت في يوم من الأيام عاصمة الأقطار الحلبية • وقبل الفتح الاسلامي ضارعت انطاكية عظمة واتساعا وفخامة بناء • وظلت كذلك بعد الفتح الاسلامي ، وتقوم اليوم على أطلالها قرية صغيرة تسمى العيس ، أرجو أن يتاح لمديرية الآثار أن تقوم بالحفر في هذه المنطقة لتكشف عن كثير من آثار هذه المدينة العريقة الغريقة تحت التراب •

□ تسميتها :

قال أبو بكر بن الأنباري : أخذت من قول العرب قنسري أي مسن •

وأنشد للعجاج :

أطرباً وأنت قنسريّ   والدهر بالانسان دوّاري

وأنشد غيره :

وقنسرته أمور فاقسأن لها   وقد حنى ظهره دهرٌ وقد كبرا

(*) مهندس من سوريا •

وفي إعرابها وجهان يجوز أن تجريهامجرى قولك الزيدون فتجعلها في الرفع بالواو وتقول هذه قنّسرون وفيالنصبوالخفض بالياء فتقول مررت بقنسرين ورأيت قنسرين والوجه الآخر أن تجعلهاباالياء على كل حال وتجعل الاعراب في النون ولا تصرفها(١) ٠

وقال آخرون دعا أبو عبيدة بن الجراح ميسرة بن مسروق العبسي فوجهه في ألف فارس في أثر العدو فمر على قنسرينفجعل ينظر اليها فقال ما هذه فسميت له بالرومية ٠ قال : والله لكأنهـا قنسرونفسميت قنسرين ٠ وهذا الخبر يدل على أن قنسرين اسم مكان آخر عرفه ميسرةالعبسي فشبهه به(٢) ٠

وقنسرين كلمة آرامية بمعنى عش(وكر) النسور(٣) وهناك ما يدل على صحة هذه التسمية وجود بعض النقوشلنسور على مداخل المغاير الموجودة ٠

أما الاغريق فقد كانوا يسمون قنسرين بـ خالسيس Khaleis وهي تعني النحاس(٤) ٠أما الروم فقد سموهاخلكيسوكانت كرسياً اسقفياً نصّب بها ثلاثة عشر أسقفا الى أيام الفتح الاسلامي ٠وقد دعيت بالعبرانية صوما وأن اسمها في التوراة كذلك فسميت بعد ذلك قنسرين(٥) ٠

ويقال لقنسرين هذه قنسرين الأولى أما قنسرين الثانية فهي حيار بني القعقاع(٦) ٠

□ فضل قنسرين :

عن أبي زرعة عن عمرو بن جريرعن النبي ﷺ قال : « ان الله عز وجل أوحى اليّ أيّ هؤلاء الثلاث نزلت فهيدار هجرتك ـ المدينة أو البحرين أو قنسرين » أخرجه الطبري والترمذي(٧)٠

وفي أعلى الجبل المجاور لقنسرين مشهد يقال إنه مقام النبي صالح عليه السلام ويغلب الظن أن هذا المشهد من بناء صالح بن علي بن عبد الله بن العباس(٨) فان ولاية الشام كانت اليه ولهآثار بحلبوقنسرين فنسباليه وينسبونه أيضاً الى العيص بن اسحق ولذا تسمىالقرية بالعيس حسب لفظ أهلها وينسب الى قنسرين جماعة أثبتهم في الحديثالحافظ أبو بكر محمد بن بركة بن الحكم

بن ابراهيم بن الفرواج الحميري اليحصبي القنسريني المعروف ببر داعس سكن حلب ثم قدم دمشق وحدث بها .ويوسف بن سعيد بن مسلم وهلال بن أبي العلاء الرقي وأبي زرعة الدمشقي وخلق كثير سواهم[٩] .

□ قنسرين قبل الفتح الاسلامي :

يقال أن الذي بنى قنسرين وفاميه وحلب هو سلو قس الأول[١٠] (انطياخوس) أحد قادة الاسكندر واليه ينتسب السلوقيون[١١] .

ويقال أيضاً أن بطليموس الأريب لم يرض أن ينزل منزلاً لغيره فسار الى موضع مدينة قنسرين فأمر القواد أن يأمروا من قبلهم بتحويط منازلهم وأخذ كل واحد ببناء ما حوطه فبنى قنسرين وسماها مدينة العسكر ونقل الأسواق من حلب اليها ولم يبق بحلب إلا من لا حاجة للعسكر اليه . وأنه أمر أن ينفق على القناة الآتية اليها فأنفق نائبه مالاً وأجرى الماء فيها من عين المباركة بقرب حلب الى مدينة قنسرين[١٢] . وكانت القناة قد سيقت تحت الأرض الى أن انتهت الى القناطر وهي قرية من عملها فعقدت لها قناطر رفيعة ورفع ماء القناة فوقها الى أن انتهى الى مكان مرتفع فسيقت تحت الأرض الى مدينة قنسرين وكان شرب قنسرين منها[١٣] .

وكانت القوافل التي تأتي من البحر الى الفرات ومن الفرات الى البحر كان طريقها الى قنسرين ولم تكن حلب حينئذ ممراً لهم لأنها كانت مدينة صغيرة . ولم يوجد بها ما يوجد في قنسرين من صناعات وغيرها فبناءً على ذلك تركوا توسيعها لأن قنسرين كانت محطاً لرحال التجار وتقصدها القوافل والركبان حتى أن تجار أوربا كانت تأتي إليها من السويدية في طريق انطاكية .

وتأتي إليها تجار العجم من الفرات بطريق بالس المسماة الآن مسكنة يجتمعون فيها كل سنة مرتين يبيعون فيها أموالهم .

ولم تكن الطرق في ذلك الوقت سالكة الى حلب إلا من يقصد الذهاب الى منبج فيكون طريقه الى حلب .

وكانت منبج إذ ذاك مقر صنم كبيراسمه تركيد ويعبده أهلها وكانت تسمى هيرابلس[١٤] وفي سنة خمسمائة وأربعين دخلت قنسرين الأعاجم وملكتها بقيادة الملك كيرويس الشرواني[١٥] وأحرقوها مع انطاكية ومنبج أما حلب فان بطركها ميكاس صالحهم على دراهم دفعها لهم فتركوها ثم بعد أن أحرق البلاد المذكورة وعمر سوق حلب رجع الى بلاد العجم عن طريق مسكنة ·

□ فتح قنسرين :

لما فتحت دمشق الشام في أيام عمر بن الخطاب بعد وفاة النبي محمد ﷺ وبعد وفاة أبي بكر الصديق على يد أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وأصحابهما وذلك سنة خمس عشرة من الهجرة الموافقة لسنة ستمائة وثلاث وثلاثين من التاريخ الميلادي في أيام الخريف ونزعوها من أيدي الروم ورتبوا أمرها رحلوا عنها وساروا الى حمص وحماه وقنسرين وبعدها حاصروها مدة قليلة أخذوا حمص وحماه ·

أما قنسرين فقد بعث أبو عبيدة بن الجراح خالد بن الوليد اليها فلما نزل بالحاضرة (حاضرة قنسرين) زحف لهم الروم وعليهم ميناس وهو رأس الروم وكان أكبر ملوكهم بعد هرقل فالتقوا بالحاضر فقتل ميناس ومن معه مقتلة لم يقتلوا مثلها ومات من الروم خلق كثير[١٦] ·

وأما أهل الحاضر فكانوا من تنوخ نزلوا الشام وأقاموا في شمالها في خيم من الشعر ثم ابتنوا المنازل فأرسلوا الى خالد بن الوليد أنهم عرب وأنهم لم يكن من رأيهم حربه فقتل منهم وترك الباقين · ودعاهم أبو عبيدة بعد ذلك الى الاسلام فأسلم بعضهم وأقام بعضهم على النصرانية فصالحهم على الجزية وكان أكثر من أقام على النصرانية بنوا سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وحاضر قنسرين هي الآن قرية الحاضر[١٧] ·

ثم أن خالداً نزل على قنسرين فقاتله أهلها ثم لجؤوا الى حصنهم فتحصنوا فيه فقال لهم : لو كنتم في السحاب لحملنا الله عليكم أو لأنزلكم إلينا ثم أنهم نظروا في أمرهم وذكروا ما لقي أهل حمص فطلبوا منه الصلح فصالحوه على صلح حمص ·

وغلب المسلمون على جميع أرضها وقراها وذلك سنة ست عشرة للهجرة[١٨]

ولما توجه أبو عبيدة الى حلب بلغه أن أهل قنسرين قد نقضوا عهدهم فرد اليهم السمط بن الأسود الكندي فحصرهم ثم فتحها فوجد فيها بقراً وغنماً فقسم بعضها فيمن حضر وجعل الباقي في المغنم ٠

□ قنسرين بعد الفتح الاسلامي:

كان من نتائج اهتمام الأمويين بمحاربة الدولة البيزنطية براً وبحراً أن اتجهوا الى جعل قنسرين جنداً مستقلاً عن جند حمص ٠

وكانت قنسرين وحلب مضافتين الى حمص فأصبحت حلب مضافة الى قنسرين حتى نهاية الدولة الأموية ثم تدرجت حلب في العمارة وقنسرين في الخراب حتى صارت مضافة الى حلب في أيام بني العباس ٠

واختلف المؤرخون فيما إذا كان معاوية هو الذي فصل قنسرين عن حمص أم ابنه يزيد ويذكر البلاذري أن قنسرين وكورها كانت مضمومة الى حمص حتى خلافة يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وانطاكية ومنبج جنداً[١٩] ٠

فلما استخلف هارون الرشيد (أيام الدولة العباسية) أفرد قنسرين بكورها فصير لها جنداً واحداً وأفرد منبج ودلوك ورعبان وانطاكية وسماها العواصم لأن المسلمين يعتصمون بها في الثغور[٢٠] ٠

وقد جمعت الثغور الى الشام وبعض الثغور كانت تعرف بثغور الشام وبعضها كانت تعرف بثغور الجزيرة وكلها من الشام ، ذلك أن كل ماكان وراء الفرات ٠ فمن الشام وثغور الجزيرة من ملطية الى مرعش لأن أهل الجزيرة كانوا يرابطون ويغزون فيها لا لأنها من الجزيرة وأعمالها وكور الشام هي جند فلسطين وجند الأردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرين والعواصم والثغور[٢١] ٠

أما قنسرين فقصبتها حلب ومن مدنها انطاكية وبالس ـ السويدية ـ سميساط ـ منبج ـ التينات ـ مرعش ـ اسكندرونة وشيزر ومعرة النعمان ووادي بطنان[٢٢] ٠

وما زالت قنسرين آهلة بالسكان الى أن كانت سنة ٣٥١ هـ غلبت الروم على حلب بقيادة نقفور وقتلت جميع من كان يربضها فخاف أهل قنسرين وتفرقوا في البلاد فطائفة عبرت الفرات وطائفة نقلها سيف الدولة الى حلب وقال بعضهم كان خراب قنسرين في سنة ٣٥٥ هـ قبل موت سيف الدولة بأشهر كان قد خرج اليها ملك الروم وعجز سيف الدولة عن لقائه فأمال عنه وجاء الى قنسرين وضربها وأحرق مساجدها(٢٣) .

ثم عمرت مرة أخرى وتراجع سكانها اليها واستمرت الى سنة ٣٨٩ هـ فغزاها الروم وضربوها ورحلوا عنها فجاء اليها بنو البصيص التنوخيون من أمراء جبل لبنان وعمروها ثم خربها الروم أيضاً عند قصدهم حلب سنة ٤٢٢ هـ ثم عمرها سليمان بن قتلمش وتحصن بها سنة ٤٧٩ هـ ثم ضربها تاج الدولة تتش السلجوقي لما قتل سليمان المذكور .

وفي سنة ٥٦٤ هـ نقل نور الدين بن زنكي أعمدة سورها الى جامع حلب وبناها به وأخذ الناس حجارتها لعمائرهم .

وقد زار قنسرين الرحالة ابن جبير الأندلسي في سنة ٥٨٠ هـ فقال : وهذه البلدة المشهورة في الزمان لكنها خربت وعادت كأن لم تقهر بالأمس فلم يبق إلا آثارها الدارسة ورسومها الطامسة وتشبهها من بلاد الاندلس (جيان) لذلك نذكر أن أهل قنسرين عند استفتاح الأندلس نزلوا جيان .

ولمحمد بن علي العشايري المتوفي سنة ٧٨٩ هـ كتاب سماه (تاج النسرين في تاريخ قنسرين) لم يعثر عليه .

☐ **الحواشي :**

١ ـ معجم البلدان ـ الجزء السابع ـ ص ١٦٩ ـ الكامل : للمبرد ـ ص ٦٣٤ .
٢ ـ معجم البلدان ـ الجزء السابع ـ ص ١٦٩ ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ـ الجزء الأول ـ ص ٧١ ـ كتاب نهر الذهب في تاريخ حلب ـ الجزء الأول ـ ص ٣٦١ .
٣ ـ موسوعة حلب المقارنة ـ المجلد السادس ـ ص ٢٦٤ .
٤ ـ تاريخ حلب ـ الجزء الأول ـ صبحي الصواف ـ ص ١٢ .
٥ ـ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ـ ابن الشحنة ـ ص ١٦٢ .
٦ ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ـ ابن العديم ـ الجزء الأول ـ ص ٧٤ .
٧ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ المقدسي ـ ص ١٥٦ ـ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ـ ص ١٦ ـ معجم البلدان ـ الجزء السابع ـ ص ١٦٩ ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ـ الجزء الأول ـ ص ٧٢ .

٨ ـ صالح بن علي بن عبدالله بن عباس الهاشمي عم السفاح والمنصور وأول من ولي مصر من قبل الخلفاء العباسيين ثم أقره أبو جعفر المنصور بالجزيرة فكانت له الديار الشامية كلها ، مولده بالشراة سنة ٩٦ هـ ، ووفاته بقنسرين سنة ١٥١ هـ ٠

(أنظر كتاب الأعلاق الخطيرة ـ ج ١ ـ قسم ١ ـ ص ١٧٠)

٩ ـ معجم البلدان ـ الجزء السابع ـ ص ١٧٠ ٠

١٠ـ زبدة الحلب في تاريخ حلب ـ ص ١٥ ٠

١١ـ السلوقيون : سلالة أسسها سلوقس الأول أحد قادة الاسكندر (٣١٢ـ٦٤) ق٠م ، أخذ ملوكها اسم سلوقس أو أنطياخوس وعرفوا بملوك سوريا امتدت مملكتهم الى آسيا الصغرى وفلسطين وبلاد ما بين النهرين ، ساهم السلوقيون في نشر الحضارة الهلنسية في الشرق فأسسوا مدنا كثيرة لهذا الغرض أصبحت من مراكز التفاعل بين الحضارتين الاغريقية والشرقية ٠

(تحفة الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ـ ص ١٤)

١٢ـ زبدة الحلب في تاريخ حلب ـ ص ٢٠ ٠

١٣ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ـ المجلد الأول ـ ص ٧٢ ٠

١٤ـ تحفة الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ـ ص ١١ ٠

١٥ـ كريوس الشرواني : يقصد به كسرى الأول (خسرو) الملقب كسرى انو شروان ٠

١٦ـ زبدة الحلب في تاريخ حلب ـ ص ٢٥ ٠

١٧ـ نهر الذهب في تاريخ حلب ـ الجزء الأول ـ ص ٣٦١ ٠

١٨ـ زبدة الحلب في تاريخ حلب ـ ص ٢٧ ٠

١٩ـ زبدة الحلب في تاريخ حلب ـ ص ٢٩ ٠

٢٠ـ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ـ ابن الشحنة ـ ص ٩ ـ الأعلاق الخطيرة ـ الجزء الأول ـ القسم الثاني ـ ص ٣٥٣ ٠

٢١ـ صورة الأرض ـ ابن حوقل ـ ص ١٥٤ ٠

٢٢ـ احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ ص ١٥٤ ـ المسالك والممالك ـ ابن خرداذبة ـ ص ٧٥ ٠

٢٣ـ الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب ـ ص ٣١ ٠

☐ أهم المصادر والمراجع :

١ ـ معجم البلدان ـ الامام شهابالدين أبي عبدالله ياقوت الحموي ٠

٢ ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ـ المجلد الأول ـ المولى الصاحب كمالالدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبةالله ابن العديم ـ حققه وقدم له الدكتور سهيل زكار ٠

٣ ـ نهر الذهب في تاريخ حلب ـ كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى البابيالحلبي المشهور بالغزي ٠

٤ ـ موسوعة حلب المقارنة ـ خيرالدين الأسدي ٠

٥ ـ تاريخ حلب ـ حلب قبل الاسلام ـ ج ١ ـ صبحي الصواف ٠

٦ ـ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ـ قاضي القضاة أبي الفضل محمد بن الشحنة ٠

٧ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ شمسالدين المقدسي ٠

٨ ـ زبدة الحلب في تاريخ حلب ـ المولى الصاحب كمالالدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبةالله ابن العديم ٠

٩ ـ تحفة الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ـ تيودور بيشون ـ ترجمة وتحقيق : د٠ شوقي شعث ـ الأستاذ فالح بكور ٠

١٠ـ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ـ ابن شداد ـ حققه : يحيى زكريا عبارة ٠

١١ـ صورة الأرض ـ أبي القاسم بن حوقل النصيبي ٠

١٢ـ المسالك والممالك ـ ابن خرداذبة ٠

١٣ـ الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب ـ الدكتور محمد أسعد طلس ٠

وجهاً لوجه أمام المرآة

د. عبد الكريم اليافي*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين القائل في محكم كتابه « وهُدوا الى الطيّب من القول وهدوا الى صراط الحميد » والصلاة والسلام على سيّد المرسلين الذي أوتي جوامع الكلم .

أيها الحفل الكريم ، أيها السادة والسيدات ، أيها الاخوة والأخوات ، أيها الزملاء الأحبة :

وبعد فاني أشكر راعي الحفل المهندس محمد ناجي عطري محافظ حمص وأمانة الفرع ، ومجلس المدينة ، ومجلس الفعاليات الثقافية وأبناءنا الذين تنادوا لاقامة هذا الحفل البهيج ، وأشكر السادة الخطباء الأعزة الذين أغدقوا عليّ من الصفات والتكريم فوقما أستحقه . أشكرهم جميعاً لأنهم أتاحوا لنا هذا اللقاء السنيّ البهيّ ، وجعلوني أحظى برؤية هذه الوجوه الكريمة النيّرة

(*) كرّمت مدينة حمص برعاية محافظ المدينة في مستهل مهرجانها الثقافي الفني الثالث عشر ابنها الأستاذ الدكتور عبدالكريم اليافي رئيس تحرير مجلة « التراث العربي » على مسرح دار الثقافة مساء السبت ٢٩/١٠/١٩٩٤ . والقى الأستاذ محمد راتب الحلاق والأستاذ الدكتور عبدالاله نبهان والشاعر ممدوح فاخوري والأستاذ الدكتور طيّب تيزيني والدكتور زهير جبور كلمات جميلة أضاءت حفل التكريم فوق أضواء الحفل الذاتية . وهذه كلمة رئيس التحرير رسم فيها صوراً من نشاته وسيرته الذاتية العلمية والأدبية .

التي تُحَدِّث عن عراقة محتد ، وأصالة مولد ، ونبل مقصد ، ورفعة مصدر ومورد . وأرجو أن أكون دائماً عند حسن ظنهم • انهم أبوا إلاّ أن يكونوا أوفياء للعلم ، أمناء على المواطنة ، خلصاء للأدب ، أقرباء في نسب التعليم • وقد قل منهم من ليس بيني وبينه واشجة أدب ، وصلة تعليم ، ورابطة ثقافة •

أنا أعلم أن هذا التكريم الذي خصصتموني به انما هو في الحقيقة تكريم لكم • فأنا منكم • وكل ثناء يأتيني فهو عائد اليكم تجدون صوره في أنفسكم ، وتقرؤون درره في سرائركم • أما أنا فيجعلني أشعر بتقصير حصل من جهتي ، أو سهو وقعت فيه أو جانب غفلت عنه •

اني من الناس الذين يرون أن الناس جميعاً متكافئون في الامكانات الطيبة المتفاوتة ، وأن هذه الامكانات في تكافئها متتامة ، وأنها بمثابة السبل أو الطرق الصاعدة • فأردد مع صوفي قديم قوله : « الطرق الى الله بعدد نفوس بني آدم • » وعلى كل منا أن يجد طريقه الصاعد الخاص به نحو التقدم والعلاء ، ونحو التكامل والنماء •

ويكاد يكون هذا القول متضمناً في الحديث الشريف : « **كلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له** • » أي مهيأٌ لما خُلق له قابل له • فالتعدد في الطرق مؤدٍّ الى الوحدة والتباين سبب الالتئام ، والاختلاف داعٍ الى الاتفاق •

وانما الانسان بالاخوان   واليد بالساعد والبنان

واني لأشعر كأنما كلفتموني تلقاء هذا الحفل أن أعرض عليكم ثبتاً بمراحل من تكرمونه مرسومة بقلمه في مقابل ما سمعتموه كالدرر من أفواه أحبته وخلصائه • وأرجو أن أكون موضوعياً ما استطعت ، ومفيداً ما تيسرت لي الافادة • وفي حياة كل امرىء عظة وعبرة وفائدة وتجربة •

نشأ في طفولته مهملاً بين اخوته اذ كان أقل منهم ذكاءً عملياً • فلم يكن أهلوه يكلفونه شراء سلعة أو شيء ما من حوانيت الحي القريب • ولكنهم كانوا يحبونه لبساطته ولحساسيته المفرطة ولحيائه العميق الذي كاد أن يكون مَرَضياً •

ولما كان قد وصل الى سن التعليم أرسله والده الى الكتّاب القريب في الحي. وكان شيخ الكتّاب مشهوراً بشدته وقسوته كما شهر بمهارته في فنون الخط العربي • وقد أسبل هذا الجو القاسي الشديد على دماغ فتانا ستراً صفيقاً دون الوصول الى تهجّي الأبجدية التي كانت مكتوبة بخط الشيخ • وشهر بين رفاقه الصغار وعند أخيه الذي كان يدرسه الأبجدية في الكتاب بلفظ كان شائعاً بين التلامذة إذ ذاك ، وهو أنه طرماخ •

وقد انقرض هذا اللفظ مع انقراض كتاتيب حمص • ولكنه بقي منقوشاً في ذاكرته • ولما لم يستفد شيئاً في هذا الكتّاب نُقل الى كتّاب أبعد يختلف عن الكتّاب السابق في أن شيخه كان دمث الحاشية هيّن الادارة تسود الجوّ فيه حرية واسعة • فتُرك هو وشأنه في هذا الجو الحر • وأخذ ينظر الى زملائه المتقدمين في حسن الخط والكتابة ويقلدهم حتى صار خطه في الجودة مثل خطوطهم فنفسوا عليه هذا التقدم السريع وهو أصغر سناً منهم • وكأنه شعر بما تكنه صدورهم فلم يحفل ذلك ولا ألقى اليه بالاً •وأظن ذلك كله في أوائل العشرينيات من هذا القرن • وشاع في المدينة افتتاح المدارس الرسمية في عهد الاستقلال • فرأى أبواه إرساله الى مدرسة الارشاد الابتدائية • وكان قد انغمس قبلاً في الالمام بجوانب التراث في جو البيت ليالي الشتاء حين يجلس الأهل بعد العِشاء والعَشاء فيقرأ أحد إخوته أضاميم وكتباً من السير الشعبية ويتذكر خاصة سيرة عنترة بن شداد وسيرة علي الزئبق. والى جانب ذلك حفظ أسماء الأنبياء واستظهر بالسماع بعض آيات القرآن الكريم ومواقعها في بعض السور ، كما وصل الى سمعه أخبار الشعراء والعلماء وأصحاب المذاهب الدينية وغيرهم في ذلك الجو الأهلي • وكان يرغب في سريرة نفسه أن يكون واحداً منهم شاعراً حيناً وعالماً حيناً آخر وفيلسوفاً طوراً وكاتباً مشهوراً تارة أخرى • أما النبوة فقد فهم أنها ختمت نهائياً • ومع قوة جسمه الطفولي كان يعجب بعنترة وبأخيه شيبوب ولكن لم يكن يريد أن يكون بطلاً يقاتل الناس • كان يحب الانفراد والسلام ويكره الزحام والخصام وتهتز مشاعره لما كان فكراً عالياً وعاطفة سامية • وكان يستمع الى ما كان يراه بعض الناس من رؤى في المنام • ويذكر في شبابه أنه حين كان في سن الطفولة رأى فيما يراه النائم الرسول عليه الصلاة

والسلام . فأسرع يقبّل يده وهو في أرض قفر ليس فيها نبات فقذفه الرسول الى أرض بجانبها خضراء وارفة بالنبات الغض . ويقول هو عن نفسه : منذ ذلك الوقت تفتّحت له آفاق الفهم . فكان دماغه بعدئذ يلتقط أي التقاط كل ما يسمع من فوائد علمية وأدبية . في عطلة الصيف بعد الصف الثالث الابتدائي وضعه والده في مدرسة خاصة لا تغلق أبوابها في العطلة هي مدرسة طاهر أفندي في جورة الشياح كانت تعلم اللغة الفرنسية الى جانب اللغة العربية وبعض الدروس العلمية . وكان بين معلميه نخبة من الأدباء والشيوخ يذكر منهم الشيخ عبد الكريم أتماز السباعي مدرس النحو والأديب الشاعر محيي الدين الدرويش والأستاذ عبد الرزاق الدرويش كما كان يختلف الى المدرسة الأديب الشاعر الحمصي نبيه سلامة الذي آثر الهجرة بعد حين الى أمريكا الجنوبية . وفي هذا الجو الأدبي العربي دخل قلب الفتى حب الشعر والأدب. كان الشيخ السباعي من المشهورين في تعليم النحو . يدرسه في حلقات الجامع الكبير بحمص فوق تدريسه له في تلك المدرسة . فكان ذلك اليافع يتملك في السماع عليه شذرات من « شذور الذهب » ويشتف قطرات من « قطر الندى » وهما الكتابان لابن هشام اللذان كان يعتمدهما الشيخ في تدريسه للتلاميذ الصغار في المدرسة الابتدائية . وكان الأستاذ عبد الرزاق الدرويش يعتمد في درس القراءة كتاب « أدب الدنيا والدين » للامام الماوردي وهو غير مشكول وذلك في الصف الرابع الابتدائي. وعلى التلميذ الذي يأتي دوره في القراءة ألاّ يلحن . كل ذلك والفتى يلتقط صامتاً وبصورة عفوية فوائد اللغة والأدب والشعر . أما هذا الشعر فكان يتدفق غدقاً على لسان محيي الدين الدرويش ، واشتهر معه إذ ذاك شاعران شابان كانا كوكبي الشعر في حمص هما رفيق الفاخوري ورضا صافي . ولم يمض قليل من الزمن حتى أدرك معلمو الفتى ورفاقه حسن انتباهه وقوة حافظته فكان المعلم إذا سأل التلاميذ إعراب لفظ طلب اليه أن يبقى ساكتاً فلا ينطق ثم يسأله فيجيب. ثم غدا الفتى إذا سئل استحيا من أن يجيب تجاه رفاقه فكان يتظاهر بالصمت وعدم المعرفة . وتلك خلة بقيت ملازمة له طول حياته . فهو يكره التبجح والتنفج وإنما كان يكفيه أن يعرف أنه يعرف .

يتذكر أن الشيخ عبد الكريم السباعي لما رآه يختلف في تفرده عن بقية التلاميذ مع ألفته لهم ناداه فقال له :سوف تبعث أمة وحدك كما جاء في الأثر أن سيدنا ابراهيم سوف يبعث أمة وحده • لم يفهم الفتى هذا التشبيه ولكنه بقي يرن في ذاكرته حتى اليوم •

وساقت صروف الزمان بعد حين الى المدرسة معلماً للرياضيات أتى من فلسطين فكُلِّف تدريس التلاميذ هذه المادة •وكان هؤلاء في الصف الخامس الابتدائي• والغريب أنه بدأ معهم بتدريس الجبر فعلمهم إتقان التراكيب الجبرية والمعادلة الأولى • وكان ذلك فرصة نادرة للفتى إذ انشرح صدره للرياضيات الى جانب اللغة والنحو والأدب •

ولما تقدم الى فحص الشهادة الابتدائية لا يتذكر ماكتب ولا ما أجاب••ولكنه قيل له انه نال الشهادة بدرجة جيد جداً وكان الأول فيها •

دراسته في تجهيز حمص أي في المرحلتين الاعدادية والثانوية شيء آخر • انه يملك مفتاحين مهمين سحريين لجميع الدراسات إنسانية كانت أو موضوعية ، نقلية أو عقلية • وهما ملكة البيان العربي وملكة التعبير الرياضي ،فسهّل ذلك له كل عسير ، وهوّن كل صعب ،وذلّل كل حرون •

ويذكر مرة أن الأستاذ المرحوم ناجي أديب خريج الأزهر الشريف دخل على الصف الثامن الذي كان الفتى من تلامذته وهو يسائل هل حسان مصروف أو ممنوع من الصرف فأجابه الفتى فوراً :هو مصروف إن كان مشتقاً من الحسن وممنوع من الصرف إن كان مشتقاً من الحس لزيادة الألف والنون • ولما دخل الى فحص الاستظهار الشفهي في آخر السنة الدراسية وضع له الأستاذ الدرجة الكاملة وامتنع عن طرح أي سؤال عليه قائلاً :لا حاجة الى فحص من يعرف إعراب حسان •

كان دائماً صديقاً لزملائه يعاونهم• ويذكر مرة أن أستاذ الرياضيات المرحوم عبد المجيد الصمادي وكان ضابطاً في الجيش العثماني متقاعداً أعطى الطلاب وظيفة في الرياضيات بها بعض الصعوبة • فحل الفتى مسائل الوظيفة•

وطلب إليه رفاقه أن ينقلوها عنه إشفاقاً من الأستاذ فقدمها اليهم راضياً • ولما رجع الأستاذ الوظائف أعطى التلامذة أصفاراً لأنهم نقلوا وأعطاه صفراً لأنه نقّل •

كان ذلك في زمن الثورة السورية الكبرى • ويذكر أنه استيقظ ذات يوم شتوي وتأهب للذهاب الى مدرسة التجهيز قبل الساعة الثامنة صباحاً فاذا بفرقة من الجيش الفرنسي مؤلفة من جنود السنغال تحاصر حي باب الدريب وتحت المئذنتين وباب السباع بحثاً عن الثوار • فأُخِذ هو ووالده ورجال الحي وفتيانه وشبابه الى المرج وراء البيوت وفتشت البيوت وفتشوا وأوقفوا مدة من الزمان ثم تركوا • وكان قد وصل الى الثوار خبر التفتيش فأخذوا حذرهم واختفوا عن الأنظار • وكثيراً ما كان الناس يسمعون في غسق الظلام وآناء الليل طلقات الرصاص تترامى وتتجاوب في سماء الحي ، ويتحدث الناس عن بطولات نظير النشيواتي وخيرو الشهلا ورفاقهما إذ ذاك •

وللفتى اليافع أخ يكبره يدرس العلوم الدينية على شيوخ يعقدون حلقات في زوايا المساجد أو في غرف خصصتها الأوقاف لهم يدرّسون العلوم العربية والدينية تدريساً حراً لا أجر فيه وانما هو عبادة وتقرب من الله ومأثرة عالية من مآثر التراث العربي والحضارة الاسلامية • فكان الفتى أول الأمر يسأل أخاه عن مشكلة عنّت له في الاعراب أو في اللغة • ثم رأى نفسه في العطلة الصيفية يحذو حذو أخيه فيستيقظ في الصيف مع الفجر فيصلي صلاة الصبح وينظر لمحات الى السماء يتأمل النجوم تزداد تألقاً وتوهجاً وهي على وشك التغور والتواري ، ثم يسرع من بيته في حي تحت المئذنتين الى جامع بازر باشي لدى أول السوق ليصعد الدرج ويتحلق مع بعض الطلاب حول شيخهم المرحوم أحمد صافي • وقد وجد في دروس هذا العالم الجليل المتميز في علوم الآلات أي اللغة والنحو والتفسير والبلاغة والنحو والمنطق وما الى ذلك بغيته المنشودة فكان يستوعب كل شاردة وواردة ثم يعود بعد متوع الشمس الى البيت فيستذكر ما وعاه وكأنه القوت المرجو والزاد المطلوب ثم يطالع ما يعنّ له من كتب أخيه مشغوفاً بالمطالعة في الكتب الصفر والبيض وما تشتمل عليه من متون وحواش وتعليقات وشعر •

ويتذكر أيّ تذكر أنه لما وصل الى صف البكالوريا الأولى تمثل بقول عدي بن الرقاع في مجال اللغة والنحو والأدب ·

وعلمت حتى ما أسائل واحداً عن علم مسألة لكي أزدادها

وكان الفتى في الصف العاشر حين خطر لأستاذ اللغة الفرنسية السيد أوزو أن يقيم شبه ندوة مسائية بسيطة في المدرسة مرة في الأسبوع يجمع فيها بعض المعلمين والمعلمات في المدارس الابتدائية والتلامذة المتقدمين في مدرسة التجهيز ويعرض عليهم قصائد من الشعر الفرنسي في شتى الاتجاهات ولا سيما الرومانسي والبرناسي والرمزي ·واختاره الأستاذ بعد أن يشرح القصيدة واتجاه الشاعر ليكتب وظيفة في هذا الموضوع · ثم يلقي عليها الأستاذ لمسة أخيرة ويطبعها على الجلاتين (لم تكن اذ ذاك آلات النسخ الحديثة جاهزة) ثم يوزعها على الحضور في الأسبوع التالي·

وفي هذه الأمسيات الأدبية تعرف الطالب ـ على قرب ـ ألفريد دوموسّي وألفريد دوفينيي وفيرلين ولو كنت دوليل وسولّي برودوم وشارل بودلير وغيرهم من نجوم الشعر الفرنسي وكان ذلك ممتعاً له أي امتاع في ريعان القوة والشباب ·

واشتدت علاقته بالأدب الفرنسي إذ ذاك فشرع الأستاذ يعيره من مكتبته أو مكتبة المدرسة بعض الروايات الأدبية فطالع في أثناء السنة بيير لوتي وهنري بوردو وأندري موروا وبول بورجي وأنتول فرانس وأمثالهم · كانت مطالعاته تتم غالباً في الصباح قبل الانطلاق الى المدرسة ولا سيما في شهر رمضان الذي كان دوره اذ ذاك في الشتاء فكان يصومه · يستيقظ قبل الفجر للسحور ثم يجلس بعد الصلاة في غرفته الى الطاولة مع مصباح الكاز (لم تكن الكهرباء موجودة) فيقرأ حتى يستفيض ضوء الصباح وتطلع الشمس فيتهيأ للذهاب الى المدرسة · ومهما قيل في روايات الكاتب الفرنسي الدبلوماسي بيير لوتي فانها كانت أكثر ما جذبه وأثّر في نفسه ، اذ كان يصف فيها استانبول ومجالي حضارتها وجوانب البسفور والقرن الذهبي كما كان يصف بمحبة جوانب من الحياة الاسلامية كحياة الناس هناك في رمضان وأذان المؤذن

وتنبيه المسحر على الطبلة في آخر هزيع من الليل الى جانب لمع من حياته العاطفية حقيقة أو خيالاً .

وكان من أساتذته في اللغة الفرنسية المرحوم وجيه كرامة . أشار عليه أيضاً أن يطالع تولستوي ودوستويفسكي وتم لقاؤه للأدب الروسي الرفيع على طريق اللغة الفرنسية فقرأ اذ ذاك أنّا كارينين ثم الجريمة والعقاب وتعلق أيما تعلق بالأدب الروسي العظيم .

وكان اسمه في لوحة الشرف متفرداً في كلتا المرحلتين الاعدادية والثانوية ست سنوات . وكانت مدرسة التجهيز تكافىء أبناءها الأوائل بجوائز من الكتب في كل مادة من مواد الامتحان . فكان يحمل آخر السنة عبء حمل من الكتب جوائز في جميع المواد .

كل شيء اذ ذاك كان يدفعه الى أن يكون أديباً . وبدلاً من أن يدخل القسم الأدبي من البكالوريا السورية دخل القسم العلمي . ثم بعد نجاحه المبرّز لزم أن يكمل القسم الثاني من البكالوريا أي الصف الثاني عشر . ولم يكن هذا الصف قائماً في حمص فانتسب الى مكتب عنبر بدمشق تلميذاً داخلياً ليهيىء قسم الرياضيات الذي يتمم القسم العلمي بدلاً من قسم الفلسفة الذي يتمم القسم الأدبي . وانتهت السنة الدراسية بفوزه أولَ على جميع طلاب سورية وبحوزه درجات لم يحرزها أحد من قبل في شهادة نهاية الدراسة الثانوية .

انتسب الى كلية الطب فدرس الشهادة التمهيدية التي كانت تسمى P. C. B. أي ف.ك.ب أوائل حروف الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا . ثم السنة الأولى من الطب بما فيها من تشريح وفزيولوجيا ونبات وحيوان وكيمياء وفيزياء طبيتين وتشريح مرضي وكان الأول في كل سنة . وكانت أساتذته ينظرون اليه بعين التقدير . وقد أحب هذه الدراسات . ولكنه كان يطمح أن يستقيها من مصادرها ومناهلها الأولى . ولا سيما أن الاضرابات كانت تتعاقب في بلاد الشام ، ويتذكر اضراب البلاد الذي استمر نحو ثلاثة أشهر عام ١٩٣٦ عقب المفاوضات المخفقة بين الكتلة الوطنية والدولة المنتدبة .

وجرت بعد ذلك مسابقة ايفاد الى فرنسة لدراسة العلوم ففاز فيها • (وكان يضمر في نفسه استكمال دراسة الطب والعلوم جميعاً) • ووصل مع رفاقه الأربعة الذين فازوا في المسابقة في نهاية كانون الأول عام ١٩٣٧ الى باريس عاصمة العلم والنور اذ ذاك •كانت لغته الفرنسية تخوله الانتساب فوراً الى جامعة السوربون فعكف على الدراسة ولم يجد حرجاً في متابعتها نظرياً وعملياً • فلم تمض ثلاث سنوات الا وقد نال شهادة الاجازة في العلوم عام ١٩٤٠ واجازة الآداب عام ١٩٤١ •

ان مرحلة دراسته في فرنسة كانت مرحلة قاسية ومفيدة معاً • لقد نشبت الحرب العالمية الثانية في ايلول عام ١٩٣٩ • وحياة الحرب بما فيها من انقطاع عن الأهل ومن تقنين ونقص في الأنفس والخيرات ومن تعتيم وارتباك ومخاوف وسوق سوداء لا بد من أن تترك آثارها في نفوس الناس وفي سلوكهم • ولكن تلك المرحلة كانت خصيبة لمن شاء من الطلاب أن يتابع دراسته ويغرف من مناهل العلم والأدب • وهكذا انتحى طالبنا شعب الدراسات الفلسفية وأتيح له أساتذة أكفياء كانوا مشاعل الفكر في أوربة لا في فرنسة وحدها • كان بعض هؤلاء الأساتذة ولا سيما غاستون بشلار من جهة والمستشرق الكبير ماسينيون من جهة ثانية حين عرفوا ثقافة هذا الطالب السوري ومزاياه خصوه بنوع من الرعاية لا ينساها أبداً • وهكذا استطاع أن يقطف بعد اجازتي العلوم والآداب خمس شهادات في الدراسات الفلسفية العليا وأن يهيىء أطروحة الدكتوراة في الفلسفة بمعدل أكثر من شهادتين في السنة الواحدة ومن المناسب أن نذكر أن تصنيفه كان الأول في شهادة علم الجمال وفلسفة الفن التي كانت جامعة باريس وحدها متخصصة بها •

ولكنه ما زال يذكر الأيام الدكن والليالي السود حين مرضت عيناه وقد فاجأه الفحص عام ١٩٤٢ • ولما ذهب يستشير الأطباء تحيروا في المداواة إذ لم يعرفوا سبب المرض • فقدم الامتحان وكان يشكو عيناً واحدة فغدا يشكو كلتا العينين • كان يكتب مباشرة على الورقة المبيضة دون أن يبصر بالتدقيق ما كان يكتب ، ولكنه كان يعلم ماذا يكتب • ثم وقع بين يدي طبيب من أصل ألزاسي وهو الدكتور كَلْت • كان طيب الأخلاق عميق المعرفة • فأدرك سبب المرض وهو

سوء الحالة الصحية لرداءة التغذيـة أي السَّغَل زمن الحرب مع إدمان الدراسة • فحوّله الى طبيب خاص بالأمراض النادرة الغريبـة فكان يـذهب الى مشفـاه مرتين في الأسبوع ليتلقى في الوريد خلاصة السموم التي كانت تجلب من المانيا• تزاد الزرقة بمقدار ضئيل جداً كل مرة لعلها بالتدريج تثير جملتها مقاومة خلايا الجسم • ومرة أخطأ الطبيب المعـاود فأعطاه زرقة تتجاوز المقدار المحدد ، فقضى ليلة لا ينساها كابد فيها الحمى والهذيان والرؤى الكابوسية لم يصدق أنه سيعيش بعدها • ولكنّ البُحْران انفرج في الصباح • وكانت سيدة تختلف الى المشفى تعالج المعالجة نفسها فبدأت تعمى • ولكنه أفاد كل الافادة أن أمضى ثلاثة أشهر صيفية في قرية صغيرة تدعى سمبادل في جبـال الكتلة المركزية متعرضـاً مـرة لتفتيش جنود الاحتلال ولتفتيش الثوار مرة مقابلة • وكان مع ذلك يرجو من الله أن يرد اليه بصره كما رده من قبل الى يعقوب • وقد قيض له بحمد الله الشفاء وسلامـة البصـر •

كان يذهب في الصباح الى المشفى ليتلقى زرقة السم ثم يحضر خاصة بعد الظهـر دروس الفيلسوف بشلار بالسوربون في بحوث فلسفة العلوم وفي بحوث الخيال الأدبي . ثم ينصرف الى غرفته مساءً في الحي اللاتيني ليقاوم تأثير تلـك الزرقة السمية في جسمه • كانت هـذه طريقة المداواة في كـل مرض مستعص غامض وذلك قبل كشف المضادات الحيوية •

وكم ليلة فوق مكابدة المرض أيقظت صفـارات الانـذار السكان بالغـارات الجوية • وقد اعتادها الناس ، حتى إن الذين يسكنـون في الحي اللاتيني كانوا يعلمون أن حيهم حي الطلاب والجامعات ليس هدفـاً للغارات • فكـان يقف الى نافذة غرفته وينظر منها الى قنابل الطائرات المغيرة تتهاوى على بعد من السماء كالشهب والى قنابـل المدافـع المضـادة تتصاعد من حديقة اللكسمبرغ حيث أقيم فيهـا بعض تلك المدافـع • كان ذلـك المشهد رهيباً ذكره ما جاء وصفه في أهوال القيامـة حين تتشقق السماء وتنكـدر النجوم متهاوية متساقطة •

كانت عزيمته على الدراسة في تلك الأجواء مع مرضه ملحمة وأيّ ملحمة • ورجع حين وضعت الحرب أوزارها صيف ١٩٤٥ مع رفاقـه الى الوطـن الحبيب ويتذكر اغريراق مدامعه حـين اقتربت الباخرة « مراكش » من شواطىء لبنان

ولح وراء سيف البحر تلك الجبال المنتصبة الخالدة حارسة الأهل والتاريخ والتراث بعد انقطاع ثمانية أعوام ذاق فيها المروجنى فيها المفيد ·

ثم دخل في عداد هيئة التعليم بكلية الآداب عام ١٩٤٧ · وكان قد حال على إنشائها حول كامل · اكترى غرفة في ثَوِي"(بانسيون) بمزرعة الشهبندر ، ولبث فيه خمس سنين · وكانت غرفته الواسعة تضيق بكتبه · عُهد إليه أولاً في تدريس مادة علم الاجتماع في السنة الأولى وكانت هذه المادة جزءاً من شهادة الثقافة العامة ، كما عهد إليه في تدريس مادة علم الجمال في السنة الثانية في قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية · وكانت هذه المادة تدرس لأول مرة في سورية، بل في العالم العربي ·

وهكذا طفق يرفع في كلية الآداب بنيان علم الاجتماع ودعائم علم الجمال، كان يستيقظ الساعة الخامسة من صباح كل يوم ويعكف على إعداد المواد التي تعلمها بلغة أجنبية ينفي سفسافها وينقل صحيحها وجيدها الى اللغة العربية بلغة واضحة مشرقة · ثم يرجع في العطلة الصيفية الى بيت أهله في حي تحت المئذنتين ويعتكف فيه ما استطاع باحثاً عن القوت الروحي الذي يسعى أن يزود به طلابه في السنة التالية · كان يلتمس من خلال الدراسات الاجتماعية الأجنبية أسساً علمية ومعايير عددية يستند اليها فأدى به ذلك الى بحوث علم السكان أي الديمغرافية · وكان أول من ألّف في هذا الموضوع وأقام دعائمه في اللغة العربية ، وكتب في مقدمة الكتاب الذي ألّفه أنه جعل هذا العلم الحديث عربياً في بيانه بل في صميم بنيانه · كذلك نشر كتابه « تمهيد في علم الاجتماع » · وعنوان هذا الكتاب ينمّ على التواضع لأنه في موضوعه موسوعة تلخص تاريخ التفكير الاجتماعي وتلمّ بمختلف المذاهب الاجتماعية · ولهذه المزايا كان فريق من الطلاب الذين يذهبون الى أوربة لاستكمال دراستهم يستصحبونه لأنه يدعم ثقافتهم وينير ما يحتاجون اليه فيها ·

وفي السنة الثالثة بقسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية قام بتعليم فلسفة العلوم أو ما يسمى في اللغات الأجنبية بالابستمولوجيا · وغدا هذا التعليم مادة كتابه « الفيزياء الحديثة والفلسفة » أبان فيه أحدث التيارات الجديدة في

الفيزياء مع ما ابتعثته من تيارات فكرية طريفة في الفلسفة • وكان هذا الكتاب رائداً أول في هذا الحقل باللغة العربية • وما زال يلتمسه الباحثون في هذا المضمار على الرغم من نفاده • وقد زاد عليه فصولاً وطبعه طبعة جديدة بعنوان « تقدم العلم » •

وقد اتسعت بحوث علم السكان أيّ اتساع في النصف الثاني من القرن العشرين ونشأت مع اتساعه مصطلحات كثيرة أجنبية أدخلت بعض الحيرة في اتساعها على الباحثين في شتى اللغات • فسمّت منظمة الأمم لجنة لوضع معجم يحدد دلالات تلك المصطلحات نشرته بعدئذ في اللغات الثلاث الأولى للمنظمة وهي الانكليزية والفرنسية والاسبانية • وقد أطلعه صديق فرنسي عضو في اللجنة على النسخة الوقتية التي أعدت لهذا الشأن والتي غدت أساس المعجم الديمغرافي المتعدد اللغات • واقترح هو حين سُمّي عضواً في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في زمن الوحدة مع مصر وضع النص العربي لذلك المعجم نظراً للحاجة إليه • وقام هو والمرحوم الدكتور عبد المنعم الشافعي أستاذ الاحصاء بوضع النص العربي وسبقا بذلك اللغتين الروسية والألمانية وغيرهما • وقد رأت أن تحذوحذو اللغة العربية اللغات التي لها علاقة بالحضارة العربية الاسلامية كالتركية والأردية والأندونيسية • ثم بعد سنين ظهر نص جديد للمعجم في اللغات الانكليزية والفرنسية والاسبانية • فكلفته اللجنة الاقتصادية لغربي آسية أن يضع النص العربي له فأتم ذلك وغدا النص العربي يقوم مزهواً بلغته السليمة المبينة الى جانب النصوص الأجنبية الرسمية المتعددة • هذا ولم يجد واضع النص العربي وعورة ولا حرجاً في العثور على مصطلح عربي يقابل المصطلح الأجنبي • وقد زاد في حواشي الفقرات ما يتعلق بعلم السكان من الالفاظ العربية الأصيلة الداخلة في الثقافة والتراث العربيين •

وفي السنة الرابعة من قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية أدخل بحوث التصوف وتأملاته العميقة في نطاق الفلسفة العربية الاسلامية الواسعة ودرّس نصوصاً للصوفية الأوائل الرواد كالحلاج والحارث بن أسد المحاسبي والجنيد ثم عمد الى تدريس أهم كتب التصوف وأصعبها وهو «فصوص الحكم»

للشيخ محيي الدين بن عربي. وكم كانت دهشة الطلاب حين كانوا يطلعون على درر الفكر العربي الاسلامي في مقابل ماألموا به من خلاصات الفلسفات الأجنبية.

هذا شدو" عن تعليمه في مختلف سنوات كلية الآداب • ولقد درّس قضايا الفيزياء الحديثة ومشكلاتها النظرية طوال سنتين في كلية العلوم ودرّس أيضاً طوال سنتين في كلية الشريعة غبّ إنشائها علم الاجتماع والفلسفة الاسلامية والمنطق • وكذلك درّس في كلية الصيدلة مادة الاحصاء الحيوي سنتين ، ودرّس في كلية الطب خلاصة عن مضامين علم النفس وعلم الاجتماع وكان هذا التدريس مادة كتابه « فصول في المجتمع والنفس » •

كانت قاعات دروسه تغتص بالطلاب • وأخبره بعض الأطباء والمحامين أنهم كانوا يغيبون عن دروسهم في كليتهم ليحضروا دروسه حين كانوا طلاباً •

ومن طلابه من أصبحوا وزراء وضباطاً ونواباً ومسؤولين في مختلف الادارات. وتخرج عليه كثير من أساتذة الجامعات في سورية وفي الوطن العربي ، وجمع غفير من أساتذة التعليم الثانوي • فتعاليمه مستفيضة وآثاره في الأجيال عميقة ومستمرة.

كذلك تخرج عليه كتّاب وشعراء وفلاسفة وعلماء أصبحوا معروفين في الوطن العربي استطاع أن يثير مكامن النور في نفوسهم وجوانحهم •

وقد سمّته منظمة الأمم خبيراً أولَ في علم السكان مرتين طوال أكثر من ثلاث سنوات • هذا كله عدا نشاطه الواسع في الندوات الوطنية والاقليمية والعالمية •

وكم سَعِدَ حين كان يرى أغراسه تنمو فتُنْبِتُ الورد والياسمين وصنوف الأزهار ، أو تشتد وتثمر شهيّ الفاكهة وطيّب الثمار ، أو حين يبصر ضوء مصابيحه تنير أحياناً خبايا الظلام على توالي الأيام والأعوام •

ولئن كنت عرضت هذا الموجز عن تعليمه الجامعي فليس للافتخار • انما كان ذلك واجبه وجوهر عمله وأساس حياته الفكرية الدائبة • عرضته لأسوّغ تكريمكم هذا لأستاذ وقف حياته على العلم تعلماً وتعليماً وعلى الأدب نهلاً وانجازاً. وكأنه كان يحسّ أنه مسؤول عن أن ينقل بأمانة وعلى أحسن وجه كل ما حفظ وعرف وأنجز الى أبنائه الطلاب وأن ينشىء حركة فكرية حديثة بين

النشء المثقف تصل الماضي المجيد بالحاضر المتوثب المتطلع الى آفاق معرفية جديدة · وذلك بصمت الواثق بعلمه وتجرد المؤمن برسالته وصبر المدقق الغيور · وحسبه مثل هذا التكريم جزاءً لذلك الصبر والتجرد والصمت والاخلاص والمحبة ·

في الأدب الفرنسي يشبه الشاعر ألفريد موسّى نفسه أو كلّ شاعر بطير البجع يطير ويطوف في الأفق يبحث عن قوت يغذي به فراخه · وقد يسعفه الحظ في طوافه · الا أنه قد يؤوب الى فراخه خاوي الوفاض حتى اذا رأى أعناق فراخه مشرئبة ومناقيرها فاغرة وليس معه زاد أنشب مخالبه في صدره وأطعم فراخه دمه وقلبه ·

لست أنا بذلك الطائر الذي يقدم مهجته لفراخه · ففي نفسي نوازع كثيرة للأثرة · وأشعر دائماً بالتقصير في كل عمل أعمله ولو لقي الثناء والاعجاب · ولكني أرى أنكم في حمص قد اتخذتم ذلك الأستاذ رمزاً للمعلم والباحث والأديب · فالتكريم الحقيقي هو لكل أديب مخلص وباحث محقق ومعلم يرعى طلابه حق الرعاية ويحبهم ويحبونه ·

بل زيادة على ذلك أرى أننا نعيش في عصر يجنح نحو الغلوّ في محبة المادة وجمع النشب والذهب ونحو الحياة الرافهة المطرزة بالسيارات الفارهة وسلع التقانة الحديثة المتجددة · وهذا من شأنه أن يصرف النشء عن سر التقدم الحقيقي وعن ابتغاء معالي الأمور · وهكذا أجد هذا التكريم سعياً لتعديل ذلك الاتجاه وتسوية ذلك الانحراف وحثاً للنشء الكريم على التماس سبل العلم الرحبة الواسعة التي ان ذاق سالكها بعض العنت ونصيباً من الشظف والتقشف فلا بدّ من أن يكون أوسع مداركاً لفهم كنه الحياة وتعرف حقيقة الدنيا والآخرة ·

المعرفة هي الشعلة الخالدة التي هي أخص خصائص الانسان · وهي أصل كل تقدم وينبوع كل ثقافة ونسغ كل سعادة حقيقية وكل علاء أكيد وذلك على المستوى الفردي والاجتماعي والأممي ·

وهي تطيل العمر وتهب نصيباً من الخلود · ان نشر الثقافة والمعرفة وتلقّي النشء والناس بقلوبهم وعقولهم ثمراتها نوع من أنواع الاستمرار والبقاء وشكل

ولو وهمياً من أشكال ذلك الخلود • وكماأن الآباء يعيشون في نفوس أبنائهم ، كذلك يعيش العلماء والأدباء والمعلمونفي نفوس مريديهم •

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته   ما قاته وفضول العيش أشغال

كما قال أبو الطيب •

ثم ان العلم والتعليم في اعتباراتناالتراثية جزء من العبادة • بل هما أهم العبادات • الغني المترف قد يستمتع بالوردة مثلاً • ولكن الأديب يدرك بموهبته وثقافته العوالم التي تحف بالوردة من تبرعم فَرِحٍ وتفتح مبتهج وذبول سريع مأساوي ومن لون زاهوأريج فاغم وشكل بديع بالاضافة الى ما جاء في الأدب والشعر والفنون منمزايا الورود وبوحها ومحاسنها والأجواء التي توحي بها • فالوردة عند الأديبأغنى بكثير وأحفل بالمعاني من مجرد شكلها الظاهر العابر •

والعالم يتأمل تكوين الوردة ونسجهاوأوراقها الكأسية الخضر التي تحف بها وأوراقها التويجية التي هي مثل ذائع في اللطف واللون وأعضاء تكاثرها وفصيلتها وفصولها وتطورها وخصائصها• فهي أعمق سراً وأرحب جوانب من شكلها الظاهر العابر •

وهكذا بقية مظاهر الكون من أزهاروأشجار وأحجار ونجوم وأشعة وليل ونهار وشمس وقمر وسائر عناصر الكون• فالدنيا أوسع آفاقاً وأعمق أسراراً وأكثر عناصر وأشد مفاتن عند العالموالأديب • وكأنهما يعيشان في دُنًا متعددة ويحييان حيوات عميقة رائعةلا حياة واحدة • وهذه سمة من سمات الحياة الباقية وملامح من أسرار الخلود إذا شُفعت بالعمل الصالح •

« بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ! »

ومهما كانت الحياة المادية مشوّقة وجذابة ومهينمة ومهيمنة فان العلموالأدب والأخلاق النبيلة لا يعدم كل منها سدنةينذرون أنفسهم له وعشاقاً يهيمون به • واذا كانت سعادة الانسان تستند في كثيرمن جوانبها الى أمور مادية ضرورية وكمالية فان سعادةالروح أوسع ، وفضاءالفكر أرحب ، ومزايا القلب والفكر

أكبر ، وفضائل العلاقات الانسانية الجيدة أعود بالخير ، وشيوع المحبة بين الناس أهم ، والتعاون على البرّ والتقدم أجدى عاقبة .

أماويّ ان المال غادٍ ورائحٌ ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماويّ ما يغني الثراء عن الفتى ... اذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
غنينا(*) زماناً بالتصعلك والغنى ... وكلاً سقاناه بكأسيهما الدهر
فما زادنا تيهاً على ذي قرابةٍ ... غنانا ولا أزرى باحسابنا الفقر

كما كان يتغنى حاتم الطائي ويحاور زوجته ماوية .

على أن المادة قوة هائلة . وهي من أهمّ ما يعين المرء على التماس مآربه العليا وابتغاء حاجاته الرفيعة وانجاز مقاصده المستحسنة . وما أسعد من يستطيع في أحوال مجتمعه التي تحف به أن يوفق بين متطلبات المادة والفكر ، والعرض والجوهر ، والعقل والقلب ، والأصل والفرع ، والدنيا والآخرة !

أعود الى الحديث عن الشخص الذي تكرمونه . لقد جاء في حديث قدسي مشهور مختلف في صحة إسناده ، وهو من أجمل ما يعلي شأن الانسان وقلبه وفكره : « **ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن** » . وفي رأينا أن الوسع هنا ثلاثة أنواع : وسع المعرفة بحقائق الأشياء وهو أصل العلم ، ووسع المشاهدة واطّلاع القلب على المحاسن والجمال وهو أصل الفن ، ووسع الخلافة خلافة الانسان على الأرض وهو أصل الأخلاق الفاضلة والسياسة الحكيمة الخيّرة.

واسمحوا لي أن أنقل هذا الوسع الى الوفاء والى محبة المرء وطنه وثقافته وتراثه . وأستطيع أن أقول عن ذلك الفتى الناشىء الذي تغرب الى باريس وبالنظر الى سعة قلب المحب المؤمن أنه حمل معه في قلبه حمص كلها بأحيائها القديمة ومروجها وكرومها والمدارس التي تعلم فيها ومشايخه وزملائه ومعارفه ومنازه عاصيها (الدوير والميماس والجديدة والخراب والمزرعة) ولم تفارقه صورهم وشؤونهم حتى يومه هذا ولكنه أيضاً لسعة قلب المؤمن المحب حمل في قلبه صور بلاد الشام ما عرفه منها بنفسه وما قرأه من طارف وتليد . ثم حمل بطريق ثقافته التراثية العتيدة العالم العربي كله قديمه وحديثه بمراحله

(*) غنيَ الرجل في المكان طال مقامه فيه .

الزمنية وحضارته الزاهية ومشكلاته الناشبة وكل ماوعاه وحواه من أخبار علماء وأدباء وفلاسفة وفقهاء وشعراء • كان ينفي في نفسه الماجن من أشعار الشعراء ويثبت الرفيع العالي • وكم من مرة ساجل في الخيال شعراء الجاهلية وتفتحت له هنالك معاني أبي تمام والمتنبي والبحتري وأبي العلاء وغيرهم • كان يجري في نفسه حوار دائم بين ما يرى ويسمع ويدرس ويقرأ ويعلم وبين كنوز التراث العربي التي يعرف ثراءها وتألقها كما كان يعارض في نفسه ألفاظ الحضارة الجديدة وما يقابلها من مصطلحات عربية قديمة تطالعه في خاطره عفواً أو يبحث عنها في ذاكرته القوية الواسعة • لذلك امتزجت ثقافته العربية المتينة بالثقافة الأجنبية الحديثة • ولكن بقيت تلك الثقافة العربية لديه هي المسيطرة على الثقافة الأجنبية ، والمحيطة بها لا العكس • وهكذا لما رجع وزاول التعليم والكتابة والنشر في الوطن العربي تيسرت له الافاضة في كل شأن عويص كبحوث الفيزياء الحديثة وبحوث الديمغرافية الجديدة وأن يمسح عن دراريّ التراث غبار القدم ويجلوها متألقة في أضواء الفكر الحديث وكل ذلك بلسان عربي مبين • وهكذا يمكن أن نورده مثالاً شاخصاً حياً على أن الثقافة العربية في مرحلة الصبا هي الأساس المتين في الحفاظ على الهوية العربية الأصيلة وعلى نجاح مقاومة الثقافة العربية للغزو الثقافي الأجنبي • بل هي أكثر من ذلك • إنها الأساس في تجديد الثقافة العربية التليدة بحيث تستوعب أي نوع من أنواع الثقافة الحديثة • بل الخلاصة أنها غزو ثقافي عربي للثقافة الاجنبية • فلا خوف من أي غزو فكري إذ توطد الأساس وأُشعِلَ من القلب النبراس •

لقد بلغ ذلك الأستاذ الآن من العمر مبلغاً وقد أعطي في صروف زمنه ما استطاع أن يعطيه ـ ولا فخر ـ من سلوك سليم وعيش مستقيم وعلم قويم وأدب وسيم • ومع ذلك يشعر في جميع ذلك بتقصيره ، ويود لو قَيّض المولى سبحانه وتعالى له نزراً من السنين ليتم ما يريد ويرقم ماقد يفيد ويكمل ماقد يجدي إكماله • وهو يحمد الله جل شأنه على أن أسبل عليه ثوب العافية والسلامة • وهو إذا ذكر قول الشاعر :

إن الثمانين وبلّغتها قد أحوجت سمعي الى ترجمان

يتمثل بقول شاعر آخر :

نحوَ الثمانين من العمر قد قطعتها مثل عقود الجُمان
ما أحوجت يوماً يميني الى عصا ولا سمعي إلى ترجمان

حمص مدينته التي كانت أول أرض مسّ جلده ترابها يحملها دائماً بحجارتها السود وقلبها الأبيض في سويداء قلبه • ربما تغيرت اللهجة فيها بعض الشيء وتغيّرت الطباع بين أهليها • ولكنه ما زال محافظاً على لهجته الأولى في كلامه ومحافظاً على سلامة قلبه وبساطة تصرفه كما شهر ذلك عن أهليها •

لقد قرأ مرة أن صوفياً تعشق سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وكان يلهج بحبه وشغفه دائماً • فرأى في المنام أو سمع هاتفاً يقول : لقد شغلك حب رسولي عني • فقال فوراً : وهل حبي للرسول إلا جزء من حبي لك • وهو الذي دلني عليك ؟•

إن حب ذلك الأستاذ في أطوار حياته للأدب والثقافة والعلم ليس ذلك يا حمص إلا حباً لك وللوطن أجمع وليس إلا زلفى منك ومن الوطن ومرضاة لك وله • ولئن فاته في مُقامه أن يعيش في رحابك هانئاً بهوائك العذيّ وصباحك الندي ونهارك البهيّ وأصيلك الذهبيّ ومسائك العبقريّ وليلك الشجيّ وقلبك النقيّ وتاريخك الأريحيّ فانه ينتظر انتظار المؤمن المحبّ المسافر ، وقد وصل قريباً من الشاطىء ، متى حان الابحار ، أن تحسني جواره في الشاطىء الآخر المجهول ، وأن تضمّيه بين أبنائك البررة السابقين وتثبتيه في ذكريات جنودك الطيبين الصالحين ورجالك المخلصين الانسانيين •

يا عاتبين على المشتاق ويحكمو طال الفراق على النائي وأضناه
ياحبذا سنوات" في الصبّا غبرت فيهن من باسم الأحلام أشهاه
أهداكمُو قلبه حباً وتكرمة يا ليت أهل الحمى الأحباب ترعاه
ما انفكّ يسطع مثل النجم معرفة لولاه قلّ سنا الآداب لولاه
هيهات يطلب عن خلاّنه بدلاً طبع الوفاء الذي بالقلب يأباه
قد عاش مغترباً في كل مرحلة ينمّ عن حبه المكتوم مرآه
شكراً لمجلسكم قد قام مبتدراً والحبّ والبرّ والتكريم أولاه

١٤١٥/٥/٢٥ هـ ـ ١٩٩٤/١٠/٢٩ م

شخصيات أدبية

من التراث القريب

عبد اللطيف أرناؤوط

يعد الباحث الدكتور « ابراهيم الكيلاني » من أعلام النقد في الوطن العربي ، فله دراسات تراثية عدة ٠٠ وترجمات لكتب أجنبية في مجال الدراسات الأدبية ، كما يعتبر من الرواد الذين نهضوا بالنقد الأدبي والدراسات النقدية التي تناولت أدبنا العربي في مختلف عصوره ٠

وقد صدر له مؤخراً كتاب بعنوان « شخصيات وصور أدبية » ضمّنه صوراً لاثني عشر أديباً من أدباء سورية في الوطن والمهجر ، ممن كان لهم حضور متميز في الحياة الثقافية والفنية ٠

ولعل كلمة « صُوَر » التي استخدمها المؤلف أراد بها ترجمة للمصطلح الأجنبي « بورتريه » ٠ وهي تعني تقديم الشخصية الأدبية ٠٠ بابراز ملامحها الذاتية المتميزة ، وخصوصيتها الفردية والفنية ، فهي أشبه بالرسم الانطباعي ، يضفي المترجم فيها على الشخصية مشاعره نحوها ، وفهمه لها ، ويكشف أصالتها العقلية ، من خلال معايشتها ، أو دراسة آثارها واستخلاص ملامحها ٠

ويحدّد الدكتور ابراهيم الكيلاني منهجه في تقديم شخصياته في مقدمة الكتاب فيقول : « هذه دراسات صوّرت فيها ، ودرست جماعة من الأدباء والشعراء ينتمون الى أجيال متباينة في الثقافات والأذواق ، متنوعة الطبائع والمواهب جمعتني بهم ظروف الحياة ، فشغلوا جزءاً من ذكرياتي ، وآخرين صادفتهم في

أثناء مطالعاتي في الكتب والحياة ، فتوثقت بيننا ممازجة نفسية ، وصداقة عقلية وألفة عاطفية ·· » ·

فالدكتور ابراهيم كيلاني ·· يصطفي شخصياته على أساس التواصل النفسي والثقافي والانساني بمن ترجملهم ، فثمة موقف ذاتي دفعه للاختيار ، وموقف ذاتي أيضاً استند إليه في دراسة الشخصية يقوم على الاعجاب الشخصي بها واتخاذ ذلك الاعجاب منطلقاً لتعريفها ·

ويحدثنا عن منهجه في تقديم الأعلام الذين اصطفاهم، فيقول في المقدمة محدداً الخطة التي تقوم عليها دراساته :

« وكانت خطتي في البحث ، النفاذ من خلال الأثر الى داخل صاحبه ، بغية ابراز أصالته العقلية والفنية ، والكشف عن أسلوبه الأدبي وطاقته التعبيرية » ·

والدكتور كيلاني لا يقيد نفسه بخطة واحدة للترجمة ، ولا يقسمها الى أبواب وعناوين ، ولا يلتزم تنظيماً موحداً لدراسة الأديب يعتمده مسبقاً قبل الشروع بها أو يعممه على من ترجم لهم ، وإنما يترك نفسه على سجيتها فقد ينطلق من موقف حياتي ، كرجوع الأديب المغترب بعد غربة طويلة الى بلاده فيرسم انطباعاته حول مظهره الخارجي وشخصيته الانسانية ، كما فعل في ترجمة الشاعر القروي والياس فرحات ·

وقد تتخذ الدراسة طابع الترجمة المبوّبة نوعاً ما دون إثبات عناوين فرعية، كما في ترجمة محمد كرد علي وخليل مردم بك ·

وهو في الموقفين لا يلتزم منهجية صارمة كالتي اشترطها غيره في دراسة للتراجم ولا يخفى أن لكل من المنهجين حسناته وعيوبه ، فالمنهج الحرّ أو القريب من الحرية في تبويب الصور الأدبية ، يوفر لدراسة الشخصية حياة وتلويناً ، ويعكس شخصية الدارس واتجاهاته وثقافته ، في حين أن التبويب يضفي على ترجمة الأديب جفاف المنهج، وجمود العلم، لكنه يحقق شمولية النظرة ومنطقية العرض ·

ونلاحظ أن الدكتور كيلاني لم يتقيد في ترتيب الأعلام وفق تسلسلهم في

الزمن ، وكأنه آثر أن يكون اهتمامه بالصورة الأدبيـة أو ترجمة الشخصيـة مستقلة عن الأخرى ، دون أن يوفر للكتاب وحدته الزمانية والمكانية ، فكان ذلك التبويب الذي اختلط فيه القديم بالحديث ، والشاعر بالكاتب تطبيقاً للحريـة التي التزمها في تقديم الأعلام ، وهـي حرية وفّرت لنـا المتعـة في العـرض والتلوّن الذي يدفع السأم ، ولكن على حسـاب موضوعيـة البحث ، والمنهـج النقدي العلمي ٠

وابراهيم كيلاني ٠٠ ناقد ، ذكي مثقف ، يعرف كيف يسلّط الضوء على البؤر الهامة في جوانب الشخصية ، وقد يعزز آراءه وأحكامه بفيض من الشواهد الأدبية والنقدية ، على أن ما يمتاز به نقده هو دقة الحكم وجودة الاستنتاج ففي دراسة للشاعـر عبد الباسـط الصوفي يخلص الى ظاهـرة لم يفطن إليها من سبقه ، ألا وهي ظاهرة تدجين الانفعال وتثلم حدة الاستجابة لدى بعض شعرائنا المعاصرين ، في حـين أن ثورة الانفعال ظلت سمة ملازمة للصوفي في شعره ، وهي ثورة أشبه بالزيت الذي كان ينير مصباح شاعريته ويغذي ذبالته ، لكن هذه الحدة في الانفعال كانت عاصفـة الى حـد أن أعصاب الشاعـر لم تحتملها في نهايـة المطـاف ٠

وسأحاول في هذا العرض متابعة أحكام الدكتور ابراهيم كيلاني النقدية ، واستعراض آرائه فيمن صورهم أو ترجم لهم ، وذلك من خلال منهج الناقد ونظراته التحليلية ٠

* * *

الشاعر القروي « رشيد سليم الخوري » ١٨٨٧ ـ ١٩٨٤ :

يستهل المؤلف ترجمته للأديب « رشيد سليم الخـوري » الملقب بالشاعـر القروي ، فيتحدث عن رجوعه الى الوطن الأم بعد اغتراب دام خمسة وأربعين عاماً ، فلما بلغ أرض سورية قبّل بعد نزوله من الطائرة أول فلاح وأول جندي لقيهما ، وحمد الله على سلامة الأوبة ، وسجد له شكراً ٠

والقروي في رأي الدكتور « كيلاني » شـاعر من طراز نـادر في سيرتـه وصراحته وابائه وحبه لبلاده وتمسكـه بالعروبـة ٠

ولد « القروي » في لبنان بقرية « البربارة » عام ١٨٨٧ ، في السابع عشر من نيسان وهو يوم الجلاء عن سورية ،وفي هذا يقول معتزاً :

ان فاخر الناس بأعيادهم فعيد ميلادي عيد الجلاء

وتلقى تعليمه في مدرسة القرية والجامعة الأمريكية ، ودرّس في وطنه سبع سنين ، ثم هاجر عام ١٩١٣ الى البرازيل هرباً من ضائقة مادية وروحية ، وعمل بائعاً متجولاً في ديار الغربة ، وقاسى العناء ، وغامر بالتجارة ، وصناعة ربطات العنق فما أفلح ، لأنه لم يخلق للتجارة وجمع المال ، بل فطر على حب الأدب والتأمل :

« إذا لم أصب مالاً فما عن بطالة ، فللعلم أشغال وللمال أشغال » ويرد ابراهيم كيلاني تكوينه الجسدي والنفسي الى عوامل وراثية ، فقد ورث عن أبيه القوة الجسدية والصلف وحب العلم ، وعن أمه عذوبة الصوت والميل الى الغناء والموسيقا ، ويصف الشاعر زواج والديه فيقول :

« وقد عقد لديهما في الصيف ، وأسرّة الناس السطوح ، وقناديلهم النجوم. ونوافذ منازلهم عرض الفضاء ، فكنت أشهد السماء بعيني والمدى ، وأوقّع نبضات قلبي الخيالي على نبضات قلبيهما .. »

وكان « القروي » في حياته متصوفاً ، ورث عن محيطه حب الطبيعة وبساطة العيش والقناعة والزهد بالمال ، وتنزّه عن المراءاة والتصنّع ، فكان قليل الاحتفاء بمظهره . وقد جعلت هذه العوامل شخصية متماسكة مترفعة عن الانحدار الى التهافت على المادة يقول :

بعدت همتي فعفت كنوز الأرض لما عرفت قيمة كنزي
لا أبالي شبعت أم جعت والفن شرابي وعزة النفس خبزي

وقد آلمه انحدار بعض المغتربين الى أعمال وممارسات جلبت عليهم احتقار سكان المغترب الأصليين ، فنعتهم حتى الزنوج بكلمة « توركو » احتقاراً :

كن بينهم رجل الزمان تظل توركو محتقر
حتى العبيد السود قد سخروا بنا مع من سخر

أما عفة الشاعر القروي وصراحته كانت لا نظير لهما في سير أخلاق أهل العصر ، فقد اكتفى من الدنيا بعوده والكتاب ، وأنف قبول مساعدة أصدقائه المهاجرين لشراء بيت يؤويه ، فتحوّل رصيد التبرع لطبع ديوانه ، فلم يستر عيباً من عيوب طفولته الا ذكرها ، ففتح شريط حياته الخفية على الناس ، بأسلوب رفيع يكشف عن قدرته الأدبية على الابانة والتأثير ، والافصاح عن مشاعر سامية تثير الاعجاب ، وتبعث على تقدير ما اتصف به من اباء وسمو :

لو كان يدري حسودي ما أكا بده في الحق ما أكلته جمرة الحسد
اني صعدت الى مجدي على جبل مما تهدّم من روحي ومن جسدي

وفطر الشاعر القروي على عشق الجمال ، جمال الطبيعة والفن ، وجمال القيم السامية ، فتغنى بالفضيلة والحب والصداقة والعروبة والوطن وعذاب الانسان في المهجر بأسلوب حار وصادق ، وبوتر مشدود كأوتار عوده ، مدللاً على اتساع قلبه للحياة والكون وهو الذي يقول :

لي قلب يسع الكون فلا تسألوني : ما الذي تهوى ومَن ؟

* * *

الشاعر الياس فرحات : ١٨٩٣ ــ ١٩٨٠ :

في الصورة التي رسمها ابراهيم كيلاني للشاعر المهجري الياس فرحات، يطالعنا في بدايتها قدومه لزيارة دمشق ،وكان المؤلف «الكيلاني» أحد مستقبليه، وقد توقع أن يرى شيخاً هرماً • ويطل الشاعر من باب الطائرة ، فاذا هو رجل قوي الهمة ممتلىء نشاطاً وحركة ، ذو بنية قوية ، وجبهة عريضة فيها معاني التحدي والرجولة • وتنمّ شخصيته الجسدية على احساس عارم بتقدير الذات والأنفة ، وعشق الحرية •

ويردنا « الكيلاني » الى طفولة فرحات ، فقد نشأ طفلاً مدللا يفعل ما يشتهي فنشأ قوي الشخصية ، لم تقمعها قيود التربية الصارمة ، وقد أنف أن يعمل مع اخوته بالتجارة ، لأن ذلك العمل لا يلائم طبعه •

ولد « الياس فرحات » في قرية « كفر شيما » بلبنان عام ١٨٩٣ ، وكان

في طفولته نزّاعاً لمعاشرة الكبار ، مولعاً بالتقليد . ولم يتعلم في مدرسة الضيعة الا أربع سنوات ، اذ هجر المدرسة منذ العاشرة من عمره ، وكان يتألم لأنه لم يتابع دراسته ، ولكنه عكف على مطالعة دواوين الشعراء ، ولعل قلّة علومه قد أسهمت في الحفاظ على صفاء روحه وبعدها عن التأثر ، فجاء شعره ابن القريحة الصافية ، وثمرة عفوية محببة ، ثم اكتمل نضجه الشعري بالممارسة ، وأمدته الحياة بعناصر غنية طعّمت شعره وعوّضت نقص الدراسة ، وهو يقول في ذلك :

يقولون عمّن أخذت القريض ... وممن تعلمت نظم الدرر
وأين درست العروض وكيف ... تلقفت هذا البيان الأغر
وما كنت يوماً بطالب علم ... فانا عرفناك منذ الصغر
فقلت أخذت القريض صبياً ... عن الطير وهي تغني السحر
ومن خطرات عليل النسيم ... يمرّ فيشفي عليل البشر
وعن نظرات الحسان اللواتي ... يكدن يغلفنها في الحجر
فذا الكون جامعة الجامعات ... وذا الدهر استاذها المعتبر

وهرب « الياس فرحات » من العمل التجاري في لبنان ، ليمارسه مضطراً في بلاد الغربة ، لكنه لم ينسجم مع عالم التجارة الذي يقوم على المقايضة :

وهل يستقيم النظم والنثر لامرىء ... يبيع ويشري مرغماً ويساوم

أو قوله :

يا شاعر العرب احذر أن يقال غداً ... كحل التجارة أعمى شاعر العرب
سر في سبيل العلا الشوّاك منفرداً ... وليذهب الناس أفواجاً مع الذهب
ان ضاق عيشك كن مسّاح أحذية ... لا تاجراً يغتني بالغش والكذب

وقد آثر تجارة الأدب على بوارها بين قوم أعاجم لا يفهمون الشعر ولا يتذوقونه لكن أروع ما خلفه لنا وصف معاناته في كسب لقمة العيش وتنقله بين المساكر فوق عربته المخلعة التي يجرها حصانان هزيلان ، لكنه آثر معاناة الغربة عن قبول الذل في الوطن .

فنمسي وفي أجفاننا الشوق للكرى ... ونضحي وجمر السهد فيهن يلعب

ونشـرب ممـا تشرب الخيـل تارة وطوراً تعـاف الخيـل ما نحن نشرب
والشـوك شـوك الـورد مستتر للختـل خلـف نواضـر الزهـر

فكان محصوله حكمـة كانت نتيجـة تجاربه كالمتنبي ، من ذلك قوله :

لو يعرف الكبش أن القائمـين على تسمينـه يضمـرون الشرّ ما أكـلا

وقولـه :

والمرء وهو يداوي البطن من بشم يسعى ليسلب طاوي البطـن ماجمعا

وقولـه :

لا يقفل البشر الأبواب ان رقدوا خوفاً من الدهر بل خوفاً من البشـر

ومن حكمته العملية الواقعية :

لِنْ للزمـان متى اشتدت عواصفـه ان الغصون اذا لـم تلـو تنكسـر

وقولـه :

أنـا لا أصـدق أن لصـا ملحـداً أدنى لربـك مـن شـريف ملحـد

وقـوله :

ما دمت محترمـاً حقي فانت أخـي آمنـت بالله أم آمنـت بالحجـر

وفي رباعياته يخاطب الشاعر « فرحات» أحاسيس الناس وعقولهم في غنائية ذاتيه تقترب من عقلية الشعوب ، وبهذالم يسـجن نفسـه في بحر ذاتيتـه ، بل أطلقها ليتواصل مع بني الانسان ، فصحّ عليه ما قاله الكاتب الفرنسي « فيكتور هوغو » في تأملاته :

« ان حياتي هي حياتكم ، وحياتكم هي حياتي ، أنتم تحيون ما أحياه ٠٠ »

ويرى الناقد « الكيلاني » أن أصالة هذا الشاعر لا تكمن في تفرده فحسب ، بل في قدرته على التعبير عن القيم الانسانية ٠

ولم يذهب ابراهيم كيلاني بعيـداًفي تحليـل شخصية الشاعـر ٠٠ فالياس فرحـات في تقـديري من ذوي الطبـع العاطفي ، الذين يثبتون على أوضـاع يصعب تبديلهـا ، وترسـم الحـوادث في نفوسهم ترجيعاً بعيداً لا يُمحى أثره ٠

ومن هنا كانت صعوبة تكيّفه مع كل جديد ، وبه تعسر هربه من غربته ووطنه وعسر تكيفه يظهر في مواقفه الجدية ، وعدم التنازل عن قيمه وضيق ساحة شعوره وصلابة مواقفه ، وربطه القول بالسلوك :

يقولون لي صادق فلانا فانه　　أخو نجدة يرجى لساعة ضيق
فقلت لهم هذا صحيح وانما　　عدو بلادي لا يكون صديقي

فالشاعر يطبق وطنيته في أصغر المواقف وأجلّها ، انه من أصحاب المبادىء الذين يظفرون باعجاب الناس ، لكنه يتعب في حياته بسببها فهو فارس من فرسان العروبة المعدودين ·

★ ★ ★

عباس محمود العقاد ١٨٨٩ـ١٩٦٤ :

وينقلنا الدكتور كيلاني في رحاب كتابه الى الكاتب عباس محمود العقاد الذي جاء في عصر انفتاح على كل جديد، وتخلٍّ عن النمط الموروث من العادات والتقاليد ، فكان العقاد مجدداً يؤمن بالانفتاح وتجديد الأدب والفكر ·

وليس في سيرة عباس العقاد ما يلفت النظر ، فقد ولد في مدينة أسوان عام ١٨٨٩ م ودرس في مدارسها ، وكان أبوه يصحبه الى مجالس الأدباء ، ورجال الفكر من تلامذة جمال الدين الأفغاني ومريديه ، فاستغنى بصحبتهم عن متابعة الدراسة ، وتعززت ثقافته ، وتأثر بالأفغاني الداعي للاصلاح والنهضة ، وأسعفته مطالعاته بنضج في التفكير ،والتفاعل مع الثقافة العربية والعالمية ، التي عرضها في مجموعات كتبه كالمطالعات والمراجعات وساعات بين الكتب والفصول ·

وقد أوتي « عباس العقاد » بدافع نفسيته الاستقلال الفكري ، وساعده وضعه المادي على التفرغ للابداع الأدبي ، فلم يعمل في الوظائف ، غير أنه انخرط في غمار السياسة فانتسب الى حزب الوفد ، لكن طبيعته ردته الى العمل الفكري ، وعشق المبادىء الانسانية والقيم الجمالية التي تتجاوز العصبية الضيقة ، ونظم الشعر في أول حياته لكن نزعته العقلية لم تكن تتفق

وطبيعة الشعر الذي يقوم على المشاعر ،فكان أدبه النثري أكثر قرباً لميله الى التحليل ، وجاء شعره محكوماً بالمنطق والحكمة والشك بالناس ، ولم يكن مرتجلاً في نتاجه بل كان يخضع الأفكار طويلاً للاختمار قبل أن تظهر للناس · وفي هذا التحضير قضاء على العفوية وحرارة الشعور ، فلم يكن شعره ثمرة احساسه المباشر ·

آمن « عباس العقاد » برسالة الأدب، فهو في رأيه : صلاة الروح ونداء الرائد، وجمال الحياة · وقد جهد أن يعيد للأدب رونقه بالتنظير له والممارسة ، ويؤمن أيضاً بأن الأدب لا ينبع من العفوية ، بل لا بدّ للأديب من جهد ومعاناة ، الى جانب الموهبة المتميزة ، والاعتماد على الذات والطبع ، وقد بنى تجديده على الأصالة الأدبية والحفاظ على اللغة العربية والافادة من آداب الأمم الأخرى في تجديد أساليب التعبير ومناهجه وتجلّت أصالة العقاد في أسلوبه النثري، ومحافظته على استقلاله الفكري ، كما خصّ الأصالة في الأدب بكثير من الأبحاث النظرية والتطبيقية ·

وأما الحفاظ على اللغة فقد آمن العقاد بقدرة اللغة العربية ومزاياها التي تحسن في الذوق وتزيد المعاني صقلاً وبياناً، ويتوقف على المبدع حسن الاختيار من بحرها الواسع ، مما يستلزم من الأديب أن يتزود بأسرارها وأساليبها، وأن يملك درجات عليا من القدرة البيانية توازي ما يملكه من القدرات العقلية، فان الأدب لا يقوم إلا على التوازن بين الفكر والتعبير عنه ، ونجح «العقاد» في نثره بالمواءمة بين الفكر واللغة ، فهو عميق الأفكار ، واضح التعبير ، دقيق المحاكمة ، بارع في اختيار مفرداته ،ويضفي على ذلك كله حماسه في طرح أفكاره والدفاع عنها · وأما تجديده الذي يقوم على الافادة من الآداب الأجنبية ، فقد أفاد « العقاد » من ثقافته الأجنبية وضمّنها آراءه ومواقفه ، لكنه رفض من أن يكون تجديده على أساس تبعية مستوردة ، فهو يؤكد ضرورة تمثلنا لتراثنا قبل أن نرتمي في أحضان الفكر المستورد ونخلب به ·

ومع أن اعتداد « عباس العقاد »بنفسه وشخصيته ، فان خصومه اعترفوا له بامتلاك أداة الأدب وعُدة البحث ·· فقال مصطفى صادق الرافعي فيه ، وكانا متعارضين فكراً وأسلوباً :

« من آفة الذين يدعون النظر في كلام الناس ، أنهم يفقدون استقلال الفكر وابتكار القريحة ، وليس كذلك العقاد ، فان رأيه لقوة عقله وسلامة طبعه يظل متميزاً من رأي الكتاب ، مهيمناً عليه ، يؤيده أو يفيده ولكنه لايسمح أن يذوب فيه أو يتأثر به ٠٠ »

* * *

خليل مردم بك ١٨٩٥ ـ ١٩٥٩ :

لعل أكثر الدراسات منهجية وأصالةوجدة تلك التي قدمها الناقد الكيلاني عن الشاعر السوري خليل مردم بك ٠٠استهلها بنشأته ، فذكر أنه ولد عام ١٨٩٥ في دمشق من أسرة عريقة في الوجاهة واليسر، ونشأ يتيماً فاقد الحنان مما خلق لديه استعداداً للكآبة والعزلةوالانطواء على الذات ، غير أن يتمه عصمه عن مفاسد أبناء اليسار ، وانقطع عن الدراسة طفلاً بعد وفاة أبيه ، الا أنه استعاض عن التعليم النظامي بدروس خصوصية ، فتعلم بعض الفقه على الشيخ عطا الكسم مفتي سورية ، وطرفاً من الحديث الشريف على المحدث الشيخ بدر الدين الحَسَني ، ودروساً في الصرف والنحو على الشيخ عبد القادر الاسكندراني ، وظهر ميله للشعر في سن مبكرة ، مما حفّزه على قراءة كتب الأدب ودواوين الشعراء ، وأعجب بكلام الاعراب فجمع منه قدراً نشره في كتابه « الاعرابيات » وأولع بمحيطه الدمشقي وعاداته وتراثه فعني بأمثاله وأدبائه ، فحقق ديوان « ابن عنين » وهو شاعر من« حوران » عاش في دمشق و « ابن حيّوس » و « ابن الخياط » الدمشقيين. وطبعته بيئة دمشق الناعمة وغوطتها الغناء برهافة الحس والرقة ، ووفرةالتهذيب والهدوء والتأدب وأنس المجالسة واللطف ، كما كان لمنشئه الأسري الرفيع أثر في سلوكه واعتداده بنفسه وطبقته دون صَلف ، فلم يكن متكبراً لكنه كان مترفعاً عن مخالطة الناس صوناً لنفسه من الابتذال ، ولم يكن يجهد بالدفاع عن طبقته في مواجهة التبدلات الاجتماعية ، ولا عارض ذلك المد ّالجماهيري الذي كان يطمح الى ازالة الفوارق الاجتماعية ، لكنه لم يتخلّ عن الاعتزاز بالألقاب المتوارثة ٠

لم يتأثر « خليل مردم بك » بثقافة أجنبيه ، وانما عمل وسطه على تكوينه وهو وسط ثقافي عربي خالص ، كما صقلت بيئة دمشق روحه ، فهو واحد من

شعراء المدرسة الشامية التي حدد سماتها النقاد برقة الطبع وحلاوة جرس الشعر ، والامتزاج بالطبيعة ٠٠ وما زالت تحتفظ بهذه السمات بعده وأصحاب هذه المدرسة الشامية لايعنون كثيراً بالفلسفة والتأمل، وانما يفهمون الشعر غناء رقيقاً يفيض من العاطفة والحس ٠

وأعجب « خليل مردم » بالشاعر البحتري ٠٠ فكان شاعره المفضل ، ولا عجب في ذلك فهو من أعلام هذه المدرسة الشامية ، وشعره يمتاز بالرقة حتى سمي « سلاسل الذهب » وهو شديد الولع بالطبيعة وتشخيصها ٠٠

وخالف وصية أستاذه أبي تمام ، فلم يعقد شعره بالفلسفة ، وانما جارى عفويته وصفاء طبعه ٠

مرآة أحلامي ومرتع صبوتي　　وهوى فؤادي بل ومتعة ناظري
كم جولة لي ثم حائرة الخطا　　بين الخمائل كالفراش الحائر
يقتادني في كل شطر جاذب　　من منظر نَضْر وحسن باهر
والزهر يلقاني بثغر باسم　　وبوجنه حمرا وجفن فاتر
من أحمر قان وأصفر فاقع　　أو أزرق زاه وأبيض سافر

والشاعر خليل مردم مولع بالتشخيص ، في وصفه حركة وحياة وخفة ، وتصدى لموضوعات تشق على الشعراء فأجاد ، من ذلك وصفه المبدع لفراشتين في حقل ، سخّر فيه حاسة البصر ، فجاءت القطعة حافلة بالألوان والحركة :

تسر الناظرين فراشتان　　بروض ناعم تتغازلان
تبرجتا بنفض من سواد　　على أعطاف حلة أرجوان
اذا ما ثارتا فشرارتان　　واما قرتا فشقيقتان
أفانين من الحركات زاغت　　لها عيني وعيّ بها لساني

كما تناول في وصفه موضوعات انسانية ، فوصف الضحية والجزار الذي يذبحها ورمز بها لذبح الشعوب ، ووصف الرقص ممهداً الطريق في هذا الباب لغيره من الشعراء كنزار القباني ، وهو في وصفه لعادات أبناء طبقته التي أخذت

بأسباب الحضارة الغربية يقوّم هذه العادات الوافدة ويتساءل عن مصير المجتمع ·· لكنه لا يرفضها · وفي وصفه نزعة تسجيلية ودقة ملاحظة يقول في وصف الرقص :

فخاصرها بيمناه والقت — على مخفوض عاتقه اليسارا
كان مواطىء الأقدام نار — بقلبي فهي لا تلغي قرارا
فطوراً ينهبان الأرض نهباً — كرئم نافر يطوي القفارا
اذا يعطو لها بالجيد دلت — فتَعْطُفُ تارة وتعتد تارا

وله قصيدة أخرى في الرقص مطلعها :

نفخ الصور فهبّوا مسرعين — مثلما نفرت طيراً في الصفير

وختمها متسائلاً :

ليت شعري ، كيف حال الراقصين — بعدما الرقص غزا ذات الصدور
أيّ وجدانٍ وحسٍّ يجدون — من هوى النفس وخلجات الضمير؟

ويبدو أن الشاعر قد انساق وراء هوى نفسه في شبابه، وكان مولعاً بالجمال في مختلف أشكاله ، ورأى فيها نزوعاً الى المطلق ، فهو صورة الخالق على الأرض :

تعالى المبدع القدس — مثال عنه مقتبس
فما أدري أظل الله — أم نوره قبس

وحين كتب الشاعر حليم دموس وقال :

عادة التقبيل لا أقبلها — فهي سم قاتل فينا نزل

ردّ عليه خليل مردم قائلاً :

« لا أدري ما الباعث على نظم هذا البيت ··؟؟ هل كان عقب قراءتك فصلاً عن الجذام والبرسام ··أم مرت بخاطرك عجوز عجفاء كأن وجهها شنّ بالٍ ··!! » ·

ويبدو أن الشاعر « خليل مردم » بعدما تجاوز سن الشباب ، وعانى من المرض ، وانفضّ من حوله الأصحاب ، مال للكآبة ، وتحسر على ضياع شبابه :

يا ليتني لمّا شربت الكأ س صرفاً لم أثنّ
أو أنني لما انتشيت من المدامة لم أغنّ
بل ليتني لما شممت الورد لم أقطف وأجن
أو أنني لما ارتويت تركت شيئاً للتمني
لم أنتفع يوماً بعلمي في العواقب أو بظني
حتى صحوت قرعت من ندم على الاسراف سنيّ

وهي أبيات رائعة في مراجعة الذات. على أن الشاعر قدم لأمته الكثير ، ولم يذهب عمره سدى ، فقد عاش في فترة مناهضة الاستعمار ، فنذر شعره لوطنه سورية ، لكنه لم يتوجه بالخطاب للمستعمر بل كان يؤثر أن يخاطب قومه ، فيحثهم على الوحدة الوطنية ، ويذكرهم برسالة العروبة ، ومن أروع قصائده الوطنية رثاؤه للبطل الشهيد يوسف العظمة وفيها يقول :

أيوسف والضحايا اليوم كثر ليهنك كنت أول من بداها
فديتك قائداً حياً وميتاً رفعت لكل مكرمة صواها
مصيبة ميسلون وان انصت أخف وقيعة مما تلاها
فما من بقعة بدمشق الا تمثل ميسلون وما دهاها

وله في ضرب مدينة دمشق بالقنابل عام ١٩٢٥ قصيدة يقول فيها :

باتت دمشق على الطوفان من لهب يا دين قلبي من خطب تكابده
في ذمة الله والتاريخ ما لقيت وفي سبيل الأماني ما تصامده

ونلاحظ في شعره الوطني نزعة عربية قومية شاملة ، وكان جريئاً في تحديد السلطات المنتدبة ، لكن شعره ظل بعيداً عن التحريض ، فهو أقرب الى نصح قومه وإرشادهم وتذكيرهم بماضيهم العربي المجيد .

* * *

محمد البزم : ١٨٨٤ ـ ١٩٥٥

وفي دراسة عن الشاعر والنحوي المعروف « محمد البزم » يتحدث « الكيلاني » عن فترة إحياء التراث إثر النهضة القومية ، وكان « البزم » أحد أعلام النهضة من الذين خدموا اللغة العربية ، وأخلصوا لها تدريساً وابداعاً.

برز « محمد البزم » في تدريس مادة النحو ، أما عن حياته .. فقد ولد بدمشق عام ١٨٨٤ م من أسرة استقرت فيها منذ مئتي عام وافدة من العراق ، ووالده « محمود البزم » تاجر أقمشة . وشب ابنه على عمل أبيه . فلم يلتحق لمدرسة ولم يتعلم القراءة إلا بعد العشرين من عمره . كان يتعاطى بيع الأقمشة في سوق القزازين مع أبيه وعمه ، ولم يحفظ من العلم غير سور قصار من القرآن الكريم ، ويتاح له أن يطلع في بيت عمه على كتاب « المستطرف » فلم يفقه منه إلا القليل ، ثم أتيح له أن يدخل المكتبة الظاهرية وهي حافلة بشتى الكتب والمراجع ، فحفزته رؤيتها لطلب العلم، واتصل بالشيخ عبد القادر بدران ،فقرأ عليه ديوان المتنبي ، وفصولاً من كتاب « مغني اللبيب » ، وقسماً من « دلائل الاعجاز » وكتاباً في « الأصول » ثم اتصل بالعلامة جمال الدين القاسمي ، فقرأ عليه البلاغة والمنطق .

ودرس بعد ذلك على يد الشيخ صالح التونسي ، ثم ندب مدرّساً للعربية في المدرسة العثمانية . ومحمد البزم مثال للرجل العصامي الذي بنى نفسه بجهده وجهاده العلمي الذي قاده الى اتقان اللغة العربية وتعرف أسرارها . كان « محمد البزم » مغرقاً في الطول ذا منظر بهي وحركات هادئة ، في شموخه لون من التعالي والمهابة، ومع اتزانه كانت روحه ثائرة ، ومزاجه حاداً ، وأوقعه إخلاصه للعلم في خصومات ومجادلات ، ولا سيما في ميدان النحو الذي طمح أن يجاري فيه علماءه كسيبويه والأخفش ، وكان ينفذ الى خصومه من الناحية العلمية ، ولم يكن ينجو من تصرفاته ولسانه تلامذته ومعارفه وزملاؤه سوى الشيخ سليم الجندي ، كان لمحمد البزم بروز في النحو لكنه لم يؤلف فيه ، وأخذ على نفسه التحدث باللغة الفصحى في حياته العامة، حتى أصبح يتكلمها بيسر عجيب :

ويروي عنه تلميذه « ابراهيم الكيلاني » أنه كان معه في المطاعم ·· فخاطب الخادم قائلاً بلغة فصيحة :

إئتني بقصعة من الحمص ، وإياك أن تذر عليها شيئاً من التوابل والأفاويه وجنبني ما استطعت الحامض والزيت ·· فوجم الخادم محتاراً ··

كان محمد البزم يأخذ طلابه بالشدة ، فالويل لهم إذا غلطوا ، فهو يعلق على غلطهم بمثل قوله : ويل للعربية من أمثالك ·· أو : ليتك رزقت الخرس ولم تجب ·· وقد ألِفَ طلابه منه ذلك ، فكانوا يتقبلون منه الهجوم ، ويثيرونه أحياناً ليسمعوا ما يمتعهم ، وهو يرى في ذلك تطرية للدرس ، وجذباً لطلابه وترويجاً عنهم ، ويبدو أنه اعتمد منهجاً معيناً في تدريس النحو ·· فمال الى تحديده وتقييده من خلال كلياته ، وأمعن في التطبيق عليه ، وحببه الى نفوس طلابه بأساليب تربوية ، وكان يحسن الظن بقدرة طلابه على تمثل هذه المادة التي يرى أنها اتهمت بالجفاف والجمود ، فهي أدعى لاثارة تفكير الطالب وإمتاعه· فمن تعريفاته الطريفة للحال : هو نعت خالف منعوته فعوقب بالنصب ··

كان محمد البزم يؤمن أن النحو علم ينسجم في بساطة وسهولة مع طبيعة العرب الذين ابتدعوه ، وقد علقت به أوضار على مر العصور غيرت معالمه ، وطرأت عليه أحوال نقلته من علم عملي الى علم نظري ، ويعتقد أنه علم عملي يجب أن يرى ويلمس ، ويرى « البزم » أن الأجانب هم الذين عقدوا النحو انتقاماً من العرب ومنهم سيبويه ·· وأن عملهم كان جزءاً من نزعتهم الشعوبية·· يقول في ذلك بمناسبة تكريم «المعري» :

وأصبح نحو العرب في حوز عصبة ... شعوبية أرباحه ومتاجره
فكشفت من أحوالهم كل فاضح ... وأحللت كلا حيث تبدو مناحره

كان عقل « محمد البزم » أقوى من إحساسه ، وذكاؤه أنفذ من شاعريته وتحصيله اللغوي فوق مستوى متلقي شعره ، فناء نظمه تحت ثقل ثقافته اللغوية التي كانت سداً منيعاً بينه وبين من يكتب لهم ، وخاصم «محمد كرد علي» في مهرجان « أبي العلاء المعري » بسبب بعد شعره عن معاصريه ، فقد كتب

قصيدته في المعري ·· وجعلها في مائة وخمسين بيتاً ، وأوكل أحدهم ليقرأها ، وكانت مثقلة بالغريب ، فلم يصغ اليها الحضور ، وجلّهم من أنصاف المتعلمين أو ممن يرون أن ذلك اللون من الشعر قد تجاوزه العصر ، وساد الهرج والمرج في القاعة · فأمر محمد كرد علي بالتوقف عن إلقائها على أن تنشر القصيدة في مجلة المجمع العلمي العربي · وعدّ « محمد البزم » ذلك إهانة له ، وانتقاصاً من قدره ، فحمل عليه حملة شعواء متناسياً فضله ، غير مقدر لظرفه ·

ونلاحظ أنه في شعره مقلد متبع ، تغلب عليه الصنعة ، وفيه نفس المتنبي وشدة أسره وقوة نسجه ، لكن ليس فيه موهبة المبدع المبتكر ، هو يقلده في الحكمة وطلب المعالي والفخر :

ولو شئت سيرت القوافي جحافلا ... وأوقرت أسماعا وكان لي الفوز
وان قناة الشعر لو ماد متنها ... لقومها مني ومن قلمي غمز
اذا أنشد الأقوام شعري حلا لهم ... وبعض قريض القوم مطعمه مزّ

كان « البزم » شخصية منطوية على ذاتها ، لا يخالط الناس ، ولا يكثر من الأصحاب ، لكنه شارك في شعره أحداث وطنه وأمته ·· فرثى قائد الثورة العربية ·· ومجّد نضال البطل حسن الخراط :

يا مؤثر الموت في انقاذ موطنه ... ركبت صعبا فلا لاقيت خذلانا
سرّت ذكرك في الآفاق تحمله ... جوائب الجو أفراحا وأحزانا
وليس عندك من مال ولا عدد ... الا العزائم قد مُثلن ايمانا

كما استنهض الهمم ، وتغنى بأمجاد أمته ، وتألم لنكساتها ، وعالج أدواءها الاجتماعية ·· وللبزم مقالات نثرية منشورة قليلة العدد يميل فيها ألى استخدام اللفظ الغريب ، والعبارة الجزلة ، لكن قلتها لا تؤهله لأن يُدرج بين كتّاب النثر في عصره ·

في نهاية حياته ، تعاورته العلل والأوجاع ، وكف بصره قبل وفاته ·

★ ★ ★

محمد كرد علي ١٨٧٦ ــ ١٩٥٣ :

يرى الدكتور ابراهيم الكيلاني في بحثه وترجمة حياة العلامة محمد كرد علي أنه أستاذ الجيل بلا منازع ، وصاحب اليد الطولى في بعث التراث العربي ٠

ولد الأستاذ الرئيس محمد كرد علي في دمشق عام ١٨٧٦ م ، وتلقى علومه في المدرسة الأموية ، فالرشدية العسكرية ، ونال اهتمام ورعاية أبيه الأمي الذي حرص أن يكون ابنه متعلماً ، فاشترى له خزانة كتب وهيأ له أساتذة يدرّسونه ، واتصل بأعلام النهضة الثقافية في سورية ، وعني بمطالعة كتب التراث ، وأتقن اللغة الفرنسية ، فاتسع أفق اطلاعه ، وكان قد اتخذ له مبدأ في العمل : أن يقرأ أكثر مما يؤلف ٠

أسهم « محمد كرد علي » في تحرير جريدة « الشام » في مطلع شبابه ، ورفد مجلة « المقتطف » بدراسات متنوعة ٠ وضيق عليه العثمانيون الخناق أيام السلطان عبد الحميد ، فنزح الى مصر ، وشارك في تحرير جريدة « المؤيد » ، وأسس مجلة « المقتبس » التي أطلق اسمها على جريدة أصدرها في دمشق بعد عودته اليها إثر الانقلاب العثماني ، وسافر الى أوربا ٠ فكان ثمرة أسفاره كتابه « غرائب الغرب » ثم تولى رئاسة ديوان المعارف زمن الحكومة الفيصلية ، فعمل على اصلاح التعليم بما يلائم روح الأمة العربية ، وطور ديوان المعارف حتى تحول الى مجمع علمي تم تأسيسه في عام ١٩١٩ م وشغل رئاسته ، وعين وزيراً للمعارف في حكومة الشيخ تاج الحسيني ، فسعى الى تأسيس مدرسة الآداب العليا ، ولم ينقطع عن التأليف ، فمن آثاره :

خطط الشام ــ رسائل البلغاء ــ أمراء البيان ــ الاسلام والحضارة العربية ــ كنوز الأجداد ــ أقوالنا وأفعالنا ــ المذكرات ــ المعاصرون في تراجم الأعلام ــ ويشير الدكتور الكيلاني الى عصامية كرد علي الذي كوّن نفسه في ظروف سياسية واجتماعية قلقة بفضل إرادته وإخلاصه للعلم ، وتفانيه فيه ، حتى استطاع أن يبدع في شتى المجالات التي عمل فيها ، فكان صحافياً بارزاً ، ومؤرخاً متميزاً ، وأديباً طاع له البيان ، ومفكراً منفتح الأفق عميق التفكير ٠

ويصفه الكيلاني ــ وهو تلميذه ــ شخصية محمد كرد علي الجسمانية والنفسية ، ويشير الى صلابة مواقفه وقوة إرادته ، فيرد صلفه الى أصوله الكردية من جهة الأب ، والشركسية من جهة الأم ، فهو من النموذج العصبي ، سريع الغضب ، سريع التحول الى الرضا ، مع ما وراء ذلك من نقاء السريرة ، وقد أهله طبعه لمواقف جريئة وصراحة في القول جرّت عليه خصومات مع أعداء العربية ، فحارب أولئك الذين وقفوا عثرة في مسار النهضة والتقدم ·

كانت له مواقف أبرزها الدفاع عن اللغة الفصحى في وجه أنصار العامية وكتابتها الحروف اللاتينية ، ورافقها ــ يومئذ ــ اتجاه بالمطالبة لأدب اقليمي يكون أقرب تعبيراً عن روح الطبقات الشعبية ، وتورّط في هذه الدعوات أعلام بارزون ، وفند محمد كرد علي حجج هؤلاء الدعاة في المجمع ، وبيّن خطورتها على تراثنا ، وطمأن الناس أن النهضة الفكرية والثقافية التي تشهدها الأمة العربية كفيلة برفع شأن اللغة الفصحى ، وترقى بها ، وتقرب الشقة بين العامية المحكية وبينها ، وسفّه حجج المدعين صعوبة اللغة العربية وعجزها عن مجاراة العصر ، وقد جرّت عليه صراحته الدخول في معارك وخصومات مع بعض أعلام عصره ·

وأفاض « الكيلاني » في تتبع هذه الخصومات مما لا يفيد إلا زراية بالعلماء الذين بلغوا من المعرفة درجة ممتازة ، لكنهم ظلوا بشراً لم يرفعهم العلم الى رتبة الترفع عن الحقد والتنزه عن الضغينة ، إلا أن « الكيلاني » دوّن نموذجاً من النقد بين عمالقة الأدب للأمانة والتاريخ ·

* * *

الشاعر محمد الفراتي : ١٨٨٠ ــ ١٩٧٨

هو شاعر من مدينة دير الزور ·· وأغفل « الكيلاني » زمن ولادته وظروف نشأته ، واكتفى بالاشارة الى شخصيته اللطيفة وأدبه الجم ، وصوفيته ·وتحدث عن شعره حديثاً وجيزاً ، فحلل قصيدة « يا موت » التي يقول فيها :

اليك يا موت عني جهلت ويحك قدري
لا بدّ من حمل نفسي يوما وان طال عمري

ورأى أنه لم يرق الى حكمة « المتنبي » في الرثاء ، بل آثر الالتصاق بالحكمة الواقعية البعيدة عن التجريد ·

والشاعر محمد الفراتي مع حبه الحياة ، فانه حرم لذائذها ، فانقلب حرمانه ترفعاً وتسامياً :

فلو كنت مدّاحاً كشوقي لما سفت — عليَّ السواقي من شقائي ومن نفسي
اذا كنت أكتال المديح لعاهلي — فاصبح من نعمى الحياة كما أمسي

وينقد « الفراتي » مجتمعه الذيلا يقدّر المواهب، ويمنح اليسر والدعة من لا يستحقهما :

قضيت عمري كله — بين الدفاتر والمحابر
أتريد مثلي أن يفكر — بالمرابح والمتاجر
حسبي باني شاعر — والشعر مفخرة المفاخر

نشأ « محمد الفراتي » في بيئة دينية محافظة ، ودرس في الأزهر ، وتعلم العلوم العصرية ، فجمع بين مادية العلموروحانية الدين ، وطوّف في الآفاق ، وشهد تقلب الأحوال ، فانطبع شعره بالحكمة حصيلة تجارب الحياة والنظر في أحوال الأمم ، وتقلب الأيام ، فينتهي به المطاف الى اللجوء للخالق هرباً من نزعات العقل وشكوكه :

أجذبيني اليك يا قوة الله الى حيث تنطوي الأكوان
أجذبيني فقد سئمت مقامي — مع عقلي وشفّني الهجران
ان قلبي اليك يبرأ من — عقلٍ سليب أذلّه الخسران

وقادته نزعته الدينية الى صوفية رسخت لديه بعد شكوك وحيرة وتساؤلات قادها تأمله بأحوال الكون والوجود :

اني أسفت على الأيام أقطعها — بالترهات وفيما ليس من شغلي
فما جنيت سوى الآثام من عبثي — ولا استفدت سوى الآلام من عملي
معارف وعلوم كم شقيت بها — فرحت ألهو بها كالطفل بالوحل

يا ضيعة العمـر اذ أفنيت معظمه   بالقال والقيل والتعليل والجدل
علمت أن سـبيل الحـق واحـدة   فلـم ضللت بآلاف مـن السـبل

ونذر « الفراتي » قلمه ليقظة أمته ومسايرة الركب الحضاري ، لكن شعره ظل خافتاً لم ينفذ الى أسماع الجماهير في زمان برز فيه شعراء كالكاظمي والرصافي وشوقي والزهاوي وحافظ ابراهيم ٠٠ ممن سدّوا عليه منافذ الشهرة ، مع أن شعره متعدد الأغراض والاتجاهات ، يحاكي شعر القدامى في بساطته وعفويته وجزالة سبكه ، فهو شاعر مطبوع ، غني في غير سربه ، وجاء في زمان تحوّل فيه الشعر وتبدلت أذواق الناس ، إلا أنه أثرى الأدب العربي بترجماته الشعرية لبعض آثار الشعر الفارسي كالبستان للشاعر سعدي الشيرازي ، فأدى للأدب خدمة جليلة ٠

* * *

هذه لمحة عن كتاب « شخصيات وصور أدبية » للناقد الدكتور ابراهيم الكيلاني ترسّم فيه خطى غيره في الترجمة لأدباء وشعراء ٠٠ وقد أجاد في اختيار وتقديم ترجمات لأعلام أدبية من سورية ٠٠ ندر أن نجد لها ترجمة وافية شاملة في مصادر أخرى، وبذلك فقد قدّم خدمة جليلة لأدبنا المعاصر ٠ وقد اخترت من الكتّاب الشخصيات الأدبية الذين كانت ولادتهم في نهاية القرن التاسع عشر ٠٠ ويُمكن تصنيفهم مع أعلام التراث العربي القريب ٠

دمشق : عبداللطيف أرناؤوط

* * *

سماط الروح

عبدالوهاب الشيخ خليل*

من أين أبدأ حار الفكر والقلم ... والأمر أعجز ألباب الألى نظموا
أأذكر الدرب كم وادٍ مررت به ... أم أذكر القلب والأشواق تضطرم
قال الرفاق نحج البيت قلت لهم ... هيا بنفسي جلال البيت والحرم
وضمني الدرب في سلك الحجيج ضحىً ... في صحبةٍ فتيةٍ يحدوهم الشمم
نطوي الدروب وتطوينا معاطفها ... فان قطعنا سحيقاً لفّنا علم
ليل" وليل" نجوب الوعر نرغمه ... على الليان وتشجو ركبنا القمم
حتى وصلنا الى الميقات فاغتسلت ... من الذنوب نفوس شوقها عرم
وأسلمت أمرها لله تائبة ... لم يبق إلاّ الرجا في القلب والندم

* * *

سرنا إلى الله أرواحاً يغلّفها ... بياض إحرامها والهدي والكرم
نقول لبيك والرحمن يسمعها ... ومن شذاها رياض الخلد تبتسم
«لبيك» .. «لبيك» كم ذابت بها مهج ... وكم تلاقت على أصدائها أمم
لبيك وحدك جئنا نبتغي صلة ... وقد تسابق منا القلب والقدم
وراعنا محفل الحجاج يُصخبُه ... روع الطواف وركن حوله ازدحموا
تعلّقوا بحبال العرش توصلهم ... الى النجاة فيا بشراهمو غنموا

(*) شاعر من سورية .

وذبت في دارة التطواف لا جسد ... غير الفؤاد ودمع العين ينسجم
أطوف بالكعبة الغرّاء أسألها ... من غير قول ، لقد جافاني الكلم
يا قبلة الله إني جئت محتسباً ... ما كنت أحسب أن الشمل يلتئم
فالنفس تهفو وزيف العصر يخدعها ... فهل ملاذ لدى رُكْنَيْكِ أعتصم
إني سئمت حياة في تناقضها ... فَيْضُ الصفاء بصخر الوهم يرتطم

★ ★ ★

ورحت أبكي بكاء الطفل روّعه ... خوف العقاب وفي روعاته النهم
حتى أفقت على حِسٍّ يؤنبني ... لا تأس ويحك واغنم مثلما غنموا
هنا النبيون قد لاذوا بخالقهم ... هنا الملائك قد لبّوا وقد خدموا
فاسفح فؤادك في أعتاب حضرته ... لعلَّ ذنبك في الأعتاب ينعدم

★ ★ ★

وهمت أحتضن الأركان ألثمها ... لم يبق إلا فؤاد هائم وفم
يا قبلة الله في ركنيك عاقبتي ... يا قبلة الله ما غير الرضا عدم

★ ★ ★

وشاء صَحْبِيَ إنهاء الطواف معاً ... يا ليت صَحْبِيَ فيما ذقت قد علموا
ناجيت ربي بقلبي ذائباً بفمي ... إني ببابك يا غفار معتصم
اغفرْ ذنوبي وانصرني على فكري ... فالفكر يهزمني طوراً وينهزم
تعثّر الرأي في ذهني فخذ بيدي ... إن لم تقلني فان الحبل منصرم

★ ★ ★

وأقبلت نسمة عذراء صافية ... من الضمير تهاوى والهدى نسم
فلامست موطن الأسرار فازدهرت ... فيه السكينة وانداحت به النعم
وعدت أنفض عن جنبيَّ مغتبطاً ... غبار أوزاريَ الجلّى وأبتسم

نشاطات في خدمة التراث

حلب .. وطريق الحرير

علي القيم*

حلب **مدينة فريدة من نوعها في العالم ، فهي قديمة قدم التاريخ ، وهي تحمل كل سيماء المدينة المعاصرة ، وكانت موجودة ومزدهرة في كل مراحل التاريخ ، ولعبت أدواراً هامة في تاريخ المشرق العربي القديم وفي تاريخ العرب المسلمين٠٠ انها حلب أو حلبابا ، وتعني النحاس باللغة العمورية ، فقد كانت منذ القديم مركزاً لتجارة النحاس ، وورد اسمها (أرمان) أو (أرمانو) في عهد سارغون الأكادي منذ عام (٢٥٠٠) قبل الميلاد ٠ وأصبحت هذه المدينة عاصمة لمملكة (يمحاض) واستمرت مزدهرة في مراحل التاريخ المختلفة ، ومحطة هامة في طريق الحرير العالمي ٠**

ومن خلال هذه الأهمية والخصوصية النادرة دفعت وزارة الثقافة في نطاق نشاطاتها المتعددة للعقد العالمي للثقافة الذي أقرته منظمة اليونسكو لاقامة الندوة الدولية:حلب وطريق الحرير،التي رعاها السيد الرئيس المناضل حافظ الأسد،وأشرفت عليها المديرية العامة للآثار والمتاحف،وذلك بين ٢٦و٣٠ ايلول١٩٩٤،وشارك فيها (٤٢) باحثاًومختصاً ومؤرخاً قدموا من بعض الدول العربية والأجنبية بالاضافة الى سورية ٠

موضوعات هذه الندوة الدولية كانت حول أربعة محاور :

● المحور الأول :

ـ **الوسط الطبيعي لمنطقة حلب :** معطياته الجغرافية ، الجيولوجية ، الجيومورفولوجية ، والبيئوية القديمة ٠

(*) كاتب وباحث في التاريخ والآثار ، عمل في حقل الآثار والمتاحف أكثر من عشرين عاماً ، ونشر العديد من الكتب والدراسات الهامة عن تاريخ وآثار وفنون وحضارة سورية العربية، يعمل حاليا معاوناً لوزير الثقافة في سورية٠

● وكانت أولى هذه المحاضرات للدكتور عبد الرحمن حميدة حول «المعطيات الجغرافية عن منطقة حلب» الذي تطرق الى ما تتمتع به هذه المنطقة من وضع جغرافي متميز على صعيد الاتصالات الأرضية بين بلاد ما بين النهرين والخليج العربي من ناحية ، وبين البحر المتوسط الشرقي من ناحية أخرى ، وذلك بعد اجتياز ممر بيلان الذي لا يتجاوز ارتفاعه (٦٠٠) متر والذي يقود بسهولة الى اسكندرونة بعد اختراق سهل العمق ٠

وتبدو حلب في وسط منطقتها وكأنها العنكبوت في قلب شبكتها المؤلفة من شبكة طرق ، مما منحها موضعاً ممتازاً كعقدة مواصلات ونواة تجارية بين القارات الثلاث في العالم القديم ، وإذا كانت المواد الأولية المعدنية لا تتوافر بكثرة في هذه المنطقة ، فان المواد الأولية الزراعية تقدم أساسات صناعية نشيطة ، وفضلاً عن ذلك فان الحركة التجارية البرية والبحرية كانت تقدّم لها منذ أقدم العصور المواد الأولية والثمينة من الشرق ، ولا سيما الحرير نظراً لوقوعها على محور تجارة هذه المادة ٠

● وبحث « بول سلانلافيل » في التغيرات المناخية في سورية والشرق الأدنى خلال العشرين ألف سنة الماضية » فأكد على وجود علاقة تبادلية بين التغيرات المناخية والتطور الديمغرافي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي في المجتمعات الانسانية ، فالمستوطنات تتراجع نحو المناطق الأقل سوءاً ، وتتضاءل في الفترات التي يسود فيها المناخ، في حين ٠ وبتحسن المناخ تزداد كثافة المواقع وتتوسع الى أبعد من حدود مناطق الحضارات المطرية ، ومن جهة أخرى ، نجد أن التطور في المجتمعات الانسانية غالباً ما يتوافق مع الفترات التي يصبح فيها المناخ غير ملائم ، وكأن الانسان يدفع دفعاً ليجد حلولاً للاستخدام الأمثل للمكان والأرض (الانتقال من البداوة الى الاستقرار حصل في فترة جافة في بداية الألف الثامن قبل الميلاد) وهذا يعني أن التغيرات المناخية قد شجعت التطور الاجتماعي الاقتصادي وزادت من سرعته في المجتمعات الانسانية المشرقية ٠

● ونقف مع ملاحظات « جاك بيزانسون وبرنارد جيبر » حول تبدلات المحيط الجيو - بيئي في سورية الشمالية ، لنصل الى دراسة الوسط الطبيعي لحلب وموقعها الجغرافي مع الدكتور عادل عبدالسلام ، فيشير الى أهمية الموقع

الجغرافي الفريد الذي جعل من حلب مركزاً تجارياً واستراتيجياً بارزاً ، ويميزه بالخصائص التالية :

١ ـ يبعد موقع حلب مسافات متقاربة عن كل من الفرات (شرقاً) والبحر المتوسط (غرباً) وعن جبال طوروس (شمالاً) والجبال الوسطى (جنوباً) •

٢ ـ أرض موقع حلب منخفض شبيه بوعاء واسع ترتفع حافاته تلالاً بارزة حوله ، تعلو في الشمال والغرب وتنخفض في الجنوب والشرق ، يشقه وادي نهر قويق في الغرب ، وتتوسط هذا المنخفض تلّة كبيرة ، وأخرى غربها ، هما تلّة القلعة وتلة حي العقبة الأصغر التي كانت الموقع الأول لمستوطنة حلب ، مما أكسب موقعها قيمة استراتيجية كبيرة وأمّن لها حماية طبيعية ودفاعاً سهلاً •

٣ ـ يفرض وضع التضاريس وتوزيعها على الطرقات الرئيسة القادمة من الشرق الى شمالي سورية أن تلتقي في موقع حلب •

٤ ـ تتصل منطقة حلب بآسيا الصغرى وبثغور البحر المتوسط بممرات ومفازات تخترق الجبال المحيطة بها ، وبالتالي فان الطرقات المؤدية اليها تخرج من حلب كما تلتقي القادمة منها فيها •

٥ ـ حلب في موقع تلتقي فيها أقوام الجبال مع سكان السهول والهضاب الشامية والرافدية ومع أقوام البحر المتوسط ، تتبادل فيها الأفكار والثقافات في أثناء تبادل المنتجات والسلع التجارية ، فهي موقع تجاري مهم أمين محمي ، ومكان لتمازج الحضارات منذ القدم ••

ان وجود مدينة حلب على مفترق الطرق التجارية الرئيسة أقدم من وجود طريق الحرير ، فطريق الحرير من بدايتها حتى نهايتها كانت في أساسها موجودة أخذت اسمها من سلعة الحرير التي نقلت على امتدادها في زمن ازدهرت فيه صناعته وتجارته وكثر الطلب عليه ،لذلك فطريق الحرير هي واحدة من شرايين التجارة القديمة المارة بحلب ،وجدت بتل الحرير ودامت بعد تراجع أهميته وانتشار انتاجه خارج الصين ،وكان لحلب دور بارز في جذب تجار سلعة

الحرير والقوافل الناقلة لها ولسلع أخرى وتنشيط حركة التبادل على الطرقات التجارية عامة ، وعلى طريق الحرير خاصة .

● ويقوم محمد بهجت قبيسي بتفسير بعض **أسماء الأماكن الجغرافية القديمة في منطقة حلب وتخومها** ، فقد ثبت بالخبرة لا الخبر أن أسماء القرى والمدن القديمة قبل دخول الاسكندر المقدوني للمنطقة في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد كانت تمثل ثلاثة مدلولات :

١ ـ أسماء ذات دلالات طبيعية (حلب ـ دفنا (انطاكية) وابلا) .

٢ ـ أسماء ذات دلالات عسكرية مثل حرستاوبقرحا وماري وتوتول وتدمر .

٣ ـ أسماء ذات دلالات دينية مثل : بليرمونوسرجلا وبيبلا .

أما الأسماء ذات الدلالات الشخصية والانسانية مثل : أنطاكية على اسم انطيوس وسلوقيا على اسم سلوقس ولاودكيا على اسم لاودكيا وآفاميا على اسم آبامي ... فهذا النوع من التسميات لم يعرف الا بعد فترة الاحتلال الاغريقي للمنطقة ، ولما دخل العرب العدنانيون الى المنطقة فان أصحاب البلاد أنفسهم أعادوا التسميات القديمة الى سابق عهدها بعد فترة غياب دامت زهاء الألف سنة .

● ويبرز عبدالهادي التازي ، **أهمية رحلة ابن بطوطة بكونها تراثاً عربياً أصيلاً** ، بما يمثله من بعد دولي واسع ، فقد عايش ابن بطوطة طائفة من الأمم وحاور عدداً من الحضارات ، ومن ثم كانت رحلته مرجعاً لكل من تهمه خريطة عالم الأمس وتهمه كذلك محطات الحرير .

المحور الثاني :

حلب عبر العصور (السمات الحضارية العامة)

● أولى محاضرات هذا المحور كانت للدكتور سلطان محيسن عن « منطقة حلب في العصور الحجرية » حيث تناول بالبحث المنطقة الممتدة من جرابلس وحوض الفرات الأعلى في الشمال الشرقي الى وادي عفرين في الشمال الغربي هبوطاً الى حوض نهر قويق والمتخ ومنطقة خناصر ، فسبخة الجبول في

الجنوب ، وقد جرت على امتداد هـذه المنطقة أبحاث وتنقيبات أثرية تناولت عصور ما قبل التاريخ في اطارها الجغرافي والجيومورفولوجي الرباعي وتبين أن منطقة حلب ذات الموقع المتوسط بين المناطق الساحلية في الغرب وسهول الجزيرة والفرات في الشرق ، قد توفرت فيها مقومات وجود الانسان الأول من ماء وغذاء وحيوان وخامات صوانية جيدة ، وأنها أعطت حضارات ذات صفات مشتركة بين المنطقة متوسطية السكن من جهة، ومنطقة الفرات من الجهة الأخرى ·

لقد تكاملت الأبحاث والنتائج العلمية التي قام بها مجموعة من العلماء، وأعطتنا صورة مفيدة عن انسان العصور الحجرية في منطقة حلب ، يمكن ايجازها على النحو التالي :

١ ــ العصر الحجري القديم الأدنى (الباليوليت الأدنى) : لم يعثر ــ حتى الآن ــ في منطقة حلب على دلائل أكيدة تعود الى بداية العصر الحجري القديم الأدنى ، وتعاصر ما هو معروف من مناطق أخرى كحوض نهر الكبير الشمالي أو حوض العاصي ·

٢ ــ العصر الحجري القديم الأوسط (الباليوليت الأوسط) : في هذه المرحلة التي تعود الى نحو (١٠٠٠٠٠ ــ ١٠٠٠٠٠) سنة خلت ، ظهر انسان النياندرتال الذي انتشر وبكثافة في كل أرجاء سورية والمشرق ، وتعدّ منطقة حلب من أهم وأغنى مناطق هذا العصر ، فقد عثر على آثار النياندرتال في الكثير من المواقع ، بعضها على السطوح أو ضمن المصاطب النهرية وفي المغاور والملاجىء الجبلية ، وتعدّ الأدوات الحجرية الشاهد الأهم من تلك المواقع وهي من النوع المسمى اللفلوازي ــ الموستيري ، وفيها نصال وحراب ومقاحف متقنة الصنع ، وجدت هذه الأدوات في وديان الفرات والساجور وقويق وحتى منطقة خناصر وفي وادي عفرين ·

وتعدّ مغارة « الديدرية » في وادي عفرين ، الموقع الأكثر أهمية ، فهي اضافة الى معطياتها الأثرية والنباتية والحيوانية قدمت ولأول مرة من سورية بعض أجزاء هياكل عظمية لانسان النياندرتال ·

٣ ــ العصر الحجري القديم الأعلى (الباليوليت الأعلى) : لا وجود لآثاره في منطقة حلب ، وتعود آثاره الى نحو (٤٠٫٠٠٠) سنة حلب ٠

٤ ــ العصر الحجري الوسيط (الميزوليت) : ان وادي عفرين أهم منطقة أعطت دلائل حضارات العصر الحجري الوسيط ، وتعود الى نحو (١٣) ألف سنة قبل الميلاد ٠

٥ ــ العصر الحجري (النيوليت) : وجدت آثار هذا العصر في العديد من التلال الأثرية التي تضم بقايا القرى الزراعية الأولى سواء في حوض قويق والجبول أم في وديان الفرات والساجور ومنبج أو في وادي عفرين ٠

● وقدمت « يسرى الكجك » دراسة أولية عن **مراكز الاستيطان الأولى في حوض الساجور** ، حيث أخذت آثار الاستيطان تظهر في هذه المنطقة بدءاً من العصر الآشولي الأعلى في الباليوليت الأدنى ، وقد استقر الانسان في المناطق القريبة من السطوح الغنية بالصوان والقريبة من المياه ، فأقام بكثافة واضحة في منطقة منبج وبخاصة على أطراف نهر الساجور ووادي رميلة ، كما ظهر في مواقع عرب حسن ، شيوخ فوقاني ، شيوخ تحتاني ، حلونجي ، حمام كبير ، محسنلي ، وغيرها ، وتصل الى نتيجة مفادها أن منطقة منبج عموماً وحوض الساجور خصوصاً كانت منطقة زاخرة بالحياة منذ العصر الجوي القديم ٠٠ قدم الانسان المنتصب لسكناها وتوسع في هذا الانتشار الانسان النياندرتالي ، ولم يهجرها الانسان العاقل بعد ذلك ، إنما استمر في التحرك بينها وبين وادي الفرات وسهل العمق وجبل سمعان ، وبذلك نلاحظ أن محافظة حلب الحالية كانت عامرة منذ قدم الأحقاب الانسانية ٠

● ويبحث **جاك كوڤان** عن « **دور الفرات الأوسط في تكوين المجتمعات الزراعية ــ الرعوية الأولى وانتشارها** » فيشير الى أن الفرات الأوسط السوري بالاضافة الى واحة دمشق ووادي الأردن كانت المنطقة الأولى في العالم الذي نشأت فيها القرى الزراعية منذ (٩٨٠٠) سنة ، وقد لوحظ في موقع المريبط بداية لزراعة غير مدجنة منذ بداية العصر النيوليتي ، ومنه انتقلت الى مواقع أخرى ، وأصبح الفرات الأوسط مركزاً لحضارة باكرة كانت الأولى من نوعها في العالم ٠

● وقدم أنطون سليمان دراسة عن« **حلب في منتصف الألف الثالث والثاني قبل الميلاد من خلال حفريات الأنصاري**»فألقي الضوء على مدى التطور التاريخي والحضاري لمدينة حلب ويوضح علاقاتهاالثقافية بالدول المجاورة ٠

وموقع الأنصاري بحلب أحد أهـم المواقع الأثرية لحضارة شمال سوريـة ، أسفر عن نتائج تقول بأن العلاقات التجارية بين دول مصر ، وبلاد ما بين النهرين والأناضول لا يمكن أن تكون إلا عن طريق شمال سورية ، حيث كانت هناك في الألف الثاني قبل الميلاد طرقاً للتجارة البريـة ،والطرق الرئيسية كانت تمتد محاذيـة مجرى الفرات وتتفرع بعد وصولها الى إيمار « مسكنة القديمة » الى الساحـل والجنوب ، والذي يقـع على الطريـق الجنوبيـة من مدينـة حلـب ، وكـان الآشوريون والبابليون بحاجة ماسة الى أخشاب وحجارة جبال الأمانوس وطوروس وجبال لبنان منذ عهد سارجون الآكادي، مما يؤكد أهميتها بالنسبة لبلاد الرافدين، وممـا يميز مستوطنـة الأنصـاري عن بقية المراكز الحضارية في الشرق ، كونها تقع في سهل مستو وبالقرب منها تقـع هضبـة الراموسـة ومدينـة الحمدانية الحديثة ، وينفرد هذا الموقع بصناعة الفخارية المحلية ذات النوعية العالية، وقد كانت الأنصاري من أكبر المراكز الحضارية المستقلة في شمال سورية ، وربمـا كان هذا المركز هو مدينة حلب القديمة نفسها ، والتي كانت تعرف باسم أرمان أو يمحاض ، ولعل هذين الاسمين همـا تسمية قديمة واحدة لمدينة حلب الحاضرة.

● الدكتور « هورست كلينغل »قدم محاضـرة عـن « **إله الطقس السـوري والعلاقات التجارية** » حيث كانت حلب مركزاً لعبادة إله الطقس الذي عُبد في مناطق عديدة من سورية كانت تعتمـد على الزراعة ، وقد عُرف هـذا الالـه بأسماء عدة منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، وقد ظهر لأول مرة في الرقم الابلائية وعُرف في ذلك الوقت باسم (حدا/حدو) ولا يمكن تحديـد مكان وجود معبده بشكل مؤكد في مدينـة كثيفة السكان كحلب ٠

سجلت أهمية إله الطقس في حلب بشكل واضح ، في نصوص ماري العائدة للقرنين التاسع والثامن عشر قبل الميلاد، وهو مذكور كاله المدينة الذي قدم لـه الملك « زمري ــ ليم » تمثاله ، وتمتع كهنته باحترام حكام سورية وبلاد ما بين النهرين ، ثم ظهرت أهميته في نصوص الأناضول ، فالملك الحثي « حاتوشيلى »

الأول (القرن السابع عشر قبل الميلاد) تباهى بأنه أسر تمثال إله الطقس الحلبي، ثم نصب التمثال وعُبد في العاصمة « حاتوشا » لقرون عديدة ، أما في سورية فقد عرف هذا الاله من ملك آلالاخ « إدريمي » الذي كرس كالهه وإله والده ملك حلب ، كما اعتبر ملوك آلالاخ اللاحقون (آلالاخ مدينة لا تبعد كثيراً عن مصب العاصي) هذا الاله كأهم آلهتهم ،كما هو واضح في نقوش أختامهم ،ونظراً للدور الكبير الذي لعبه الحوريون فيشمال سورية ، أطلق على إله الطقس الاسم الحوري « تشوب » •

● فاروق اسماعيل ، كانت محاضرته عن « **المركز التجاري (كاروم) في الألف الثاني قبل الميلاد** » فمع نمو الفعاليات التجارية وتنوعها برزت الحاجة الى وضع أسس تنظيمية للحياة الخاصة بها ، ويعد المركز التجاري (كاروم) الذي أسسه الآشوريون في كانيش في منطقة الأناضول ، أبرز مراكز الألف الثاني قبل الميلاد ، وقد عثر فيه على مئات الوثائق المسمارية المدونة باللهجة الآشورية القديمة ، وهي تصوّر بجلاء دقة العلاقات والنشاطات التي كانت تمارس هناك ، كما انتشرت تلك المراكز في سورية أيضاً ، فقد أنشأ التجار الذين كانوا يتنقلون بين بلاد بابل وسورية الداخلية مركزاً هاماً في مدينة ماري ، كما تشير الوثائق المكتشفة في تل ليلان (شيخنا) (شوبات انليل) الى وجود مركز تجاري فيها ، وكان يجمع القوى التجارية في منطقة مثلث الخابور •

ومن خلال نصوص ماري يتضح أيضاً أن مدينة قطنه (تل المشرفة) كانت ملتقى التجارة ، وكانت تضم مركزاً تجارياً ، وأن مدينة إيمار (مسكنة) كانت مرفأ نهرياً ومحطة تجارية تربط بين شرق الفرات وغربه.. وكان النشاط التجاري الذي يمارس فيه الأسواق التجارية في المدن الكبرى الواقعة داخل البلاد مثل حلب ودمشق وبيروت •••

● ويدرس « فيصل عبد الله » « **دور السلالة الحلبية الأولى في تجارة الشرق وشمال سورية في القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد** » فيتطرق في محاضرته الى تميز حلب في هذه المرحلة بالقوة العسكرية والتجارية على حد سواء ، وقد سجلت مئات النصوص الاقتصادية كميات كبيرة من المواد الأولية التي ترسل الى ملوك حلب وتخزن في مستودعاتهم ، يعاد تصديرها باتجاه البحر (بحر ايجه) أو شبه جزيرة الأناضول •

◎ المحور الثالث :

التجارة ، ظهورها وتطورها عبر العصور

● من الأبحاث الهامة التي تطرقت لهذا الموضوع ، كانت محاضرة الدكتور « عيد مرعي » الذي بحث في (**التجارة بين ماري وحلب في القرن الثامن عشر قبل الميلاد**) من خلال محفوظات ماري الملكية ، التي نتعرف من خلال ترجماتها دور سورية في القرن الثامن عشر قبل الميلاد وبخاصة في المجال التجاري حيث تتحدث النصوص عن المنتجات المختلفة التي كانت ترسل من حلب الى ماري أو بالعكس مثل : الخمر والعسل وزيت الزيتون والأخشاب المختلفة التي كانت ترسل من حلب الى ماري أو بالعكس مثل : الخمر والعسل وزيت الزيتون والأخشاب المختلفة التي كان المرء يحصل عليها من الجبال والمناطق القريبة من يمحاض كالأمانوس وطوروس ، وتمر عبر مملكة يمخاض متجهة الى ماري وبلاد ما بين النهرين ·

وقد لعب نهر الفرات دوراً هاماً في عملية التبادل التجاري والمواصلات بين ماري ويمحاض بشكل خاص ، فالبضائع والمنتجات كانت تنقل عبره في سفن متخصصة بذلك ، فنصوص ماري تذكر سفناً متخصصة في نقل الخمر وأخرى متخصصة في نقل الحبوب وثالثة متخصصة في نقل الجواريش ، وكانت ايمار (مسكنة حالياً) بمثابة ميناء لمملكة يمحاض على نهر الفرات تؤمها السفن ويقصدها التجار وتؤلف عقدة مواصلات نهرية وبرية هامة بين بلاد الرافدين وشمال سورية حيث يمر عبرها الطريق البري القادم من ماري والمتجه غرباً الى حلب فسواحل البحر المتوسط الشرقية ·

ويشير الباحث الى أن التجارة بين ماري وحلب كانت تجارة ملكية ، فالملوك هم الذين يرسلون أو يتلقون البضائع والمنتجات المختلفة كما يظهر من النصوص · أما العمليات التجارية فيقوم بها التجار ولكن بتكليف من ملوكهم ·

● وقدم « جان شارل » بالتي دراسة عن « **حلب وطرق تجارة الشرق**

الاغريقية والرومانية » تطرق فيها الى استمرار دور حلب التجاري في العهدين الهيليسنتي والروماني ، حيث عرف سلوقس نيكاتور أهمية حلب فأمّن منطقة العبور الاجبارية التي تتمتع بها حلب في ملتقى طريق التجارة الرئيسي في آسيا الوسطى وحوض دجلة والفرات ..

لقد احتلت المدن الاغريقية والرومانية النقاط التجارية الرئيسة مكان عواصم الألف الثالث والثاني قبل الميلاد، ومراكز التجارة القديمة في سورية الشمالية ، فقامت لاوديسا قرب أوغاريت ، وسلوقية قرب المينا ، وآفاميا فوق نيجا وبيريه فوق حلب ، كما أخذت أنطاكية دور آلالاخ (تل عطشانة) واحتلت دورها الاقتصادي الهام ..ولما كانت المراكز التجارية لم تتغير أبداً على طريق الشرق فان نشوء هذه المدن ،ارتبط بعملية الاستمرارية لا بعملية التغيير ، ويتبين من دراسة أسلوب توزعها أن خطة سلوقس لم تكن عسكرية ، فهو لم يتقدم في منطقة صحراوية على الرغم من قلّة الشواهد والتنقيبات الأثرية ، واذا لم تكن حلب الألف الأول قبل الميلاد بنفس ازدهارها في الألف الثاني قبل الميلاد ، الا أنها لم تكن مجرد أنقاض عند تأسيسها وتوسيعها من قبل سلوقس ، وأما التل الذي نشأ مكان معبد حدد / تشوب ، فقد أصبح اكروبول المدينة الاغريقية الرومانية وفق مخطط مشابه لمخططات مدن معاصرة له مثل آفاميا ، ثم لم يلبث أن تحول الى قلعة المدينة في القرون الوسطى .

لقد كانت حلب / بيريه/ نقطة اجبارية على الطريق الواصلة بين أنطاكية وهيرابوليس والفرات واستمرت بازدهارها في زمن الرومان حيث انتقلت الى قلب المقاطعة الرومانية ، وبعد معركة اليرموك والفتح العربي كانت الأولى في سك العملة في عهد الخليفة عبدالملك / ٦٩٣ ـ ٦٩٤ م / وهذا دليل آخر على الاشعاع الاقتصادي الدائم لهذه المدينة القديمة .

● ودرس محمد زيود موضوع « **النشاط التجاري في حلب خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة / العاشر والحادي عشر للميلاد** » فتطرق الى دور حلب في عهد الروم الغزاة وغيرهم ، حيث غدت أثناء النفوذ البيزنطي عليها أحد المنافذ الرئيسة الهامة لتجارة بيزنطة مع العالمين العربي والاسلامي في الشرق ، وحلّت بذلك محل أرمينية التي فقدت أهميتها في هذه الفترة ...

ويشير الى وجود أماكن مقدسة ومشاهد ومزارات في حلب دفعت بالكثيرين للتوجه اليها وهذا مما ساعد على التجارة ونشط عملياتها التجارية ، وتطرق الى دور الاسلام وتعاليمه وحضه على العمل التجاري وأثر ذلك في نشاط الحركة التجارية في حلب وغيرها من المدن الشامية ٠

وكانت محاضرة «نعمان جبران» عن« **حلب ، محطة على طريق الحرير وأثر الصليبيين والمغول عليها** » ٠فأشار الى أن الطرق التجارية كانت تتأثر بالتطورات السياسية والعسكرية وتبادل القوى في السيطرة على أهم المعابر التجارية ، ومن هذا المنطلق يرصد الآثار الايجابية والسلبية التي أثرت على حلب كمحطة على طريق الحرير من خلال تصارع القوى المختلفة حول الاستفادة من المناطق التي تلعب دوراً هاماً في النشاط التجاري ويبدو ذلك أكثر وضوحاً في فترة الغزو الصليبي لبلاد الشام، حيث كان من ضمن استراتيجياتهم السيطرة على المناطق المهمة استراتيجياً واقتصادياً والعمل على قطع الاتصال أو اعاقته بين المناطق الاسلامية ، ضمن هذا التوجه كانت أنطاكية والرها من المناطق الاسلامية، ضمن هذا التوجه كانت أنطاكية والرها من المناطق الصليبية المحتلة التي هددت اقتصاديات حلب وطرق تجارتها ، فالرها مثلاً شكلت ولمدة (٤٠) سنة تهديداً للطرق التجارية بين حلب والموصل علاوة على الغارات الصليبية المتكررة على مناطق حلب وما رافق ذلك من ضربات لاقتصاديات المنطقة ٠

وبعد حركة الافاقة العربية الاسلامية منذ عهد عماد الدين زنكي شكلت حلب ومناطقها نقطة هامة في الحسابات الاستراتيجية للصليبيين والمسلمين في محاولة من كل طرف للفوز بحلب لما تمثله من أهمية على الصعيدين الاستراتيجي العسكري والاقتصادي ٠

واثر اخفاق الصليبيين في السيطرة على حلب أو تحييدها لجؤوا الى محاولة الاستفادة من موقعها التجاري وذلك عن طريق المراسلات وعقد الاتفاقيات التجارية ، وتبرز أهمية حلب في فترة الحكم المملوكي ولكن بشكل متعثر في البداية ، وقد استطاعت في بعض الفترات أن تزدهر وتعمق دورها التجاري ٠

◙ المحور الرابع :

حلب وتجارة الحرير

● كانت بداية هذا المحور محاضرة للدكتور « شوقي شعث » عن « **حلب وتجارة الحرير وصناعته في العهدين المملوكي والعثماني** » حيث نجد أن انتاج الحرير وبخاصة المقصّب منه قد تركز في أواخر العهد الأيوبي والعهد المملوكي الأول في مدينة حلب ، وقد برعت حلب في تقصيب الحرير وتاجرت به مع أوربا التي كانت تقبل على شرائه نظراً لجودته ورخص أسعاره بالمقارنة بأسعار الحرير الذي كان يجلب من أواسط آسيا ، وقد كانت حلب في العصر المملوكي الأول محطة هامة للتجارة بين الهند والبندقية (فينيسيا) بايطاليا وحافظت على ذلك فترات طويلة بسبب مهارة أهل حلب التجارية حيث أصبحت الأعمال التجارية لدى الحلبيين من أهم الأعمال ممارسة وبسبب التقاء عدة طرق تجارية عند حلب من أهمها الطريق التي كانت تعرف بطريق الهند التي تنطلق من حلب الى بغداد فالبصرة فعبدان فهرمز ثم الهند .

وقد لوحظ أن هذا الطريق انتعش في الفترة الأيوبية ، ولكنه فقد أهميته حينما تعرضت حلب وبلاد الشام الى الغزو المغولي ، حيث تحولت الطريق الى الجنوب فأخذت تستخدم البحر الأحمر الى عدن ومن ثم الى الهند ، الا أن هذا التحول لم يدم طويلاً فعاد الى سابق عهده بعد أن زالت أسبابه على أثر موقعة عين جالوت ، وأصبحت حلب من جديد مركزاً لتجارة الهند وظل هذا الطريق على نشاطه وازدهاره حتى اكتشاف رأس الرجاء الصالح عام (٩٠٣ هـ/١٤٩٧م) من قبل البرتغاليين، حيث تحولت الطريق التجارية عن حلب من جديد ، لكن حلب لم تفقد ثروتها بالكلية انما بقي فيها من التجارة جانب عظيم لا يوجد مثله في كثير من الممالك .

● وقدم محمود حريتاني دراسة ميدانية عن « **صناعة وتجارة المنسوجات الحريرية في حلب** » فأشار الى ازدهار حلب منذ القديم بمنسوجاتها وبخاصة

الحريرية منهـا ، التي حظيت بشـهرةواسعة في هذه المدينة ومنها انتقلت الى فرنسا ثم الى أوربا، فضلاً عن انتشارهافي منطقة الشرق الأوسط • وقـد عرفت الخيـوط الحريريـة الطبيعيـة منـذعهود سحيقة ، فكانت تربية دودة القـز منتشرة في مناطـق سواحل بلاد الشـام وعلى ضفاف نهر العاصي ، وتوسعت في جبال الساحل السـوري ، وقد تميـزت مهارة صنـاع النسيج الحـريري بحلب بالانتاج الرائع والفريد ، وعرف نسيج الحرير بحلب بطرازه التشكيلي الزخرفي، ونقوشه الجميلة ، وفي حلب ظهر ، وربما لأول مرة في صناعـة النسيج في العـالم القديم ما يعرف ب « النقـاش » والذي بـدأت تظهر معه ملامـح الابـداع في التصاميم والاختراع للأشكال المتطابقـة مع الألوان التي تتناسب وذوق المستهلك أينما كان ، وكانت صناعة خيوط الذهب والفضة التي تضاف الى النسيج الحريري خاصة بمدينة حلب •

★ ★ ★

وهكذا كانت ندوة حلب وطريق الحرير بما تضمنته من أبحـاث ودراسات هامـة وجديدة قدمها نخبة من كبار المختصين والعلماء ، فرصـة هامـة لتعـرف جانب من جوانب حضارة وعظمة هذه المدينـة الخالـدة التي تعتبر بحق واحدة من أبرز المحطات التجارية على طريق الحرير والتجارة بين آسيا من جهة وأوربة ، وعالم البحـر المتوسط من جهـة أخرى ، وكانت وراء شهرة طريـق الحرير وازدياد أهميته على امتداد نحو ألف عام من القرن الثاني قبل الميلاد حتى القرن الثامـن للميلاد ، وقد حافظت هذه المدينة على عظمتها وازدهارهـا وتطورها بفضل نشاط أهلهـا وأهمية موقعها وتوفر عناصر استمرار ألفتها وحيويتها •

★ ★ ★